المملكة العربية السعودية
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الأدب

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٤١٣

المبالغة في البلاغة العربية
تاريخها وصورها

٤١٢
جامعة أم القرى / مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

اعداد الطالب :
عالي بن سرحان عمر القرشي ٢٤٠٠

اشراف الدكتور :
علي محمد حسن العماري

لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية (فرع الأدب)

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

(مقدمـــــه)

الحمد لله الذى تعبّدنا بقرآنه المجيد الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيلٌ من حكيم حميد) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعـــد :

فإنّ البحثَ في بلاغةِ الكلمة بحثٌ جليل ، يستمد جلالَه من جلالِ الكلمـــة التي بها كوّن الكون ، وخلق الإنسان ، ونزل الوحي ، والتي منّ الله علينـــــا ـ معشر المسلمين ـ بأن تعبّدنا بها في قرآنه المجيد ، الذى تحدى به أفصـــح العرب وأبلغهم ، فأذعنوا لبلاغته ، وأقروا بها ، وصدقوا بكلماته ، وعملوا بمقتضاها ، فسادوا الأمم ، وصدعوا بنداء الحق في الأرض .

ولقد تنوعت الأبحاث التي تتناول بلاغة الكلمة ، وحاول النقاد والبلاغيـــون أن يضعوا المسميات والمصطلحات التي يدرسون من خلالها بلاغة الكلمة ، وكان مـــن بين هذه المصطلحات مصطلح " المبالغة " الذى اخترته موضوعا لهذه الرســـالة ، وهذا المصطلح ليس تسمية للون بلاغي فقط كسائر مصطلحات البلاغة من اســـتعارة ، وكناية ، وتشبيه ، واطناب ، وقصر ، وطباق ، وجناس . . الخ ولكنه يحمل في ذاته حكما على الكلمة يتبادر من اطلاقه الحكم على الكلمة بتجاوز الحقيقة ، والإفراط والإسراف والإدعاء ، والكذب ، ولقد شاع هذا " المصطلح " في تراثنا البلاغي ، والنقـــــدى شيوعا طاف به في معظم أساليب الكلام العربي ، وأطلق أيضا على بعض أساليـــب القرآن الكريـم . وكان شيوعه ، وحمله لذلك الحكم في ذاته مدعاة لتباين مواقـــف النقاد والبلاغيين قديما والدارسين حديثا حول ما تسمى بهذا الاسم ، ذلك التباين الذى لا يناقش ـ غالبا ـ ما بنى عليه ذلك الحكم الذى يحمله هل يصح أو لا ؟

ولهذا كانت مراجعة هذا " المصطلح " أمرا جديرا بالأهمية ، يستمـــــد أهميته من جلال الأساليب التي أطلق عليها هذا " المصطلح " وحكم به عليها ، ومن خطورة اتصاف هذه الأساليب بما اقترن به من تزيد ، وتجوز ، وادعاء ، وكذب ، فإذا استطعنا أن ننفك به عما اقترن به من اتهام للكلمة ومصادرة لها ، فإننا نبقي علـــى

صحة إطلاق مصطلح بلاغي وجد في تراثنا النقدي والبلاغي ، لا يضير قرآننا الكريم وتراثنا العربي ، ويبقى البحث فيه بعد ذلك متجها عما إذا كان لهذا " المصطلح " قيمة في تقدير بلاغة الكلمة !

وإذا لم ينفك عما اقترن به ، فلا ضير علينا من أن نلغيه من مصطلحاتنا البلاغية وذلك لأن قرآننا الكريم ، وتراثنا الأصيل أولى بكثير من تراثنا النقدي والبلاغي ، ولبحث ذلك كان عليّ أن أتناول مدلول كلمة " المبالغة " في اللغة قبل أن تكون مصطلحا بلاغيا تتنازع حوله الآراء ، ثم تتبع تطور هذا المصطلح وما اقترن به عبر رحلته في تراثنا النقدي والبلاغي من مصطلحات ومفاهيم، وسيكون هذا هو موضوع الباب الأول من هذا البحث حيث سأتتبع فيه مدلول المبالغة في اللغة ثم أتناول مدلولها في التآليف العربية سواء أكانت نحوية أم لغوية ، أم نقدية ، أم بلاغية ولن أغفل أيضا تلك الدراسات التي تناولت إعجاز القرآن الكريم ، وتفسيره ، وسأقسم هذا الباب بعد التمهيد إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول ويتناول :

المبالغة وتطور مصطلحاتها حتى نهاية القرن الرابع الهجري .

الفصل الثاني ويتناول :

المبالغة وتطور مصطلحاتها عند علماء القرن الخامس الهجري .

الفصل الثالث ويتناول :

المبالغة وتطور مصطلحاتها عند علماء البلاغة المتأخرين .

والذي دعا إلى هذا التقسيم هو : تسهيل الدراسة ، والمتابعة بوضع حلقات يقف الدارس والقارئ عندها ، حيث جعلت نهاية القرن الرابع حدا للفصل الأول ، وذلك لأن هذه الفترة تمثل بداية نمو البلاغة العربية عبر الحركة النقدية والتي شهدت في أواخر القرن الرابع نشاطا ملحوظا يدعوني أن أتتبع نمو " مصطلح المبالغة " هنا وهناك في ثقة فيها كثير من الاستقصاء والتأمل ، ذلك الأمر الذي سأكتفي فيه في الفترة الثانية التي تمثل موضوع الفصل الثاني بتتبع " المبالغة " عند الأعلام في مختلف الاتجاهات .

وأما فترة الفصل الأخير من هذا الباب فهي تمثل فترة انحدار البلاغة وجمودها ، وسيتناولها البحث عند السكاكي ومن تابعوه في مزج البلاغة بالمنطق والفلسفة ، وعند ضياء الدين بن الأثير الذي عاصر السكاكي وحذا حذو القدماء ، وعند الإمام العلوي الذي عاصر الخطيب ، وحاول أن ينهج منهجا يختلف عن منهج

السكاكي ، وستكون الطريقة في كل هذا هي تتبع تسمية هذا المصطلح ، ومعرفة الأساليب التي أدخلت تحته ، ودرجات المبالغة وماذا يقصد بها ؟ وهل تقف عند بلوغ النهاية في المعنى ؟؟ أو تتجاوز ذلك الى الإسراف والكذب والإدعاء .

وأما الباب الثاني من هذا البحث فسيتناول (أساليب المبالغة في البلاغة العربية) حيث سأدرس فيه الأساليب التي أخضع تراثنا البلاغي والنقدى رقابها للمبالغة .

حيث سأبين في كل أسلوب ، كيف أدخله البلاغيون والنقاد تحت المبالغة؟ ومدى صحة هذا الصنيع ، وهل يصح أولا ؟ وسأعرض لبعض أمثلة هذه الأساليب التي حكم عليها بالمبالغة بالتحليل والدراسة ، لنعرف أي الاتجاهين أكثر ثراء للنص : هل هو ذلك الاتجاه الذى يخضعها للمبالغة ، أو ذلك الاتجاه الذى يدرس تلك الأساليب في سياقها الخاص من خلال وجودها اللغوى ، وسأقسم دراسة هذه الأساليب على أبواب البلاغة العربية في ثلاثة فصول :

الفصل الأول :

أساليب المبالغة في علم البيان

وسأعرض فيه للمبالغة في كل من التشبيه ، والاستعارة ، والكناية .

الفصل الثاني :

أساليب المبالغة في علم المعاني

وسأعرض فيه للمبالغة في كل من صور الاطناب ، والقصر .

الفصل الثالث :

أساليب المبالغة في علم البديع

وسأعرض فيه للمبالغة ، والغلو كباب من أبواب البديع ، وسأعرض لها أيضا في حسن التعليل ، وتجاهل العارف ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم .

وأما الباب الأخير من هذا البحث فسيتناول " مكانة المبالغة في البلاغة العربية " حيث سأتناولها في فصلين :

الفصل الأول :

شيوع التعليل بالمبالغة وأسبابه

حيث سأحاول فيه استنتاج الأسباب التي أدت الى شيوع التعليل بالمبالغة في تراثنا النقدى والبلاغي .

الفصـــل الثاني :

المبالغـة بين القبـول والرفـــض

وسأحاول فيه تفسير المواقف المختلفة والمتباينة من المبالغـــة .

وإني لأحمد الله العزيز الذي أمدني بتوفيقه وعونه إلى أن أسير في خطوات هذا البحث حتى استوى على سوقـه ، تاركا تقدير معاناته لمن نظر فيه وقدره .

وأتوجه بالشكر إلى كل من قدم لي عونا ، ومشورة في إخراج هذا البحـــث وأخص بالشكر أستاذي الجليل الدكتور علي العطاري الذي ما فتئ يسدد خطـــاي بتوجيهاته الصائبة ، ويقوّم زيغي بعلمه الغزير ، وبصيرته الثاقبة ، حيث فتح لـــي صدره ، وحاور أفكاري ونقّحها ، وشجّع فيّ روح البحث والاستقلال في الرأي ، وسهر على قراءة هذا البحث ومدارسته ، فوهب لي وقتا يفوق الوقت المخصص لي بكثـــير ، ذلك الأستاذ الذي لم تكن علاقتي معه علاقة المشرف بتلميذه ، بل كانت علاقتي بـــه علاقة الأب الحنون ، والأخ الموجه ، والمعلم القدير ، فجزاه الله عني خير الجـزاء ، ووهبه الصحة والعافية وأعانه على كلمة الحق .

كما أتوجه بالشكر الجزيل والامتنان العظيم إلى كل مسئول ومشرف علـــى الهيئات التالية :

* وزارة المعارف التي أتاحت لي هذه الفرصة فابتعثتني دارسا .
* جامعة أم القرى بمكة المكرمة .
* كلية الشريعة والدراسات الاسلامية التي قبلتني دارسا بها قبل تأســـيس كلية اللغة العربية .
* كلية اللغة العربية التي خرج هذا البحث في رحابها .
* قسم الدراسات العليا العربية .
* إدارة الدراسات العليا بهذه الجامعة الفتية .

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين) .

عالي سرحان عمر القرشي

٩ جمادى الثانية عام ١٤٠٢هـ

الباب الأول

التطور التاريخي لفكرة المبالغة ومصطلحاتها

تمهيـــــــــد : المعنى اللغـوى للمبالغـــــة

الفصـــــل الأول :

المبالغة وتطور مصطلحاتها حتى نهاية القرن الرابع الهجرى

الفصـــــل الثاني :

المبالغة وتطورها ومصطلحاتها عند علماء القرن الخامـــس الهجرى

الفصـــــل الثالث :

المبالغـة عند المتأخريـــــــن

(تمهيـــــــــــد)

المعنى اللغوي للمبالغـة :

قبل أن أمضي قدما ، في تتبع حركة هذا المصطلح عبر تراثنا النقـــدي والبلاغي رأيـــت من الضروري أن أتبين دلالة هذا المسمى اللغوية ، حتى نكـــون بعد ذلك على بيّنة بمدى قرب أو بعد هذا المصطلح من دلالته اللغوية عبر هـــذه الرحلـــة .

وليكون ذلك أيضا نبراسا نستضيء به في فهم هذا المصطلح ، ويكشف لنـــا ما أصابه من انحراف عن مفهومه اللغوي ، يؤدي الى الخلط والاضطراب .

فأبو منصور محمد بن أحمد الأزهري المتوفي سنة ٣٧٠هـ يقول :

" قال الليث : والمبالغة أن تبلغ من العمل جهدك " (١) .

وقال ابن سيدة " وتبالغ الدّباغ في الجلد : انتهى فيه . عن أبي حنيفـــة ... والمبالغة أن تبلغ من الأمر جهدك " (٢) . فهي هنا دلالة على بذل أقصـــى الغاية من الطاقة والجهد .

وعلى هذا جاء قول ابن منظور :ـ

" بالغ يبالغ مبالغة وبلاغا اذا اجتهد في الأمر . والمبالغة أن تبلغ في الأمر جهـــدك " (٣) .

ولأجل هذه الدلالة صح أن تطلق وصفا لمن يبذل أقصى الغاية من جهـــده وطاقته في الأمر . يقول الفيروز ابادي :ـ

" وفي الحديث كل رافعة رفعت علينا من البَلاَغ ، أي ما بلغ من القرآن والسنن أو المعنى من ذوي البلاغ أي التبليغ ، أقام الاسم مقام المصدر ، ويروى بالكســـر أي من المبالغين في التبليغ . من بالغ مبالغة وبلاغا اذا اجتهد في الأمر " (٤) .

وعلى هذا ، فالمبالغة ومادتها مؤشر نهاية في الأمر ليس بعده من مزيـــد .

وعليه قول الزمخشري :ـ

" وتبالغ فيه المرض والهمّ اذا تناهى " (٥) .

وقول ابن سيدة :

" وتبلّغ به مرضه : اشتد " (٦) .

---

(١) تهذيب اللغة : بلغ جـ ٨ / ١٣٩

(٢) المحكم والمحيط الأعظم في اللغة : بلغ جـ ٢ / ٣١٥

(٣) لسان العرب : بلغ

(٤) القاموس المحيط : بلغ

(٥) اساس البلاغة : بلغ

(٦) المحكم : بلغ جـ٥ / ٣١٥

وقول صاحب القاموس :

" وتبلّغ بكذا اكتفى به ، والمنزل تكلّف اليه البَلَغ حتى بلغ ، وبه العلة اشتدت ، وبالغ في أمرى لم يقصر "(١) .

ولقد جنى المؤشر النهائي لهذه الكلمة على هذا المصطلح اذ أن موقعها مظنة الشك في أن تزيد هذه الغاية التي يشير اليها عن حدها ، فتنقلب الى ضدها فتوسم بالكذب ، والتجاوز ، والإفراط . تلك السمات التي لم أر في المعاجم التي عالجت هذه المادة دلالة على وسمها بها إلا في جهةٍ من الجهات التي يمكن أن يفسر بها قول الفيروز ابادى " وثناء أبلغ : مبالغ فيه " .

وذلك اذا أخذ هذا القول وفسر بمنأى عن جميع أقواله في هذه المادة . وهو الأمر الذى لا يدعو اليه التحرى والإنصاف .

ومن هنا يمكن أن نفسر ونفهم احتراز ابن قتيبة ، من أن هذا المسمى يراد به الكذب وذلك حيث يقول :

" تقول العرب اذا أرادت تعظيم مهلك رجل ، عظيم الشأن ، رفيع المكان ، عام النفع ، كثير الصنائع " أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكته الريح ، والبرق ، والسماء ، والأرض ، يريدون المبالغة في وصف المصيبة به وانها قد شملت وعمّت ، وليس ذلك بكذب لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه "(٢) .

---

(١) القاموس المحيط : بلغ

(٢) تأويل مشكل القرآن : ١٦٧ ، ١٦٨

(الفصـــــل الأول)

استعمال المبالغة ومصطلحاتها حتى نهاية القرن الرابع الهجرى

بداية التسمية بلفظ " المبالغة " :

ان أول نصوص تحمل فكرة المبالغة في الفكر العربي وتسميها صراحـــة نجدها عند النحاة الأوائل وبالتحديد عند الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفـــي سنة ١٧٠هـ. عندما حدد لتلميذه سيبويه الفرق بين خَشُن واخشوشن وقد حكى ذلـك سيبويه بقوله " قالوا خشن ، وقالوا اخشوشن وسألت الخليل فقال : كأنهم أرادوا — المبالغة والتوكيد كما أنه إذا قال اعشوشبت الأرض فإنما يريد أن يجعل ذلك كثـــيرا عاما قد بالغ "(١) .

فكرة المبالغة هنا تدل على زيادة في المعنى لزيادة الحروف ، فالزيـــادة في معنى أى اشتقاق عن النواة الأولى لذلك الاشتقاق هي التي سماها الخليـــل المبالغـــة .

فالمبالغة تطلق على تكثير المعنى . والفكرة نفسها طبقها سيبويه في صيـــغ المبالغة وذلك حيث يقول " وأجروا اسم الفاعل ، اذا أرادوا أن يبالغوا في الأمـــر مجراه ، اذا كان على بناء فاعل لأنه يريد به ما أراد بفاعل من ايقاع الفعل ، الا أنـــه يريد أن يحدث عن المبالغة "(٢) . وعلى هذا تكون المبالغة في اللفظة المفردة فكرة أصيلة في اللغة احتفلت بها ودلت عليها بألفاظها ، تلك الألفاظ التي تشكل مـــن النواة الأولى بالاشتقاق لتحمل فكر الانسان العربي في معرفته للأشياء ومقارنة بعضهـــا ببعـــض .

وانتقلت هذه الفكرة التي تطلق على تكثير المعنى من اللفظة المفردة الـــى التراكيب ، وقد كان ابن قتيبة — فيما نعلم — أول مطلق لهذا المصطلح علـى ارادة تكثير المعنى في التراكيب ، اذ ورد ذلك المصطلح في ثلاثة مواضع من كتابه (تأويـل مشكل القـرآن) .

يقول في أولها معلقا على قوله تعالى (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين)(٣) : (تقول العرب : أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكتـــه الريح والبرق ، والسماء والأرض يريدون المبالغة في وصف المصيبة به ، وانها قد شملت

---

(١) الكتاب : ٤/٧٥ (٢) الكتاب : ١/١١٠

(٣) سورة الدخان : ٢٩

وعمّت ، وليس ذلك بكذب لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه .

وهكذا يفعلون في كل ما أرادوا أن يعظموه ، ويستقصوا صفته)[١] .

ثم أورد لذلك عددا من الأمثلة من القرآن الكريم ، والشعر العربي ، وأمثال العرب وكناياتهم — أصبح أكثرها فيما بعد أمثلة للمبالغة على اختلاف درجاتها كما سيظهر ذلك من خلال هذا الباب — ومنها قوله تعالى (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر)[٢] . وقوله جلّ وعز (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال)[٣] ، وقوله تعالى (وبلغت القلوبُ الحناجرَ)[٤] . وقول الشاعر :

الشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكي عليك نجومَ الليل والقمرا[٥]

وقول الأعشى :

رجعت لما ومت مستحسرا ... ترى للكواكب ظهرا وبيضا[٦]

وقول النابغة في وصف سيوف :

تقدّ السّلوقي المضاعف نسجه ... وتوقد بالصّفاح نار الحباحب[٧]

وقول النمر بن تولب في صفة سيف :

تظلّ تحفر عنه ان ضربت به ... بعد الذراعين والساقين والهادى[٨]

وقول مهلهل :

ولولا الريح أسمع أهل حجر ... صليل البَيْضِ تقرع بالذكور[٩]

وقول قيس بن الحطيم يصف طعنه :

ملكت بها كفّي فانهرت فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءها

وقوله أيضا :

---

(١) تأويل شكل القرآن : ١٦٧، ١٦٨ . (٢) سورة القلم : ٥١

(٣) سورة ابراهيم : ٤٦ (٤) سورة الأحزاب : ١٠

(٥) أراد : الشمس طالعة تبكي عليه ، وليست مع طلوعها كاسفة النجوم والقمر ، لأنها مظلمة (تأويل شكل القرآن : ١٦٨) . (٦) وبيض : بريق .

(٧) السلوقي : الدرع المنسوبة الى سلوق . قرية باليمن . والصفاح : الحجر العريض وقال أبو حنيفة : نار حباحب ونار أبي الحباحب : الشرر الذى يسقط من الزناد .

(٨) الهادى : العنق قال في اللسان (الهادية والهادى العنق لأنها تتقدم على البدن ولأنها تهدى الجسد) .

(٩) الذكور : السيوف التي عملت من حديد غير انيث (الآمالي ٢ / ١٣٤) .

لو أنّك تلقي حنظلا فوق بيضنا تدحرج عن ذى سامه المتقارب (١)

وقول عنترة :

وأنا المنيةُ في المواطن كلها والطعنُ منى سابقُ الآجال

وقول بشار :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وقول ابن ميادة :

ولو أن قيسا قيس عيلان أقسمت على الشمس لم تُطلع عليك حجابها

وقول الطرماح :

ولو أن حرقوصًا على ظهر قملة يكرّ على صفى تميم لولت (٢)

ثم قال (والعرب تقول : " له الطّمّ والرّمّ " اذا أرادوا تكثير ماله .

والطّمّ : البحر ، والرّمّ : الثرى : وهذا لا يملكه إلا الله تعالى .

ويقولون : " فلان دون نائلة السحاب " ويقولون : (له الضّحُ والريحُ " يريدون ما طلعت عليه الشمس ، ومرت عليه الريح .

ويقولون " فلان يثير الكلاب عن مرابضها " (٣) .

وقال الشاعر :

تركوا جارهم يأكله ضَبُعُ الوادى ، ويرميه الشجر

ثم عقّب على ذلك بقوله (وهذا كله على المبالغة في الوصف ، وينوون في جميعه يكاد يفعل ، وكلهم يعلم المراد به) (٤) .

وقد أشار ابن قتيبة الى أن بعض أهل اللغة يسمى مثل هذا بالإفراط وتجاوز المقدار فقال : (وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن ، وينسبها فيه الى الإفراط وتجاوز المقدار ، وما أرى ذلك إلا جائزا حسنا على ما بيناه من مذاهبهم) (٥) وهذا يدل على أن ابن قتيبة يعتبر المبالغة درجة دون الإفراط وتجاوز المقدار) .

---

(١) يقول : ترامى القوم في القتال حتى لو أن ملقيا ألقى على بيضهم حنظلا لجرى عليها كما يجرى على الأرض ولم يسقط لشدة تراصفهم . و " عن " بمعنى " على " وذو سامه : بيضة المذهب . والسّام : عروق الذهب (تأويل مشكل القرآن : ١٧٤ ، ١٧٥) .

(٢) قال محقق تأويل مشاكل القرآن : (الحرقوص : دويبة : أكبر من البرغوث وعضها أشد من عضه كما قال الجاحظ في الحيوان ٦/٤٥٤) .

(٣) يريدون انه لشرهه ولؤمه يثيرها عن مواضعها ، يطلب تحتها شيئا فاضلا من طعمها ليأكله وهذا مالا يفعله بشر (تأويل مشكل القرآن : ١٧٨)

(٤) المصدر السابق : ١٧٨ . (٥) المصدر السابق : ١٧٢ ، ١٧٣ هناك تناقض بين قوله هذا وحكمه على بعض هذه الأبيات التي أوردها هنا بالكذب في الشعر والشعراء ، وسنبين ذلك مستقبلا ان شاء الله .

وأما الموضع الثالث الذى أورد فيه ذكر المبالغة ، فقد اعتبرها فيه غرضا من أغراض المقلوب ، الذى عُرف فيما بعد بالأضداد ، حيث عدّ من أغراضه التطير ، والتفاؤل في نحو السليم ، والمبالغة في الوصف في نحو قولهم للشمس " جونه " لشدة ضوئها . وللغراب " أعور " لحدة بصره .

والاستهزاء في نحو قولهم للحبشي : أبو البيضاء ، وللأبيض : أبو الجون (١) .

المبالغة في نقد الجاهلية وصدر الإسلام :

وإن كانت المبالغة لم تتخذ هذا الاسم دليلا عليها إلا عند ابن قتيبة فإنها كانت معروفة بل مطلوبة في كثير من الأحيان عند متذوقي الشعر ونقدته في الجاهلية وصدر الاسلام والسبب في ذلك أن العربي يحرص في وصفه للشيء على المثال ويصر عليه . ويرى تقصير الشاعر عن بلوغ المثال قدحا في شاعرية الشاعر . فعندما أنشد حسان بن ثابت النابغة الذبياني قصيدته التي منها قوله :

لنا الجَفَناتُ الغرُّ يلمعن بالضحى وأسيافُنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بن العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

قال له النابغة : " انت شاعر ولكنك أقللت طعانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك " (٢) وما ذلك الا لأن حسان قصر في الفخر عن بلوغ المثال ولم يبالغ في تكثير عدد السيوف والجفان ، وعندما قال امروُ القيس في وصف فرسه :

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب (٣)

فاستعان عليه بهذه الأشياء ، وجدت امرأته المبغضة له في قصوره عن المثال والمبالغة في وصف فرسه مجالالتفضيل علقمة الفحل عليه في قوله (٤) :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمرّ كمر الرائح المتحلِّب (٥)

وعلى سنة التذوق هذه سار الكثيرون بعد النابغة على هديها . اذ عرضت امرأة لكثيّر فقالت له : أنت القائل :

فما روضة بالحزنِ طيبةُ الثّرى يمجُ الندى جثجاثُها وعرارُها

بأطيب من أردان عزة موهنا اذا أوقدت بالمندل الرطب نارها (٦)

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ١٨٥ (٢) الموشح : ٨٢

(٣) الأخرج : ذكر النعام ، مهذب : من الإهذاب وهو الاسراع في الطيران والعدو

(٤) انظر الموشح : ٢٨ — ٣٠ . (٥) الرائح : السحاب . المتحلب: المتساقط المتتابع .

(٦) قال المبرد : الجثجاث : ريحانه طيبة الريح برية : والعرار: البهار البرى وهو حسن الصفرة طيب الريح . والمندل : العود . وقوله : موهنا : يقول بعد هدء من الليل (انظر الموشح : ٢٣٩) .

فقال لها نعم : فقالت له : فضّ الله فاك : أرأيت لو أن ميمونة الزنجية بخرت بمندل رطب أما كانت تطيب ؟ ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم تر أني كلما جئت طارقا ... وجدت بها طيبا وان لم تطيّب (١)

ولم يحد عبد الملك بن مروان عن هذه السنة عندما قال لكثيّر حين أنشده :

على ابن أبي العاص دِلاصٌ حصينة ... أجاد المسدّى سردَها وأذالها

يؤود ضعيف القوم حملَ قتيرُها ... ويستضلع القرمُ الأشمّ احتمالَها (٢)

قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحب اليّ من قولك اذ تقول . وفي رواية : ألا قلت كما قال الأعشى (٣) :

واذا تجيء كتيبة ملمومة ... خرساء يخشى الذائدون نهالَها

كنت المقدمَ غيرَ لابس جُنَّة ... بالسيف تضرب معلما أبطالَها (٤)

وهذه السنة هي التي أوجدت لعزة مجالا للتدلل على كثيّر بعدم رضائها الا ببلوغ الغاية القصوى في وصف وجده بها فلقد دخلت عليه يوما متنكرة فقالت : أنشدني أشد بيت قلته في حبّ عزة . فقال : قلت لها :

وَجِدتُ بها وجد المضل قلوصَه ... بمكة والركبان غادٍ ورائحُ

فقالت : لم تصنع شيئا . قد يجد هذا ناقة يركبها . فأطرق ثم قال :

وَجِدتُ بها ما لم يجد ذو حرارة ... يمارس جمّات الركي النوازح (٥)

ثم قالت له : لم تصنع شيئا : يجد هذا من يسقيه فأطرق ثم قال :

وجدت بها ما لم تجد أم واحد ... بواحدها تطوى عليه الصفائح

فضحكت ثم قالت : ان كان ولا بد فهذا (٦) .

وهذا التقليد الذوقي الذي يطلب المبالغة هو الذي جعل عمر بن أبي ربيعة يغار من الأحوص عندما أنشده قوله في عبلة :

كأني من هواك أخو فراش ... تجلجل نفسه بين التراقي

حلفت لك الفداه فصدقيني ... برب البيت والسبع الطباق

---

(١) انظر الموشح : ٢٣٩ - ٢٤٣ حيث أوردها هذا الخبر بطرق مختلفة وقد ورد في بعضها أن اسمها : قطام .

(٢) الدلاص من الدروع : اللينة الملساء . أذالها : أطال ذيلها . القتير : رؤوس المسامير في الدرع ، ويراد بها الدروع أيضا . يستضلع : يستثقل .

(٣) الموشح : ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٤) النهال : العطاشى كأنها ظامئة الى شرب الدماء .

(٥) الجمة : الماء نفسه (اللسان) . الركية : البئر

(٦) الموشح : ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

لأنت الى الفؤاد أشدُّ حبّـاً … من الصادى الى الكأس الدهاق

فيقول له حنقا : ما تركت لي شيئا ، ولقد أغرقت في شعرك ، قال : كيف أغرقت في شعرى وأنت الذى تقول :

اذا خدرت رجلي أبوحُ بذكرها … ليذهب عن رجلي الخدور فيذهبُ

ولكنّ عمر لا يقتنع بهذا الجواب ، ولا يرى أن في اغراقه اغراقا يكافئ اغراق الأحوص فيقول : الخدور يذهب والعطش لا يذهب (١) .

وأما قول عمر بن الخطاب عن سر إعجابه بشعر زهير بأنه كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشية ولا يمدح الرجل إلا بما في الرجال (٢) .

ففيه تركيز التنظر على المثال في صفات الرجال ليمدح بها الممدوح ، وإذا قيس المثال بمقدار تحققه في الواقع كان المثال مبالغة ، ومن هنا نستطيع أن نقول ان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بقوله هذا يجرى على سنن الذوق الأدبي الذى كان سائدا حينذاك في تحبيذ المبالغة وطلبها .

وهذا التفسير لا يناقض رواية أخرى لهذا القول وردت بقوله رضي الله عنه " ولا يمدح الرجل إلا بما فيه " وذلك لأن المبالغة التي يطلبها عمر على الرواية الأولى لا تناقض الصدق الذى يلح عليه عمر على الرواية الثانية وذلك لأن عمر الخبير بالشعر يعرف مقياس الصدق وحدوده في الشعر .

المبالغة التي كانت مطلوبة ومعروفة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام لم تتخذ اسما يدل عليها إلا على لسان الشاعر عمر بن أبي ربيعة عندما قال للأحوص " ولقد أغرقت في شعرك " (٣) اذ وصف استقصاء الأحوص في شدة تعلقه بحبلة اغراقا ولكن هذه التسمية لم تلق من يأخذ بها لتشيع وصفا للاستقصاء وبلوغ الغاية التي يطلبها متذوقي الشعر والنقاد آنذاك إلا بعد وقت طويل من اطلاقها .

---

(١) الموشح : ٣٦١ ، ٣٦٢

(٢) نقد الشعر : ٩٥ ، الموازنة : ٢٩٣/١

(٣) الموشح : ٣٦١

المبالغة في التآليف النقدية والبلاغية

١) المبالغة في بدايات التأليف النقدى والبلاغي :

لقد كانت اللفظة المفردة أسعد حالا في اتخاذ اسم يدل على المبالغة فيها في وقت مبكر نسبيا عنه في المبالغة في التراكيب على يد الخليل وسيبويه . وذلك لأن المبالغة في التراكيب ظلت غفلا من اسم يدل عليها حتى وجدنا التسمية لها في بدايات التأليف النقدى والبلاغي وأول ما نجد ذلك عند الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥هـ. فدل عليها بالإفراط . ولكن ما هو مفهوم الإفراط عنده ؟؟

لقد قال الجاحظ " وإذ قد ذكرنا شيئا من الشعر في صفة الضرب والطعن فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من الإسراف من أسرف فأما من أفرط فقول مهلهل (١) :

ولولا الريح أسمع من بحجر ... صليل البَيْض تقرع بالذكور (٢)

فالإفراط كما ترى هنا ليس استقصاء للمعنى أو بلوغ غاية فيه فحسب بل يتجاوز ذلك الى الإسراف الأمر الذى سوّغ للجاحظ أن يضع الشعر الذى وسمه بالإفراط مقابل الشعر المقتصد الذى وصف قائليه بالصدق حيث يقول :

" ومن أشعار المقتصدين في الشعر أنشدني قطرب :

تركت الركاب لأربابها ... فأجهدت نفسي على ابن الصعق

جعلت يدىَّ وشاحا له ... وبعض الفوارس لا يعتنق

ومن صدق عن نفسه عمرو بن الاطنابه حيث يقول :

وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تُحمدى أو تستريحي (٣)

ثم دل عليها ابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ بالمبالغة كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، ولكنها التسمية التي تحتجب حينا عند معاصرى ابن قتيبة ومن جاءوا بعده حتى عصر قدامة بن جعفر فقد كان المبرد المتوفي سنة ٢٨٥هـ

---

(١) سبق أن أوردنا البيت ضمن أمثلة ابن قتيبة هكذا : ولولا الريح أسمع أهل حجر ..... تأويل مشكل القرآن (١٧٤) .

(٢) الحيوان : ٦/٤١٨

(٣) الحيوان : ٦/٤٢٥ قال في اللسان : جشأت نفسه : ارتفعت فنهضت اليه ، وجاشت من حزن أو فزع ، وجشأت : ثارت للقيء وقال عقب انشاد هذا البيت : يريد تطلعت ونهضت جزعا وكراهة .

يدل عليها بالتجاوز ، فهو يعلق على قول قيس بن معاذ :

فلو أن ما أبقيت من معلق بعود ثمام ما تأود عودها

بقوله " وهذا متجاوز كقول القائل : ويمنعها من أن تطير زمامها ،

وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ... "(١) .

وبالإفراط وذلك حين يقسم التشبيه الى أربعة أضرب هي التشبيه المفرط ، والتشبيه المصيب والتشبيه البعيد الذى يحتاج الى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام (٢) .

ولكن المبرد ان لم يأخذ اسم المبالغة في الدلالة على التراكيب التي جاءت بها فلقد أخذ بهذا الاسم للدلالة على الزيادة في معنى اللفظة المفردة وذلك عند زيادة الهاء على بعض أوزان مفعال . وذلك حيث يقول في تعليق على قول أم عمران ترثيه :

الله أيد عمرانا وطهره وكان عمران يدعو الله في السحر

يدعوه سرا واعلانا ليرزقه شهادة بيدى ملحادة غدر

" قولها : بيدى ملحادة : مفعال من الالحاد كما تقول رجل معطاء ومحسان ومكرام وأدخلت الهاء للمبالغة كما تدخل في راوية وعلامة ونسابة "(٣) .

وحتى احمد بن يحيى المعروف بثعلب المتوفي سنة ٢٩١هـ والشاعر الأمير عبد الله بن المعتز المتوفي سنة ٢٩٦هـ لم يأخذا بمصطلح المبالغة الذى أخذ به ابن قتيبة في الدلالة على التعظيم ، واستقصاء الصفة ، وبلوغ نهاية المعنى ، اذ دل ثعلب على المبالغة بنهاية الوصف في قوله :

" نهاية وصف الخلق قول زهير في هرم :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ضارب حتى اذا ما ضاربوا اعتنقا

وقوله :

على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

وقوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأحسابهم أو مجدهم قعدوا

وقوله :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى (٤)

---

(١) الكامل : ١/١٧٣ (٢) نفس المصدر : ٢/١٠١

(٣) المصدر السابق : ٢/٢١٦ ، ٢١٧ (٤) قواعد الشعر : ٣٧

وأيضا فانه بالامكان أن نفهم من قول ثعلب :

" والتشبيه الخارج عن التعدي والتقصير كقول امرئ القيس :

كأن دماءَ الهاديات بنحره　　عُصارةُ حنّاءٍ بشيب مرجّل " (١)

ان التعدى يعني المبالغة .

وأما التسمية التي أخذها ممن سبقه ورأيناها عند الجاحظ وعند المبرد فهي الإفراط الذى يرتبط عنده بالإغراق اذ سماها " الإفراط في الإغراق " ، ومعروف أن الإغراق مصطلح من مصطلحات المبالغة الذى عرف عند المتأخرين للدلالة على أقصى درجاتها في التجاوز والبعد كما سنرى ذلك ان شاء الله عند بحث المبالغة عند المتأخرين . ولكن الشواهد التي جاء بها للدلالة على الإفراط في الإغراق لا تنطبق على جميعها دلالة الإغراق عند المتأخرين ، اذ هو عندهم مستعمل للدلالة على ما امتنع عادة لا عقلا . (٢)

وذلك حيث أورد ضمن شواهد الإفراط في الإغراق قول قيس بن الخطيم :

وإني لدى الحرب العَوانِ موكل　　بإقدام نفسٍ ما أريد بقاءها

وقول الحطيئة يمدح ابن شماس :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره　　تجد خيرَ نارٍ عندَها خيرَ موقدِ (٣)

مما يدل على أن ثعلب لم يقصد بالإغراق هذه الدلالة الاصطلاحية له عند المتأخرين وانما قصد به دلالته اللغوية في بلوغ الغاية والاستيعاب ومجاوزة الحد اذ أنه يقال " أغرق النبل وغرّقه بلغ به غاية المد في القوس ، وأغرق النازع في القوس أى استوفى مدها .... وأغرق في الشيء جاوز الحد " (٤)

وهو أيضا القصد الذى قصده عمر بن أبي ربيعة في محاورته للأحوص المتقدمة ومصطلح الإفراط الذى ربطه ثعلب بالإغراق شاركه فيه ابن المعتز اذ دل على المبالغة بالإفراط في الصفة ، حيث عدّها من جملة محاسن الكلام والشعر (٥) .

أما ابن طباطبا محمد بن أحمد العلوى المتوفي سنة ٣٢٢هـ فقد

---

(١) المصدر السابق : ٣١ والهاديات : جمع هادية وهن الأوائل والمتقدمات في السير من سرب الوحش .

(٢) الايضاح : ٢٠٧

(٣) قواعد الشعر : ٤١ ، ٤٢ . عشاه : قصده ليلا ، وعشا الى النار اذا استدل عليها ببصر ضعيف .

(٤) لسان العرب : غرق　　(٥) البديع : ٥٩ ، ٦٥

استخدم هذين الاسمين ، الإغراق والإفراط للدلالة على المبالغة فقال منتقدها القدماء " ..... ومع هذا فإن من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء ، وفي صدر الاسلام من الشعراء ، كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحا وهجاء وافتخارا ووصفا ، وترغيبا وترهيبا الا ما قد احتمل الكذب فيه في حكم الشعر : من الإغراق في الوصف والإفراط في التشبيه وكان يجرى ما يوردونه منه مجرى القصص الحق ، والمخاطبات بالصدق ... " (١) .

وقال واصفا بعض الأبيات التي وصفت بالمبالغة : " فأما الأبيات التي أغرق قائلوها في معانيها فكقول النابغة الجعدى :

بلغنا السماء مجدنا وتكرما ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وكقول الطرماح :

لو كان يخفى على الرحمن خافية ... من خلقه خفيت عنه بنو أسد (٢)

قومٌ أقام بدار الذُّل أولهم ... كما أقامت عليه جذمة الوتد ... "

وهو يقصد بالإغراق ما قصده به ثعلب حيث جعله مرادفا للإفراط ومعادلا له .

وقد استخدم ابن طباطبا التشبيه البعيد والمجاز المباعد للحقيقة للدلالة على الإفراط وتجاوز الحد في المعنى (٣) .

٢ - عند قدامة بن جعفر :

ولكن التسمية بالمبالغة التي كانت تبرز في استحياء عند القدماء استطاعت أن تكشف القناع عن وجهها وتحجب غيرها من المصطلحات النافعة عند القدماء كالإفراط .... والتجاوز ... والتشبيه المفرط .... منذ أن تعرض لها وأطال القول فيها قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر ، وشدة الظهور هذه بعد الاستحياء الطويل هي التي جعلت ابن أبي الاصبع المصرى المتوفي سنة ٦٥٤ يتوهم أن تسمية المبالغة هي تسمية قدامة حيث يقول في كتابه : (بديع القرآن) عن الإفراط في الصفة " وهذه تسمية ابن المعتز وسماه قدامة : المبالغة ، وسماه من بعدهما : التبليغ ، والناس على تسمية قدامة " (٤) .

---

(١) عيار الشعر : ٩   (٢) المصدر السابق : ٤٦

(٣) انظر المصدر السابق : ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٨ ، ١٢٠ .

(٤) بديع القرآن : ٥٥

وقد ذكر ذلك أيضا في كتابه (تحرير التحبير) حيث يقول عن الإفراط في الصفة :

" وهو الذى سماه قدامة المبالغة وسماه من بعده التبليغ وأكثر الناس على تسمية قدامة لأنها أخف وأعرف " (١) .

وقد نقل هذا عنه أيضا ابن حجة الحموى المتوفي سنة ٨٣٧ هـ حيث يقول : " وتسمية المبالغة منسوبة الى قدامة ومنهم من سمى هذا النوع التبليغ ، وسماه ابن المعتز الإفراط في الصفة وهذه التسمية طابقت المسمى ولكن أكثر الناس رغبوا في تسمية قدامة لخفتها " (٢) .

ولعله من خلال تتبعنا لهذه التسمية يتضح لنا وهم نسبتها الى قدامة حيث رأيناها على لسان الخليل وسيبويه في الدلالة على زيادة المعنى في الكلمة المفردة وعلى لسان المبرد في سبب زيادة الهاء في بعض أوزان مفعال وعلى لسان ابن قتيبة في ثلاثة مواضع من كتابه تأويل مشكل القرآن في الدلالة على التعظيم واستقصاء الصفة وبلوغ الغاية في المعنى .

وقول ابن أبي الاصبع " والناس على تسمية قدامة " يبين لنا مدى مزاحمة هذه التسمية لما عداها من التسميات الأخرى .

وان قوله " وسماه من بعده التبليغ " فليس الا تسجيل لهذه التسمية التي أخذ بها بعض المتأخرين للدلالة على درجة من درجات المبالغة فقط والا فان المبالغة هي التسمية التي سادت واتخذت من الغلو والتبليغ والإغراق درجات لها كما سنرى ذلك قريبا ان شاء الله .

وأما مفهوم المبالغة عند قدامة بن جعفر فلربما أمكن فهمه بعد طول تأمل في أقواله . وذلك لأن المصطلحات ربما لم تكن واضحة عنده وضوحها عند المتأخرين أو ربما لم يرد بالمبالغة ما أراده بها المتأخرون من جعلها اسما عاما يندرج تحته الغلو والتبليغ والاغراق فهو يقول : " ومن أنكر على مهلهل والنمر وأبي نواس قولهم المتقدم ذكره ــ يعني قول مهلهل :

فلولا الريحُ أُسمع من بحجر ... صليلَ البَيْضِ تقرعُ بالذكور

وقول النمر بن تولب :

أبقى الحوادثُ والأيامَ من نمر ... أشباه سيف قديم إثره بادى

تظل تحفر عنه إن ضربت به ... بَعْدَ الذراعين والساقين والهادى

---

(١) تحرير التحبير : ١٤٧ (٢) خزانة الأدب : ٣٣٥

وقول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

فهو مخطئ لأنهم وغيرهم ممن ذهب الى الغلو انما أرادوا به المبالغة "[١] . فالمبالغة كما يفهم من هذا القول ليست تسمية للغلو الذى ورد في هذه الأبيات .

ثم فسر بعد ذلك الغلو الذى جعل هدفه المبالغة بأنه ما يخرج عن الموجود ويدخل في المعدوم وعلل وجوده بإرادة المثل وبلوغ النهاية في النعت حيث يقول " والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم فانما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النعت "[٢] .

ثم يوضح رأيه في الغلو بعد ذلك مباشرة فيقول :

وهذا أحسن من المذهب الآخر فان قول النابغة في معنى قول النمر ابن تولب على مذهب الاقتصار والزوم الحد الأوسط :

وقد أبقت صروف الدهر مني كما أبقت من السيف اليماني

دون قول النمر وأتى دليلا قويا على أن ما بقى منه أكثر مما بقي من النابغة[٣] .

واسم الاشارة في قوله هذا يعود الى الغلو الذى صرح بذكره بأنه أجود من الاقتصار على الأمر الأوسط في قوله : " والغلو عندى أجود المذهبين " .

ومما يدل على أن المبالغة تختلط بالغلو عند قدامة بن جعفر قوله في تعليقه على موقف عبد الملك مع كثيّر الذى أوردناه سابقا " والذى عندى في ذلك أن عبد الملك أصح نظرا من كثيّر . الا أن يكون كثيّر غلط واعتذر بما يعتقد خلافه ، لأنه قد تقدم من قولنا في أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية ، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة . . . . "[٤] . والذى تقدم من قوله هو أن الغلو أحسن من الاقتصار على الأمر الأوسط كما يتضح من خلال ما أورد من أقواله .

فهو يسمى في تعليقه هذا الغلو بالمبالغة لأن الذى تقدم في أقواله هو الغلو . ومن كل هذا يتضح أن القول بأن الغلو عند قدامة غير المبالغة فيه كثير من التسرع وممن قال بذلك الدكتور بدوى طبانة حيث يقول :

---

(١) نقد الشعر : ٩٤ (٢) المصدر السابق : ٩٤

(٣) المصدر السابق : ٩٤ (٤) المصدر السابق : ١٠٠ وقد أوردنا هذه القصة عند حديثنا عن المبالغة في نقد الجاهلية وصدر الاسلام .

" والغلو عند قدامة وبعض البلاغيين والنقاد غير المبالغة " (١) .

والذي قاد إلى ذلك هو إيراد قدامة فصلا خاصا عن المبالغة حدّها فيه بحد، يوهم أنه يريد بها شيئا آخر غير الغلو الذي قدم به الحديث بين يدي حديثه عن المعاني التي يدل عليها الشعر اذ حدّها بقوله " وهي أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأ ذلك في الغرض الذي قصده ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ في ما قصد " (٢) .

ولكن تطبيق هذا الحد على المبالغة يخرج منها ما يدل على المبالغة ابتداء اذ أن قدامة في حده هذا يبين أنها تأتي تتمة أو تكملة بعد ذكر الشاعر الحال المجزية في المعنى . ولهذا لا يدخل ما حمل المبالغة في هذا الحد ، وهذا يتضح من خلال الأمثلة التي مثل بها لمفهوم هذا الحد حيث يقول :

وذلك مثل قول عمير بن الأيهم التغلبي :

وُنكرمُ جارَنا ما دام فينا ... ونتبعُه الكرامةَ حيثُ سارا (٣)

فإكرامهم للجار ما كان فيهم من الأخلاق الجميلة الموصوفة واتباعهم الكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل .

ومثل ذلك قول الحكم الخضري :

وأقبحَ من قردٍ وأبخلُ بالقرى ... من الكلبِ أمسى وهو غرثانُ أعجفُ (٤)

فقد كان يجزى في الدم أن يكون هذا المهجو أبخل من الكلب ، ومن المبالغة في هجائه قوله " وهو غرثان أعجف " .

ومن هذا الجنس لدريد بن الصمة :

متى ما تدعُ قومَك ادعُ قومي ... فيأتي من بني جشم فئام

فوارسُ بُهمه حُشدٌ اذا ما ... بدا حضر الحيية والخَدَام (٥)

والمبالغة في هذا الشعر هي في قوله " الحيية " .

---

(١) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي : ٢٧٣ (٢) نقد الشعر : ١٤٦

(٣) في الصناعتين : ٣٧٩ (مالا)

(٤) الغرثان : الجائع ، الأعجف : النحيف الذي ذهب سمنه

(٥) في الصناعتين : ٣٧٨ (وحولي من بني جشم) الفئام : الجماعة من الناس . البهمه : الشجاع . الخَدامَ : قال في اللسان : الخَدَمة — السير الغليظ المحكم مثل الحلقة يشد في رسغ البعير ... والخَدَمة : الخلخال وهو من ذلك لأنه ربما كان من سيور يركب فيها الذهب والفضة والجمع خَدَام .

وسار على هذا النهج في بقية الأمثلة التي أوردها (١) .

ومن هنا يستطيع الباحث أن يقول : أن هذا الحد الذى حد به قدامة المبالغة لا يضم جميع ما سماه بالمبالغة . فكيف نجعله حاصرا للمبالغة ثم نحكم على ضوء هذا الحد بأن الغلو غير المبالغة عنده ؟ .

والذى يمكن أن نقوله . وتشهد به أقوال قدامة : إن الغلو عنده جاء حينا غير المبالغة .. إذ كانت المبالغة هدفا من أهدافه ، وجاء حينا آخر مرادفا لها إذ استطاع قدامة أن يبعد لها منه .

٣ — عند الآمدى :

أما الآمدى المتوفي سنة ٣٧٠ هـ فلا نجد في كتابه " الموازنة بين شعر أبي تمام والبحترى " تفريقا بين مصطلحات المبالغة فهو كثيرا ما يسميها بالمبالغة ومن ذلك قوله :

" وقد بالغ النابغة في وصف عنق المرأة بالطول فقال :

إذا ارتعشت خاف الجبانُ ارتعاشَها ومن يتعلّق حيث علّق يَفْرَقِ (٢)

فجعل القرط يخاف أن يسقط من هناك ، فيهلك . وانما أخرج هذا كالمثل : أى لو كان مما يقع منه الخوف لخاف ، وقال ذو الرمة :

والقرط في حرّة الذفرى معلّقة تباعد الحبلُ منه فهو يضطربُ (٣)

فدل بقوله " تباعد الحبل منه " على طول عنق المرأة .

فهذه المبالغة لائقة مستحسنة لأنه دل على الوصف بالشيء الذى يخص الموصوف ، لا بالشيء الذى يخص غيره " (٤) .

وقوله : " وقد بالغ أبو العتاهية في وصف الحضور بالدقة فقال :

ومخضَّرات زرننا بعد الهدوِ من الخُدور

نُفُجٌ روادفهن يلبسن الخواتمَ في الخُضور (٥)

لم يرد أن ... إتمهن في حضورهن لأن هذا محال وانما ذهب الى مثل قولهم : جفنة يقعد فيها خمسة ، أى لو قعدوا فيها لوسعتهم .

---

(١) نقد الشعر : ١٤٦ ، ١٤٧ (٢) الرعاث : القرط

(٣) الذفريان : ما عن يمين العنق ويساره . وحرة الذفرى : موضع مجال القرط . وقيل : حرة الذفرى صفة أى أنها حسنة الذفرى اسيلتها .

(٤) الموازنة : ١/١٥٥ ، ١٥٦ .

(٥) في اللسان امرأة نفج الحقيبة : اذا كانت ضخمة الأرداف .

وقال الآخر :

لها حافرٌ مثل قُعْبِ الوليــــد يتخذ الفأرُ فيه مفـــارا (١)

أي لو اتخذ مغارا لوسعه . فكذلك قوله " يلبسن الخواتم في الحضور" أي تصلح حضورهن أن تدخل في خواتمهن لدقتها على المبالغة " (٢) .

ويسميها في بعض الأحيان بالإسراف والإفراط حيث قال في تعليقه على قول أبي تمام :

أَرَامَـةُ كُنـتِ مأْلـفَ كلِّ ريـم لو استمتعت بالأُنْـس القَدِيـــم

أدار البؤسِ حسَّنكِ التَّصابـي اليَّ فَصِـرتِ جنَّـاتِ النعيــم

لئن أصبحتِ ميدان السَّوافـي لقد أصبحتُ ميدانَ الهمـــوم

ومــا ضَرَّم البُرحَـاءُ أنِّــى شكوتُ فما شكوتُ إلى رحيـــم

أظن الدمع في خدِّي سيبقـى رسوما من بكائي في الرســوم (٣)

" وهذا من أسهل كلامه ، وأسلس نظمه ، ومن أبعد قول من التكلف والتعسف ، وأشبهه بكلام المطبوعين وأهل البلاغة . وقوله " فصرت جنات النعيم " معنى حسن ، ولكن فيه إسراف أن يجعل دارا خلت من أهلها دار بؤس وهو باكٍ فيها ــ جنات النعيم .

وقد أتى البحترى بهذا المعنى متبعا فيه أبا تمام ولكن جاء به على سبيل اقتصاد واعتدال ، وتجنب الإفراط فقال :

" يا مَغَانِي الأحبابِ صِرتِ رسومًا وغدا الدهرُ فيكِ عندى ملومـــا

ألفُ البؤسِ عَرْصَتَيْك وقـد كنــتِ بعينـيَّ جنَّـة ونعيمـــا " (٤)

وقال أيضا واسما المبالغة بالإفراط :

" وقال البحترى أيضا في المتوكل ما لا يقال الا لخليفة الا أن يفرّط مفــرّط فيقوله لغيره :

حلفتُ بمن أدعوه ربًّا ومن لـــه صلاتـي ، ونسكي خالصا ، وصيامي

لقد حُـطتَ دينَ الله خيرحياطةٍ وقمـتَ بأمر الله خيرَ قيـــام " (٥)

---

(١) القعب : قدح من خشب مقعر . والمغار : الحجر الذى يغور فيه ، أى يدخل .
(٢) الموازنة : ١/١٥٦ ، ١٥٧ .
(٣) السوافي : جمع سافية وهي الريح التي تسفي التراب . البرحاء : الشدة والمشقة وخص بعضهم به شدة الحمى . . ويقال للمحموم الشديد الحمى اصابته البرحاء .
(٤) الموازنة : ١/٤٧٨ ، ٤٧٩ قال في اللسان : عرصة الدار وسطها وقيل هو ما لا بناء فيه سميت بذلك لاعتراص الصبيان فيها .
(٥) الموازنة : ٢/٣٥٥ ، ٣٥٦

ويظهر أن الإفراط عند الآمدى درجةً أعلى من درجات المبالغة حيث يلتمس ذلك من ربطة الإفراط بالإسراف وذلك حين وصف قول أبي تمام " وصرت جنات النعيم " بالإسراف ثم أثنى على البحترى الذى اتبعه في هذا المعنى ولكنه تجنب الافراط وجاء به على سبيل اقتصاد واعتدال (١) .

ويلتمس أيضا من تضعيف الإفراط واسناده الى اسم الفاعل المضعف حيث يقول " وقال البحترى أيضا في المتوكل مما لا يقال الا لخليفة الا أن يفرّط مفرّط فيقوله لغيره " (٢) .

ومن الأسماء التي أطلقها الآمدى على المبالغة تسمية الإغراق وذلك حيث يقول تعليقا على قول البحترى :

قد بيّن البين المُفرّقُ بيننا ... عِشْقَ النّوى لربيبِ ذاكَ الربربِ (٣)

" والنوى هي النية في انتقال القوم من موضع الى آخر ، فعشق النية لربيب الربرب استعارة ليست بحسنة ، غير أن الشعراء المتأخرين قد اصطلحوا على أن جعلوا البين ، والفراق ، والنوى كالأشخاص وجعلوها الحائلة بينهم وبين من يهوونه ، فهم يستعيرون الأفعال لها ، فربما حسنت الاستعارة لها وربما قبحت على حسب مواضعها في الإغراق والاقتصاد " (٤) . وقد عبّر الآمدى بعض الأحيان عن المبالغة بما يدل على بلوغ الغاية في المعنى الذي قصد اليه الشاعر وذلك حيث يقول :

ومما أحسن فيه البحترى وأغرب من قوله في شدة الحب وتمكنه :

غيرُ حبٍّ لسلمى لم يزد ... فيه إسعاف ، ولم ينقصه ضَنّ

ثبتت تحت الحشا آخيةً ... منه لا ينزعُها المُهْرُ الأرِن (٥)

وقد بالغ أيضا الذى يقول :

أُحبُّكِ ما لو كانَ بين قبائلٍ ... من النّاسِ أعداءٍ ، لجرّ التّصافيا

وأبلغ من هذا كله وأجود قول الأعشى :

كفى بالذى تُولينه لو تَجَنّبَا ... شِفاءً لِسُقْمٍ بعد ما كان أشيبا

ولكنّما كانت توابعُ حُبِّها ... توالى رِبْعيَّ السّقاب فأصحبا

فتمّ على معشوقةٍ لا يَزيدُها ... اليه بلاءُ السّوءِ الا تَحَبُّبَا

---

(١) المصدر السابق : ١/ ٤٧٨ ، ٤٧٩ (٢) المصدر السابق : ٢/ ٣٥٦

(٣) قال في اللسان : الربرب القطيع من بقر الوحش وقيل من الظباء ولا واحد له والربيب : المعاهد .

(٤) الموازنة : ٢/ ٣٥ (٥) الأرن : من أرن أى نشط

وكان حماد الراوية يتعجب من قوله " فتم على معشوقة " ويقول . هذا ــ والله ــ غاية العشق ونهاية الإحسان في النسيب .

ويضيف الآمدى :

وقال " أبو حيّة النميرى " في هذا المعنى وجاء به أكشف وأبين وأحسن مما جاء به الأعشى ، فقال :

لا مُنكِرٌ لقبيحٍ منكِ أعرفُهُ إني أراه ــ إذا أرضاكِ ــ إحسانا
أُحدِّث النفسَ مسرورا بذكركُم حتى كأنَّ الذى قد كانَ ما كانا

ومن هذا أخذ أبو الشيص ــ والله أعلم ــ قوله :

فأهنتني فأهنت نفسي عامدا ما من يهون عليك ممن أكرم

ولكنه تناهى في التذلل فأحسن المعنى كل الاحسان (١) .

وأما مصطلح الغلو الذى سمى به قدامة بن جعفر المبالغة في كتابه " نقد الشعر " وتحدث عنه كثيرا فلم يرد عند الآمدى الذى اطلع على نقد الشعر ونقد بعض أجزائه كما يذكر في موازنته (٢) إلا في موضع واحد من الموازنة وهو قوله :

(والتفضيل الحسن الذى لا غلو فيه وكأن قائله قد غلا ــ قول البحترى ــ أيضا في أبي ليلى الحارث بن عبد العزيز بن دلف :

يبينُ بالفضل أقوامٌ فيفضُلُهم مُوَحَّدٌ بغريبِ الذكر منفردُ
تَوَحّدَ القمرُ السارى بشهرتِه وأنجُمَ الليلِ نثْرٌ حولَهُ بَدَدُ (٣)

وان كان الآمدى لم يستخدم الغلو إلا في موضع واحد من موازنته ولم يفرق بينه وبين المبالغة فانه يظهر من خلال أحاديثه ونقداته أن للمبالغة حدا تقبل فيه وأن هناك حدا لا تقبل فيه ، فهي تقبل ما لم تبلغ درجة المحال . لذلك فقد عدّ استعارة العرض للدهر أمرا محالا يفوق درجة المبالغة المقبولة اذ يقول في تعليقه على قول أبي تمام :

بيومٍ كطولِ الدهر في عَرْضِ مثلِهِ ووَجْدِي من هذا وهذاك أطولُ

" فجعل للدهر وهو الزمان عرضا ، وذلك محض المحال ، وعلى أنه ما كانت به إليه حاجة ، لأنه قد استوفى المعنى بقوله "كطول الدهر " فأتى على الغرض في المبالغة (٤) .

---

(١) الموازنة : ٢/١٢٤ ، ١٢٥
(٢) المصدر السابق : ٢/٣١٨ ، ٣٦٩
(٣) المصدر السابق : ٢/٣٥١
(٤) المصدر السابق : ١/١٩٧

وقد قبل الآمدي بعض ما وصل إلى هذه الدرجة بشروط : كأن يكون مخرجه مخرج التوسع والمبالغة . اذ قال في تعليقه على قول أبي تمام :

من الهيفِ لو أن الخلاخيلُ صُيِّرت لها وُشُحًا جالت عليها الخلاخل

" والإحالة فيما مخرجه مخرج الحقيقة أقبح من الإحالة فيما مخرجه مخرج التوسع والمبالغة " (١) . أو أن يكون مخرجها مخرج النوادر فيستحسن ولا يستقبح . نحو قول الشاعر :

من رأى مثل حِبَّتي تُشبِهُ البدرُ إذ بدا
تدخلُ اليومَ ثم تد خلُ أردافُها غَدَا

ومثل هذا كثير (٢) .

أو أن يكون إخراجها كالمَثَل وذلك كما وجه قول النابغة :

إذا ارتعشت خاف الجبانُ ارتعاشُها ومن يتعلق حيث علّق يَفْرَقِ

لقوله " وانما أخرج هذا كالمثل أي لو كان مما يقع منه الخوف لخاف " (٣) .

٤ — عند الرّماني :

هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله المعروف بالرماني المتوفي سنة ٣٨٦هـ ، من كبار النحاة يقول عنه أبو حيان التوحيدي (انه عالي الرتبة في النحو واللغة ، والكلام ، والمنطق) (٤) .

ولقد عرض لإعجاز القرآن الكريم ، وألف فيه رسالة النُّكت في إعجاز القرآن، وبين فيها أنه في أعلى طبقة من طبقات البلاغة ، وقسم البلاغة الى عشرة أقسام فقال : (والبلاغة على عشرة أقسام (الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة والتلازم والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان) (٥) . ثم أخذ يفسر هذه الأبواب ويتحدث عنها في القرآن الكريم . ومنها المبالغة التي عرفها بقوله :

(المبالغة هي الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الابانة) (٦) وحاول أن يعدد أنواعها التي استخرجها من القرآن فذكر أنها تأتي على وجوه عدة :

---

(١) المصدر السابق : ١/ ١٤٤ (٢) المصدر السابق : ١/ ١٥٥
(٣) المصدر السابق : ١/ ١٥٦ (٤) الامتاع والمؤانسة : ١/ ١٣٣
(٥) النكت في اعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٧٦
(٦) المصدر السابق : ١٠٤

١ — الضرب الأول : المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى المبالغة ، وذلك على أبنية كثيرة منها فعلان ، ومنها فعّال وفعول ومِفْعَل ، ومِفْعَال ، ففعلان كرحمان عدل عن راحم للمبالغة . .

٢ — الضرب الثاني : المبالغة في الصيغة العامة في موضع الخاصة : كقوله تعالى " خالق كل شيء " (١) .

٣ — الضرب الثالث : إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم للمبالغة كقول القائل (جاء الملك) اذا جاء جيش عظيم له . ومنه قوله عزّ وجل " وجاء ربك والملك صفا صفا " (٢) . فجعل مجيء دلائل الآيات مجيئا له على المبالغة في الكلام . ومنه : " فاتي الله بنيانهم من القواعد " (٣) أى أتاهم بعظيم بأسه ، فجعل ذلك إتيانا له على المبالغة . ومنه قوله تعالى (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا " (٤) .

٤ — الضرب الرابع : اخراج الممكن الى الممتنع للمبالغة نحو قوله تعالى " ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط " .

٥ — الضرب الخامس : إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج فمن ذلك " وإنا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين " (٥) ومنه " قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين " (٦)

٦ — الضرب السادس : حذف الأجوبة للمبالغة كقوله تعالى " ولو ترى إذ وقفوا على النار " (٧) و " لو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب " (٨) ومنه : " ص ، والقرآن ذى الذكر " (٩) كأنه قيل لجاء الحق أو لعظم الأمر أو لجاء بالصدق ، كل ذلك يذهب اليه الوهم لما فيه من التفخيم ، والحذف أبلغ من الذكر ، لأن الذكر يقتصر على وجه والحذف يذهب فيه الوهم الى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم (١٠) .

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٢ (٢) سورة الفجر : ٢٢
(٣) سورة النحل : ٢٦ (٤) سورة الأعراف : ١٤٣
(٥) سورة سبأ : ٢٤ (٦) سورة الزخرف : ٨١
(٧) سورة الأنعام : ٢٧ (٨) سورة البقرة : ١٦٥
(٩) سورة ص : ١
(١٠) النكت في اعجاز القرآن الكريم : ١٠٤ — ١٠٦

وتعريف الرماني للمبالغة بأنها " الدلالة على كبر المعنى " أمر قد أشار اليه سيبويه عن الخليل حيث يقول سيبويه " قالوا خشن وقالوا اخشوشن وسألت الخليل فقال : كأنهم أرادوا المبالغة والتوكيد ، كما أنه اذا قال اعشوشبت الأرض فانما يريد أن يجعل ذلك كثيرا عاما قد بالغ "(١) . ولكن ما ذكره من أنها لا تأتي إلا على جهة التغيير عن أصل اللغة أمر لا يسلم له ، اذ لا دليل له في كل تغيير ، افترضه ، ففرض صحة العدل في الأبنية في الضرب الأول لا يلزم به دليل مقنع ، ويبقى الخلاف حوله كما بقي حول مشكلة مسألة أخرى تتعلق به ، وهي مسألة أيهما الأصل : المصدر أم الفعل ؟(٢) كذلك أشار سيبويه الى أنه في بعض الأحيان تتعذر معرفة المعدول من غير المعدول حيث يقول : (وإذا كان الاسم على بناء فَعَال ، نحو حذام ورقاش ولا تدرى ما أصله ، أمعدول أم غير معدول أم مؤنث أم مذكر ، فالقياس فيه أن تصرفه لأن أكثر هذا البناء مصروف غير معدول مثل : الذهاب ، والصلاح ، والفساد والربـاب)(٣) .

وأما الضرب الثاني الذى عبر عنه بالمبالغة بالصيغة العامة في موضع الخاصة . فقد مثل له بقوله تعالى (خالق كل شيء)(٤) ولكن الرماني الذى يفهم من قوله هذا أن هناك أشياء لا تدخل تحت هذا الإخبار لم واحدا منهـا .

وأما الضرب الثالث فقد مثل له بقوله تعالى (وجاء ربك والملك صفا صفا)(٥) وبقوله سبحانه (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا)(٦) وليس له دليل في أى منهما على أن أصل الكلام غير ما ورد في النص القرآني الكريم . فما الذى يمنع مجيء الله عز وجل يوم القيامة ، مجيئا يليق بجلاله ؟؟ وما الذى يمنع تجليه للجبل تجليا يليق بجلاله .

---

(١) الكتاب : ٤/٧٥

(٢) انظر شرح ابن عقيل ١/٥٥٩ حيث فصّل الخلاف حول هذه المسألة وخلاصة ما ذكر : ان البصريين يذهبون الى أن المصدر أصل والفعل والوصف مشتقان منه ، وأن الكوفيين يذهبون الى أن الفعل أصل والمصدر مشتق منه ، وذهب قوم الى أن المصدر أصل والفعل مشتق منه ، والوصف مشتق من الفعل ، وذهب ابن طلحة الى أن كلا من المصدر والفعل أصل برأسه وليس أحدهما مشتقا من الآخر .

(٣) الكتاب : ٣/٢٨٠

(٤) سورة الأنعام : ١٠٢

(٥) سورة الفجر : ٢٢

(٦) سورة الأعراف : ١٤٣

وأما تمثيله بقوله تعالى (فأتى اللهُ بنيانَهم من القواعد)(١) فهذا أسلوب متكرر في القرآن الكريم يأتي في مجال العذاب والعقاب قال عز وجلّ (قد مكر الذين من قبلهم ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخرَّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون)(٢) وقال عزّ وجلّ (فأتاهم اللهُ من حيثُ لم يحتسبوا ....)(٣) والعرب تقول " أتى عليهم الدهرُ أى أهلكه " وقيل : (أتى على فلان إتوٌ أى موت وبلاء أصابه)(٤) . وعلى ذلك فسر ابن كثيّر هذه الآية فقال (أى اجتثه من أصله ، وأبطل عمله)(٥)

وأما الضرب الرابع فالتسليم له بما جاء فيه من أنه إخراج الممكن الى الممتنع يلزم بالتسلم بإمكانية دخول هؤلاء المخبر عنهم الجنة ! ومن يستطيع أن يسلم بذلك والله عز وجل يقول (ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط ، وكذلك نجزى المجرمين . لهم من جهنم مِهادٌ ، ومن فوقهم غواشٍ ، وكذلك نجزى الظالمين)(٦) .

والضرب الخامس هو طريقة الكلام في مثل تلك المواقف والأغراض .

وأما أمثلة الضرب السادس التي قال فيها بحذف الأجوبة ، فليس فيها تغيير عن الأصل ، لأن حذف الجواب غرض من أغراض التعبير ، وليس هناك جواب متعين حتى نفترض أنه الأصل لأن الذكر كما قال (يقتصر على وجه والحذف يذهب فيه الوهم الى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم)(٧) .

وقد تحدث عن هذا الباب عند الرماني ، الدكتور عبد القادر حسين فقال : " ان الرماني قد جمع ألوان المبالغة التي كانت معروفة في عصره ، وقبل عصره ، ووضعها في باب واحد ، مبينا أشكالها وشواهدها ، مضيفا عليها من حسه المرهف ، وذوقه الفني ، دون أن يعرض لدرجاتها التي عرفت عند المتأخرين من تبليغ وغلو وإغراق ، فقد ترك هذه المهمة لمن يأتون بعده كأبي هلال وابن رشيق "(٨)

---

(١) سورة النحل : ٢٦ (٢) سورة النحل ٢٦
(٣) سورة الحشر : ٢ (٤) لسان العرب : أتى
(٥) تفسير ابن كثير : ٢/١٦٥ (٦) سورة الأعراف : ٤٠ ، ٤١
(٧) النكت : ١٠٦
(٨) أثر النحاة في البحث البلاغي : ٢٧٠

ولكن المدقق في هذا الباب يجد أن أضربه لم تستوعب المبالغة في الاستعارة التي ذكرها الرماني في باب الاستعارة اذ قال في قوله تعالى " سنفرغ لكم أيها الثقلان "(١) . " والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ولكن هذا أبلغ في الوعيد وحقيقته سنعمد الا أنه لما كان الذى يعمد الى شيء يقصر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب مما يجرى به التعارف ، دلنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكمة "(٢) .

وفي قوله تعالى " فأنشرنا به بلدة ميتا "(٣) أيضا قال " النشر هاهنا مستعار وحقيقة : أظهرنا به النبات والأشجار والثمار فكانت كمن أحييناه بعد إماتته ، فكأنه قيل : أحيينا به بلدة ميتا من قولك : أنشر الله الموتى فنشروا ، وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ما ليس في أظهرنا ، والاظهار في الاحياء والانبات الا أنه في الاحياء أبلغ "(٤) .

كذلك فان كثيرا من الشواهد التي ذكرت قبله أمثلة على الإفراط والمبالغة لا نجد لها استيعابا في هذه الأضرب الستة التي ذكرها في هذا الباب ، فأى ضرب من هذه الأضرب يدخل تحته بعض الأبيات التي ذكرها قدامة بن جعفر من مثل قول عمير بن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيثُ سارا

أو قول الحكيم الخضرى :

وأقبح من قرد وأبخل بالقرى من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف

أو قول النمر بن تولب في السيف :

تَظَلُّ تَحفِرُ عنه إن ضربتَ به بَعدَ الذراعين والساقين والهادى

وفي الحقيقة ان الرماني " لم يدرس المبالغة بمعناها العام ، وإنما درسها في صورها القرآنية "(٥) وحاول أن يستوعبها في الأضرب الستة التي ذكرها . ولكنه ندت عنه في ذلك عدة أضرب كالمبالغة في الاستعارة : والمبالغة بذكر الظمآن في قوله تعالى " والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقيعة يَحْسَبُه الظمآنُ ماءً حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد اللهَ عندَهُ فوفاهُ حسابَه واللهُ

---

(١) سورة الرحمن : ٣١ (٢) النكت : ٨٨
(٣) سورة الزخرف : ١١ (٤) النكت : ٨٩
(٥) البلاغة تطور وتاريخ : ١٠٧

سريع الحساب (١) اذ قال مشيرا اليها " ولو قيل يحسبه الرائي مـاء ثـم يظهر انه على خلاف ما قدّر لكان بليغا ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأن الظمآن أشد حرصا عليه وتعلق قلبه به " (٢) .

ولم يذكر الرماني من أسماء المبالغة الا المبالغة . ولم يتعرض كما قال الدكتور عبد القادر حسين لدرجاتها من غلو وتبليغ واغراق .

ويبقى بعد ذلك مسألة ما إذا كان الضرب الرابع من الأضرب الـتي ذكرها الرماني هو الذى ذكره قدامة في تعليقه على أبيات المهلهل والنمـر وأبي نواس من أنها خارجة عن الموجود وداخلة في باب المعدوم (٣) كما ظـن ذلك الدكتور عبد القادر حسين عندما قال " وهذا الضرب الرابع من ضـروب المبالغة التي ذكرها الرماني متبعا فيها قدامة هو وحده الذى أثار الجـدل قديما وحديثا " (٤) أم لا ؟

والحقيقة أن هناك فرقا بين هذا الضرب وبين ما ذكره قدامة اذ أن الأمثلة التي ذكرها قدامة إذا نظر اليها بمقياس الواقع الخارجي الذى نظر به اليها قدامة نجد أنها خارجة عن الواقع وداخلة في باب المعدوم كما في قـول المهلهـل :

فلـولا الريح أُسمـع من بحجر صليل البيض تقرعُ بالذكـور

وقول النَّمر بن تولب :

أبقى الحوادثُ والأيام من نمر أشباه سيف قديم إثره بـادى

تظل تحفر عنه إن ضربت بـه بَعدَ الذراعين والساقين والهادى

وقول أبي نُواس :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النّطف التي لم تخلـقِ (٥)

بينما كان مثال الضرب الرابع الذى ذكره الرماني لا يحمل هـذا الخروج عن الواقع والدخول في باب المعدوم ، وإنما جاء لبيان استحالـة دخول هؤلاء الذين نزعم النص القرآني الجنة بتعليق دخولهم إياها علـى مستحيل يعرفون استحالته .

ومما سنقف عنده في هذا الفصل دلالة " أبلغ " عند الرماني الـتي أوردها في حديثه عن استعارات القرآن الكريم التي كان يجيء حديثه عنهـا

---

(١) سورة النـور : ٣٩
(٢) النكـت : ٨١
(٣) نقد الشعر : ٩٤
(٤) أثر النحاة في البحث البلاغي ٢٦٩
(٥) نقد الشعر : ٩١ ، ٩٢

في الغالب بالطريقة الآتية اللفظ أو الكلمة هاهنا استعارة .... وحقيقته .. .. وهذه الاستعارة أبلغ .... فهل كانت أبلغ هذه تعني أن الاستعارة أكثر مبالغة أو أنها اكثر حسنا وأشد تأثيرا وتوكيدا في ابراز المعنى المراد ؟؟

والراجح في نظرى أنه لا يعني بها المبالغة وانما يعني بها بلوغ الكلام عن طريق الاستعارة درجة من التأثير والقوة لا تبلغها حقيقة تلك الاستعارة . والدليل على ذلك أنه نص على المبالغة في بعض المواضع من تلك الاستعارات التي تعن له المبالغة فيها ولم يستغن بلفظ أبلغ في التعبير عنها دليلا على إرادته بأبلغ شيئا آخر غير المبالغة وأن المبالغة كانت في تلك المواضع عاملا من عوامل أبلغية الاستعارة التي تفضل بها عن الحقيقة .

وسنكتفي هنا ببعض الأمثلة من حديثه عن الاستعارات القرآنية ليتضح فيها ما سبق ذكره .

قال في قوله تعالى " بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق "(١) .

فالقذف والدفع هنا مستعار وهو أبلغ وحقيقته : بل نورد الحق على الباطل فيذهبه وانما كانت الاستعارة أبلغ لأن في القذف دليلا على القهر لأنك اذا قلت قذف به إليه فإنما معناه ألقاه اليه على جهة الإكراه والقهر فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب ويدمغه أبلغ من يذهبه لما في يدمغه من التأثير فيه فهو أظهر في النكاية وأعلى في تأثير القوة "(٢) .

وقال في قوله تعالى " ولما سقط في أيديهم "(٣) . هذا مستعار وحقيقته : ندموا لما رأوا من أسباب الندم ، الا أن الاستعارة أبلغ للاحالة فيه على الإحساس لما يوجب الندم بما سقط في اليد ، فكانت أكشف في سوء الأخبار لما يوجب من الوبال "(٤) .

ونلاحظ أنه في هذه الأمثلة لم يذكر المبالغة مع أبلغ ولكن عندما عنت له في المثالين التاليين ذكرها ولم يكتف بأبلغ عن ذكرها .

وأول هذين المثالين قوله في قوله تعالى " سنفرغ لكم أيها الثقلان "(٥)

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٨
(٢) النكت : ٨٨ ، ٨٩
(٣) سورة الأعراف : ١٤٩
(٤) النكت : ٩٤
(٥) سورة الرحمن : ٣١

" والله عزّ زجل لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن هذا أبلغ في الوعيد وحقيقته سنعمد الا أنه لما كان الذى يعمد الى شيء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب مما يجرى به التعارف ، دلنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكمة "(١) .

وكما يظهر من قوله هذا فقد جاءت المبالغة ووقع الزجر بها عن طريق أبلغية الاستعارة عن الحقيقة .

وثاني المثالين قوله في قوله تعالى " فأنشرنا به بلدة ميتا " (٢) النشر هاهنا مستعار وحقيقته : أظهرنا به النبات والأشجار والثمار فكانت كمن أحييناه بعد إماتته ، فكأنه قيل : أحيينا به بلدة ميتا من قولك أنشر الله الموتى فنشروا ، وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ما ليس في أظهرنا والإظهار في الإحياء والإنبات إلا أنه في الاحياء أبلغ "(٣) فإذا جاءت المبالغة في قوله هذا سببا في أبلغية هذه الإستعارة فإنها لم تكن كذلك في كل استعارة من الاستعارات التي تحدث عنها والتي ذكرنا بعضا منها .

٥ — عند ابن جنى :

أما ابن جنى صاحب الجهود المشكورة في دراسة اللغة وأسرارها ، فقد حظيت المبالغة منه باهتمام واضح كما يظهر في كتابيه الخصائص والمحتسب اذ عرض للمبالغة في اللفظة المفردة ، وفي التراكيب ، ففي الأولى اعتبر زيادة المبنى لزيادة المعنى وعقد لذلك بأبا خاصا في خصائصه هو " باب في قوة اللفظ لقوة المعنى " اعتبر فيه أن الزيادة في البناء تأتي لمبالغة نسبية في معناه عن معنى البناء الأصلي وضرب لذلك مثالا بخشن واخشوشن " فمعنى خشن دون معنى اخشوشن ، لما فيه من تكرير الشين وزيادة الواو . ومنه قول عمر رضي الله عنه : اخشوشنوا وتمعددوا . أى اصلبوا وتناهوا في الخشنة . وكذلك قولهم : أعشب المكان ، فاذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا اعشوشبت . ومثله : حلا واحلولى ، وخلق واخلولق . وغدن واغدودن "(٤) والفكرة في هذا هي جواب الخليل لسيبويه عن تساؤله عن خشن واخشوشن "(٥) .

---

(١) النكت : ٨٨ (٢) سورة الزخرف : ١١
(٣) النكت : ٨٩ (٤) الخصائص : ٣/٢٦٤
(٥) الكتاب : ٧٥

الذى ذكرناه في بداية هذا الفصل ، إلا أن ابن جنى علّل الزيادة في المعنى بأنها لزيادة البناء الظاهر في تكرير العين وزيادة الواو .

وطبّق ذلك على باب فَعِل وافتعل نحو قَدِر واقتدر فقال (فاقتدر أقوى معنى من قولهم قَدِر . كذلك قال أبو العباس وهو محضُ القياس ، قال الله سبحانه " أخذ عزيز مقتدر " فمقتدر هنا أوفق من قادر ، من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ "(١) . وقاس على ذلك : كسب واكتسب في قوله تعالى " لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت "(٢) . (وتأويل ذلك أن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر . وذلك لقوله ـ عز اسمه ـ : " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها " أفلا ترى أن الحسنة تصغر بإضافتها إلى جزائها ، صغر الواحد الى العشرة ، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها ، لم تحتقر الى الجزاء عنها ، فعُلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة ، ولذلك قال ـ تبارك وتعالى " تكاد السموات يتفطرّن منه وتنشّق الأرض وتخرّ الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا " فاذا كان فعل السيئة ذاهبا بصاحبه الى هذه الغاية البعيدة المترامية ، عظم قدرها ، وفخّم لفظ العبارة عنها ، فقيل : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت فزيد في لفظ فعل السيئة ، وانتقص من لفظ فعل الحسنة ، لما ذكرنا "(٣) .

وطبّق ذلك في زيادة بناء فُعّال عن فعيل فقال (ومن ذلك أيضا قولهم : رجل جميل ، ومضيء ، فاذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا : وضاء وجمّال ، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه قال :

والمرء يُلحِقُه بفتيان الندى ... خُلُقُ الكريم وليس بالوضّاءِ

وقال :

تمشي بجَهم حسن ملاّح ... أُجِمّ حتى همّ بالصياح(٤)

وكذلك حسن وحسّان ، قال :

دار الفتاة التي كنا نقول لها ... يا ظبية عطلا حسّانة الجيد)(٥)

وعلل ذلك بأنه تبع للزيادة في البناء عن طريق تضعيف العين في الفعل الذى أخذت منه تلك الصفة (وكأن أصل هذا إنما هو لتضعيف العين

---

(١) الخصائص : ٣/٢٦٤ ، ٢٦٥ (٢) سورة البقرة : ٢٨٦

(٣) الخصائص : ٣/٢٦٥ (٤) يعني بالجهم : فرجها والحديث عن امرأة (لسان العرب ملح) .

(٥) الخصائص : ٣/٢٦٦

في نحو المثال ، نحو قطّع وكسّر وبابهما . وإنما جعلنا هذا هو الأصل لأنه مطرد في بابه أشد من اطراد باب الصفة . وذلك نحو قولك : قطع وقطّع ، وقام الفرس ، وقوّمت الخيل ، ومات البعير ، وموّتت الابل ، ولأن العين قد تضعف في الاسم الذى ليس بوصف ، نحو قبّر وثمّر وحمّر . فدل ذلك على سعة زيادة العين)[١] . وقاس ذلك في الأسماء فقال جـ (فأما قولهم : خطّاف وان كان اسما فانه لاحق بالصفة في افادة معنى الكثرة ، ألا تراه موضوعا لكثرة الاختطاف به ، وكذلك سكّين ، انما هو موضوع لكثرة تسكين الذابح له ، وكذلك البزّار والعطّار والقصّار ونحو ذلك ، إنما هي لكثرة تعاطي هذه الأشياء وإن لم تكن مأخوذة من الفعل . وكذلك النسّاف لهذا الطائر ، كأنه قيل له ذلك لكثرة نسفه بجناحيه . وكذلك الخضّارى للطائر أيضا ، كأنه قيل له ذلك لكثرة خضرته ، والحوّارى لقوة حوره وهو بياضه . وكذلك الزمّل والزّميل والزّمّال ، انما كررت عينه لقوة حاجته الى أن يكون تابعا وزميلا وهو باب منقاد)[٢] .

وطفق ابن جنى يطبق ذلك في مواضع متفرقة من كتابه المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراء والإيضاح عنها[٣] .

وأظن أن الذى ينبغي أن يستنتج من هذا أن المبالغة في اللفظة المفردة التي تأتي عن طريق زيادة البناء فيها عن أصلها أو أختها الأقل منها بناء انما كانت غرضا أصيلا مقصودا من زيادة بنائها ، وان معناها الزائد عن معناها الأول إنما هو معنى مستقل يفوقه في الكثرة ، ولكنه ليس تتميما له أو إضافة عليه ، ولا يمكن أن يغنى عنه أو يحل محله بأى حال ، فكما لا يغنى لفظ الكثير عن القليل أو يحل محله كذلك لا يصح أن يأتي لفظ أعشوشب مكان عشب أو اخشوشن مكان خشن .

وقد استمد ابن جنى أصول هذه الفكرة من الخليل وسيبويه كما ذكرنا سابقا وعن أبي العباس كما صرح بذلك في خصائصه[٤] وكان له فضل التطبيق والاستشهاد وشرح الدواعي والأسباب المعنوية التي تجعل احدى كلمتين من أصل واحد تزيد في معناها لزيادة مبناها عن أختها التي تشترك معها في الأصل وتنقص عنها في المعنى وكان فخورا بهذا معجبا به كما يظهر من قوله (وذاكرت بهذا الموضع بعض أشياخنا من المتكلمين فسرّ به ، وحسن في نفسه)[٥] .

---

(١) الخصائص : ٣/٢٦٦ ، ٢٦٧ (٢) المصدر السابق : ٣/٢٦٧

(٣) انظر المحتسب : ١/١٣٤ ، ١٣٥ — ١/٢٠٧ — ١/٣١٩ — ٢/١٣٤ — ٢/٢٣٠ ، ٢٣١ — ٢/٢٣٣ .

(٤) الخصائص : ٣/٢٦٤ (٥) المصدر السابق : ٣/٢٦٦

ولكن ابن جني نسف هذه القاعدة من أساسها بقاعدته الأخرى التي افترض فيها أن (الأفعال تفيد أجناسها والجنس غاية المجموع) (١) (فقولك : قام زيد ، معناه كان منه القيام أى هذا الجنس من الفعل .... والجنس يطبق جميع الماضي وجميع الحاضر وجميع الآتي الكائنات من كل من وجد منه القيام ،...) (٢) .

لهذا كانت فعل عنده في بعض القراءات تؤدى معنى فعّل في القراءات الأخرى فـ (فرقوا) بالتخفيف في قوله تعالى " ان الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعا لست منهم في شيء انما أمْرُهم الى الله ثم ينبئُهم بما كانوا يفعلون " (٣) . يحتمل أن تكون موقع فرّقوا بالتثقيل (أما (فرّقوا) بالتخفيف فتأويله أنهم مازوه عن غيره من سائر الأديان ، هذا ظاهر (فرقوا) بالتخفيف . وقد يحتمل أن يكون معناه معنى القراءة بالتثقيل ، أى فرّقوه وعضّوه أعضاء فخالفوا بين بعضه وبعض وذلك أن فعل بالتخفيف يكون فيها معنى التثقيل . ووجه هذا أن الفعل عندنا موضوع على اغتراق جنسه ...) (٤) .

وكذلك قال في قراءة " تُطْهِرُهُم " في قوله تعالى " خذ من أموالهم صدقة تطَهّرُهم وتزكيهم بها ، وصلِّ عليهم إن صلاتَك سكنٌ لهم ... " الآية (٥) . حيث قال (هذا منقول من طَهُر وأطهرته كظهر وأظهرته . وقراءة الجماعة أشبه بالمعنى لكثرة المؤمنين ، فلذلك قرأت " تطّهرهم " من حيث كان تشديد العين إنما هو للكثير وقد يؤدى فعلت وأفعلت عن الكثرة من حيث كانت الأفعال تفيد أجناسها والجنس غاية المجموع) (٦) .

فغمر ابن جني بهذا اختلاف الصيغ في بحر الجنسية المفرق الذى يغطي كل دلالة ويفسد كل ميزة لها عن غيرها متناسيا قوله (وبعد فاذا كانت الألفاظ أدلة المعاني ، ثم زيد فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به وكذلك ان انحرف به عن سمته وهديته) كان ذلك دليلا على حادث متجدد له) (٦) وهو يقصد بالانحراف العدول عن معتاد حال اللفظ اذ اعتبر هذا الحادث للبناء كالحادث بالزيادة فيه يفيد تكثير المعنى . يقول في ذلك (ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله . وذلك فُعَال في معنى فعيل ، نحو طُوال ، فهو أبلغ معنى من طويل وعُراض فانه أبلغ معنى من عريض .

---

(١) الخصائص : ٢/٤٤٨ (٢) سورة الأنعام : ١٥٩
(٣) المحتسب : ١/٢٣٨ (٤) سورة التوبة : ١٠٣
(٥) المحتسب : ١/٣٠١ (٦) الخصائص : ٣/٢٦٨

وكذلك خُفَاف من خفيف . وقُلَال من قليل ، وسُرَاع من سريع ، ففُعَال — لعمري — وان كانت أخت فعيل في باب الصفة ، فان فعيلا أخص بالباب من فُعَال ، ألا تراه أشد انقيادا منه تقول جميل ولا تقول جمال ، وبطيء ولا تقول بُطَاء ، وشديد ولا تقول شُدَاد ولحم غريض ولا يقال غُرَاض ، فلما كانت فعيل هي الباب المطرد ، وأريدت المبالغة ، عدلت الى فُعَال فضارعت فعال بذلك فعّالا ، والمعنى الجامع بينهما خروج كل واحد منهما عن أصله ، أما فعّال فبالزيادة ، وأما فُعَال فبالانحراف عن فعيل) (١) .

ولقد كان ابن جني في هذا مراعيا لروح اللغة في اختلاف دلالة الجزئيات ، مبقيا على الشخصية اللفظية المتميزة .... وليته استمر على ذلك ، ولم يحطم هذا الاستقلال ويغرقه في بحر الجنسية الذى لا يبقي ولا يذر . وليت جهوده في اختلاف الدلالات باختلاف الأبنية كانت عاصما له من التورط في طريق كثير من النحويين واللغويين قبله الذين قال فيهم ابن درستويه المتوفي سنة ٣٤٧هـ (لا يكون فَعِل وأفعَل بمعنى واحد كما لم يكونا على بناءٍ واحدٍ إلا أن يجيء ذلك في لغتين مختلفتين ، فأمّا من لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما يظن كثير من اللغويين والنحاة ، وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على ما في طباعها ونفوسها من معانيها المختلفة وعلى ما جرت به عاداتها وتعارفها . ولم يعرف السامعون لذلك العلة فيه والفروق فظنوا أنهما بمعنى واحد ، وتأولوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسهم ، فان كانوا قد صدقوا في رواية ذلك عن العرب فقد أخطأوا عليهم في تأويلهم مالا يجوز في الحكمة ، وليس يجيء شيء من هذا الباب الا على لغتين متباينتين كما بينا أو يكون على معنيين مختلفين أو تشبيه شيء بشيء) (٢) ولم يكن في قصد ابن جني شيء من هذا لأنه يصرح بأن الفعل موضوع على اغتراق جنسه لذلك كانت (فَرَقُوا) كـ (فرّقوا) و (يَطهر) كـ (تطهّر) لأنه (قد يؤدى فعلت وفاعلت عن الكثرة من حيث كانت الأفعال تفيد أجناسها والجنس غاية المجموع) (٣) .

وأما (أبلغ) عند ابن جني فقد جاءت في أكثر المواضع أكثر مبالغة إما من " بالغ " أو من (بلغ) بالفتح بمعنى وصل وانتهى . ويظهر ذلك من قوله (ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله وذلك فُعَال

---

(١) المصدر السابق : ٣/٢٦٧ ، ٢٦٨ (٢) المزهر : ١/٣٨٥

(٣) المحتسب : ١/٣٠١

في معنى فعيل ، نحو طُوال فهو أبلغ معنى من طويل وعراض فانه أبلغ معنى من عريض) (١) . فهو لا يمكن أن يريد بأبلغ هنا أكثر بلاغة لأننا في مجال لفظه مفردة لا تتحقق فيها البلاغة على شرط البلاغيين اذ أن البلاغة صفة راجعة الى الكلام (٢) . وهو الحق اذ أننا لا يمكننا أن نفاضل بين كلمة وأخرى مجردة عن السياق فهو يقصد بأبلغ هنا " أكثر مبالغة " اذ أنه يتحدث عن كون طوال وعراض جاءت لتكثير نسبي في المعنى عن عريض وطويل . وقد أوضح ابن جني مقصوده هذا عند ما قال (فلما كانت فعيل هي الباب المطرد وأريدت المبالغة ، عدلت الى فعال) (٣) .

ويظهر أيضا من قوله في قراءة أُبَيّ (تباركت الأرض) في قوله تعالى (فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحن الله رب العالمين) (٤) : (هو تفاعل من البركة وهو توكيد لمعنى البركة كقولك تعالى الله ، فهو أبلغ من علا وكقول الحجاج : تقاعس العز بنا فاقعنسسا .

فهو أبلغ معنى من قعس ، كما أن احدودب أقوى معنى من حَدِب ، واعشوشب أقوى من عشب لكثرة الحروف) (٥) .

حيث استخدم أبلغ في مجال مقارنة لفظة مفردة بأختها ، فتعالى الله أبلغ من علا ، واقعنسس أبلغ من قعس ، وايلها بلفظة (أقوى معنى) الدالة على قوة الدلالة على الكثرة النسبية التي تحملها احدودب عن حدب واعشوشب عن عشب . وكما يظهر ذلك أيضا في تعليقه على قول عنترة :

شطت مزارُ العاشقين فأصبحت عسرا على طلابُك ابنةَ مُخرم

حيث قال : (أي بعدت عن مزار العاشقين . وكما بالغ في ذكر استضراره خاطبها بذلك ، لأنه أبلغ ، فعدل عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب فقال (طلابك) فافهم ذلك ، فانه ليس الغرض فيه وفي نظيره السعة في القول ، لكن تحت ذلك ونظيره أغراض من هذا النحو فتفطن لها) (٦)

وقد يكون استعمال " أبلغ " في الدلالة على المبالغة مأخوذا من " بالغ " فيكون جائزا على رأي الأخفش والمبرد أو مأخوذا من بلغ التي تدل على بلوغ النهاية في بعض معانيها كما سنوضح ذلك مستقبلا ان شاء الله .

---

(١) الخصائص : ٢٦٧/٣

(٢) حاشية الدسوقي على شرح السعد ٢٧٥/٤ ضمن شروح التلخيص .

(٣) الخصائص : ٢٦٨/٣

(٤) سورة النحل : ٨

(٥) المحتسب : ١٣٤/٢

(٦) المحتسب : ٢٣١/٢

ويلاحظ أن أبا الفتح لم يستخدم غير لفظ المبالغة في نعت الكلمات المفردة التي تحمل ذلك ، مما يدل على أن لفظ المبالغة عنده هو الدرجة الأولى في بابها ، وأن مفهوم المبالغة عند إطلاقه لا يعني الإسراف أو الإفراط أو الخروج الى غير الحقيقة أو بلوغ درجة الغلو ، وذلك لأننا أمام ألفاظ وجدت في اللغة وعلينا أن نتلاغى بها كما تلاغى بها العرب معتبرين ما تحمله من مبالغة يحول هدفهم إليها وقصدهم إياها دون الحكم عليها بالإسراف أو التجاوز أو الغلو الذى حدثنا ابن جني عن بشاعته واختصاصه بالقول الجائر فقال : (وخصوا غلا في القول بالغلو لأن لفظ فعول أقوى من لفظ فَعَال ، للواوين والضمتين وضعف الألف والفتحتين ، وذلك لأن الغلوَّ في القول أعلى وأغنى عندهم من غلاء السعر . ألا ترى الى : قول الله تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا) (١) . وقال تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) (٢) وأما غلاء السعر فلا يدخل النار ولا يحرم الجنة) (٣) .

وأما اذا خرج الى مجال التراكيب والصور الشعرية في شعر أبي الطيب المتنبي وجد ابن جني المجال واسعا فاما أن يكتفي بلفظ المبالغة وصفا لبعض هذه الصور كما قال في تعليقه على قول أبي الطيب :

ان يكن النفعُ ضرَّ باطنَها ... فربما ضرَّ ظهرَها التقبيلُ

(هذا من مبالغته ، وقد أكثر الناس من ذكر تقبيلها) (٤) .

وكقوله في تعليقه على قوله :

شوائلُ تشوالَ العقاربِ بالقنا ... لها مرحٌ من تحته وصهيلُ

(شبه القنا مع الخيل بأذناب العقارب ، اذا شالت بها والتشوال بمنزلة التمساء ، ويراد به المبالغة والكثرة) (٥) .

أو أن يصفها بالإفراط كما قال في قوله :

وضفَّرن الغدائرَ لا لِحُسْنٍ ... ولكن خفن في الشَّعَرِ الضَّلالا

(قد وصفت الشعراء الشعر بالكثرة ولكن لم تفرط في ذلك مثل هذا

قال ابن المعتز :

دعت خلاخيلَها ذوائبها ... فجئن من قرنها الى القدمِ (٦)

---

(١) سورة مريم : ٨٩ — ٩١
(٢) سورة النساء : ١٧١
(٣) المحتسب : ٢/١٤٠
(٤) التبيان في شرح الديوان ٣/٢١٩
(٥) المصدر السابق : ٣/٩٦
(٦) المصدر السابق : ٣/٢٢٣

وكما قال في قوله :

تجاوز قدر المدح حتى كأنه   بأحسن ما يثني عليه يعاب

(هذا من المدح الذى كاد أن ينقلب لإفراطه هجوا) (١) .

أو أن يقرنها بالإسراف ، والخروج الى الإحالة ، ومخالفة الحقيقة ويظهر ذلك من قوله تعليقا على قول أبي الطيب المتنبي :

يقبلهم وجه كل سابحة   اربعها قبل طرفها تصل

(أسرف في المبالغة حتى خرج الى ما يستحيل وقوعه لأن القوائم اذا وصلت قبل الطرف ، فقد وصف النظر بالضعف وهو من قول أبي نواس :

يسبق طرف العين في التهابه) (٢) .

وقوله تعليقا على قول شاعره المتنبي :

وقد استقدت من الهوى وأذقته   من عفتي ما ذقت من بلباله

(يحتمل هنا وجهين : أحدهما أن يكون العرض ، فيكون هذا من مبالغة الشعر التي ليست لها حقيقة ، والآخر أن يريد المرأة التي شبب بها فيكون على حذف المضاف ، أى ذات الهوى) (٣) .

وقد أدخل ابن جنى المجاز تحت باب المبالغة وذلك حيث يقول (وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي : الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه) (٤) . وهو يعني بالتوكيد المبالغة لأنه عندما جاء ببيان التوكيد ضمن بيان هذه الأغراض الثلاثة في وصف الحب بالمتغلغل في قوله :

شكوت اليها حبها المتغلغلا   فما زادها شكواى إلا تدللا

قرن به المبالغة فقال (وأما المبالغة والتوكيد فلأنه أخرجه عن ضعف العرضية الى قوة الجوهرية (٥) . وهو أيضا ما يمكن أن نستنتجه من قوله عن التوكيد في قوله تعالى (وأدخلناه في رحمتنا) (٦) (وأما التوكيد فلأنه أخبر عن العرض بما يخبره عن الجوهر وهذا تعال بالعرض وتفخيم منه ، اذ صير الى حيز ما يشاهد ويلمس ويعاين) (٧)

---

(١) التبيان في شرح الديوان : ١/١٩٤
(٢) المصدر السابق : ٢١٣/٢١٤
(٣) المصدر السابق : ٣/٥٦
(٤) الخصائص : ٢/٤٤٢
(٥) الخصائص : ٢/٤٤٤
(٦) سورة الأنبياء : ٧٥
(٧) الخصائص : ٢/٤٤٣ .

ونخلص أخيرا الى أن صور المبالغة عند ابن جنى تأتي على أضرب عدة :

ففي اللفظة المفردة نراها في الصور الآتية :

١ — زيادة المبنى كما في : افتعل[١] ، وفعّل[٢] ، وفعّال[٣] ، وتفاعل[٤] وافعوعل[٥] .

٢ — العدول عن معتاد حال اللفظ كما في فعّال[٦] .

٣ — زيادة هاء التأنيث في مثل : راوية ، وعلّامة ، وكرّامة ، وخالصة .[٧]

٤ — كثير مما جاء على وزن مفعله (وقد كثرت المفعلة بمعنى الشياع والكثرة في الجواهر والأحداث جميعا وذلك كقولهم أرض مضبّة كثيرة الضباب ، ومثعلة كثيرة الثعالب ، ومحياء ومحواء ومضباة كثيرة الحيات والأفاعي ، فهذا في الجواهر . وأما الأحداث فكقولك : البطنة مؤسنة ، وأكل الرطب موردة ومحمة ، ومنه المسعاء والمعلاة ، والحق مجدرة بك ، ومخلقة ومسعاة ، ومقمنة ، ومحجاة ، وفي كله معنى الكثرة من موضوعين : أحدهما : المصدرية التي فيها ، والمصدر الى الشياع والعموم والسعة .

والآخر التاء وهي لمثل ذلك ، كرجل راوية ، وعلّامة ، ونسّابه ، وهذرة ولذلك كثرت المفعلة فيما ذكرناه لإرادة المبالغة)[٨] .

٥ — ما جاء على وزن فعل كبهت[٩] ، وقضو ، وفقه ، وشعر .

وفي التراكيب تأتي في الصور الآتية :

١ — صور المجاز كما سبقت الإشارة اليه .

٢ — عكس الكلام[١٠] ، والتشبيه المقلوب .[١١]

---

(١) المصدر السابق : ٣/ ٢٦٤ ، ٢٦٥

(٢) المحتسب : ١/ ٢٠٧ ، ٢/ ٢٣٣ ، الخصائص : ٣/ ٢٦٦

(٣) المحتسب : ٢/ ٢٣٠ ، ٢٣١ — الخصائص : ٣/ ٢٦٦

(٤) المحتسب : ٢/ ١٣٤

(٥) الخصائص : ٣/ ٢٦٤ ، المحتسب : ١/ ٣١٩

(٦) الخصائص : ٣/ ٢٦٧ ، ٢٦٨

(٧) المحتسب : ١/ ٢٣٢ ، ٢/ ١٣٦ ، ٢٣١

(٨) المحتسب : ٢/ ١٣٦ ، ١٣٧

(٩) المصدر السابق : ١/ ١٣٤ ، ١٣٥

(١٠) التبيان في شرح الديوان : ٤/ ٧٠

(١١) الخصائص : ١/ ٣٠٠

٣ ــ جعل الموصوف هو المصدر للمبالغة كقول الخنساء :

ترتع ما غفلت حتى اذا ادّكرت فإنما هي إقبالٌ وإدبـــــارُ (١)

٤ ــ وصف المصدر كقولهم : هذا شعرٌ شاعر ، وموتٌ مائت،،،. وكقـــول الآخر :

إذا ناقةٌ شُدّت برحل ونُمـــرُق إلى حكم بعدى فضل ضلالُها

وعليه قالوا (جُنّ جُنونُه ، وخرجت خوارجُه) (٢) .

وهذه الأضرب في التراكيب التي بين لنا ابن جنى المبالغة فيهـــــا هي تراكيب محفوظة وموجودة في اللغة للدلالة على المبالغة، ويبقى بعد ذلك ما حكم عليه ابن جنى بالمبالغة مما يبتدعه القائل وينشئه عن طريق الزيــادة في المعنى والخروج عن المألوف كقول أبي الطيب المتنبي :

فكأنه والطعنُ من قُدّامـــه متخوفٌ من خلفِـه أن يُطعنـــا

نفت التوهمَ عنه حدةُ ذِهنــه فقضى على غيبِ الأمور تيقنـــا (٣)

وكقوله :

تجاوز قدر المدح حتى كأنّــه بأحسنِ ما يثنى عليه يعـــابُ (٤)

وكقوله :

بليت بلى الأطلال ان لم أقف بها وقوفَ شحيحٍ ضاع في التُربِ خاتمُه (٥)

وكقوله :

إن يكن النفع ضر باطنهــــا فربمـا ضـرّ ظهرها التقبيـــل (٦)

ولقد كان تناول ابن جنى للمبالغة وايضاح طرقها أكثر اتساعا وشمولا من معاصريه ذلك لأنه أوغل في دراسة اللغة بحثا وتأملا مما هيأ له الفرصـــة ليضع أيدينا على الأساليب اللغوية الدالة على المبالغة كالإخبار بالمصدرية ، وزيادة هاء التأنيث ، وزيادة البناء او تغييره عن أصله .... وقد عرض بعض هذه الأمور عرضا نظريا يضرب عليه الأمثلة في الخصائص ثم أخذ يستوحيهــــا ويُصدِرُ عنها في نظرته الى معاني القراءات في المحتسب وشرحه لديوان المتنبي .

أما معاصروه كالآمـدى والقاضي الجرجاني ، والحاتمي والخالديـين فلم نحظ عندهم بهذا التوسع وذلك لأن مجال تطبيقاتهم كانت محصورةً فـــي الشعر كما سنرى ، وحتى الرماني الذى كان عرضه للمبالغة ضمن بيان اعجـاز القرآن الكريم لم تظفر عنده بهذا الشمول والاتساع، ولكن جهود هؤلاء مع جهود

---

(١) المحتسب : ٢/٤٦ ، ١٠٧ (٢) المصدر السابق : ٢/٩٣ ، ٢٠١

(٣) التبيان في شرح الديوان ٤/١٩٩ (٤) المصدر السابق : ١/١٩٤

(٥) المصدر السابق : ٣/٣٢٨ (٦) المصدر السابق : ٣/٢١٩

السابقين أتاحت أمام أبي هلال المجال واسعا ليتحدث عن المبالغة ويفرق بينها وبين الغلو .

٦ - عند أبي هلال :

لقد تداخلت في الموروث النقدى الذى كان أمام أبي هلال عدة عوامل تحكم نظرته الى المبالغة . فالممدوحون لم يعودوا يرضون بالمنزلة التي وضع الشعراء القدماء فيها ممدوحيهم ويطلبون منزلة فوقها ، ولقد ظهرت هذه النظرة منذ عهد عبد الملك بن مروان اذ يقول الهيثم بن عدى (دخل الأخطل على عبد الملك بن مروان فقال : يا أمير المؤمنين قد امتدحتك فاستمع مني . فقال : ان كنت شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي بمدحك ، وان كنت قلت كما قالت أخت ابن الشريد لأخيها صخر فهات. فقال الأخطل : وما قالت يا أمير المؤمنين قال : هي التي تقول :

فما بلغت كفُّ امرئ متناولٍ   بها المجدُ إلا حيثُ ما نلتَ أطولُ

ولا بلغ المهدون في القول مِدحة   ولو أطنبوا إلا الذى فيك أفضلُ

فقال الأخطل والله لقد أحسنت القول ، ولقد قلت فيك بيتين ما هما بدون قولها . قال : هات فأنشد :

إذا متَّ مات العُرفُ وانقطع الندى   من الناس إلا في قليل مُصرَّدِ

وردت أكف السائلين وأمسكوا   من الدين والدنيا بخلفٍ مجدد (١)

وحتى رواة الشعر كان منهم من ينكر على الشاعر التشبيه بالأسد ، والشمس ويرى أن التشبيه يجب أن يقلب ويشبه الأسد بالرجل في الشجاعة ، والشمس بالمرأة في الحسن ....

يقول الأصمعي (سمعت أعرابيا يقول : أيكم معاشر أهل الحضر لتخطئون المعنى . ان أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول : كأنه الأسد ، ويصف المرأة بالحسن فيقول : كأنها الشمس ، لم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه . ثم قال لأنشدك شعرا يكون لك اماما ثم أنشدني :

اذا سألت الورى عن كل مكرمة   لم تلفِ نسبتها إلا إلى الهولِ

فتى جواد أعاد النَّيْلَ نائلة   فالنَّيل يشكر منه كثرة النيلِ

والموت يرهب أن يلقى منيته   في شدةٍ عند لفِ الخيل بالخيلِ

لو عارض الشمس ألفى الشمس مظلمة   أو زاحم الغيمَ ألجأها الى الميلِ

---

(١) ديوان المعاني : ١/ ٢٧

أو بارز الليلَ غطّته قوادِمُه ... دون القوافي كمثل الليل بالليل
أمضى من النجم أن نابته نائبةٌ ... وعند أعدائه أجرى من السيل)[1]

ويلمس الناظر في هذا فضلا عن طلب المبالغة في الوصف والمديح فقد هذه الرموز (الأسد – الصقر – الحيه وغيرها) لقيمتها الايحائية التي كانت توحي بها في العصر الجاهلي وصدر الإسلام حتى إن عبد الملك بن مروان يقول يوما لجمع من الشعراء عنده : (تشبهوننا بالأسد والأسد أبخر وبالبحر والبحر أجاج ، وبالجبل والجبل أوعر ألا قلتم كما قال أيمن بن خُريم في فاتك في بني هاشم :

نهارُكمُ مكابدةٌ وصومٌ ... وليلُكمُ صلاةٌ واقتراءُ
أأجعلكم وأقواما سواء ... وبينكم وبينهم الهواءُ
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأعينهم وارؤسهم سماء)[2]

وإذا كان هذا في عصر لا تزال فيه الأمة على بداوتها ، والزمن لم يمتد بفصل طويل بينها وبين التقاليد الفنية للعصر الجاهلي ، فما بالك بعصر أبي هلال الذى جاء وأمامه موروث نقدى يزدلف الى الأمراء ويوجه الشعراء الى موافقة هواهم ، والأمة تغالي في صنعة الزخارف وتنميقها في نظرهم ، وأصبح كل من الشعر والنثر صنعة يبلغ بها البليغ أعلى الرتب في البلاغة (إذا احتج للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود ، وللمحمود حتى يصيره في صورة المذموم)[3] .

وأراد أبو هلال أن يجرى مع التيار فكان عليه أن يحتضن المبالغة التي وجد فيها الشعراء مخرجا بين السير على التقاليد الفنية الموروثة وبين ارضاء الممدوحين وبين منزلتها في البلاغة حيث ربط بينها وبين البلاغة في الأصل اللغوى وذلك حيث يقول في تعريف البلاغة (البلاغة من قولهم : بلغتُ الغاية اذا انتهيتُ إليها وبلّغتها غيرى ، ومَبْلَغُ الشيء مُنْتهاه ، والمبالغةُ في الشيء الانتهاءُ الى غايته

فسميت البلاغة بلاغةً لأنها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمَه)[4] .

ولذلك جاءت لفظة (البليغ) عنده مرادفة للفظ (المبالغة) فقال في تعليق على قول عمرو بن معد يكرب :

ولقد أجمع رجليَّ بها ... حذرَ الموتِ واني لفرور

---

(١) المصون في الأدب : ٦١ ، ٦٢
(٢) ديوان المعاني : ١/ ٢٦
(٣) الصناعتين : ٥٩
(٤) المصدر السابق : ١٢

(..... وقال بعض أهل الأدب انما هو " لقرور " بالقاف ، لأن الشجاع لا يمدح نفسه بالفرار سيما باللفظ البليغ من " فرور " .(١)

وجاءت " أبلغ " عنده بمعنى أكثر مبالغة فهو يقول (أبلغ ما قيل في مساعدة الرجل أخاه وأجوده قول دريد بن الصمة .... :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى ... غوايتهم إني بهم غير مهتدي
وما أنا الا من غزية ان غوت ... غويت وان ترشد غزية أرشد

..... ووجه المبالغة في هذا الكلام أنه أخبر بموافقة أخيه على علمه بأنها غي وترك مخالفته مع معرفته أنها رشد كراهة الخروج من هواه وترك مطابقته على رضاه) .(٢)

ويقول (وأبلغ ما قيل في طول الفرس في الهواء قول أبي داؤد :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه ... أناخ بهادٍ مثل جذع سحوق
كأني اذا عاليت حوزة متنه ... تعلق بري عند بيض أنوق (٣)

وبيض الأنوق في أعلى موضع من الجبل ، فلا ترى أشد مبالغة من هذا البيت) .(٤) ويمكن أن نقيس على هذا قوله :

(ويستحب في الخيل سعة المنخرين فمن أبلغ ما قيل في ذلك قول مزاحم بن طفيل العقيلي :

من منخر كوجار الثعلب الخرب . فجعله خربا ليكون أوسع) .(٥)

وقوله : (ومن أبلغ ما قيل في طول عنق الفرس قول مزاحم العقيلي أيضا :

كأن هاديه ... جذع على شرف .

فلم يرض أن جعلها جذعا حتى جعلها على شرف كصنيع الخنساء في قولها :

كأنه علم في رأسه نار .(٦)

ولذلك استطاع أن يقول عن الاستعارة في قوله تعالى " ولا يظلمون نقيرا "(٧) ، " ولا يظلمون فتيلا "(٨) ، (وهذا أبلغ من قوله سبحانه " ولا يظلمون شيئا "(٨) وان كان قوله : ولا يظلمون شيئا أنفى لقليل الظلم وكثيره

---

(١) ديوان المعاني : ١/١١١ (٢) المصدر السابق : ١/١٢٢
(٣) يرى البره الخلخال والجمع براة وبرك وبرين وبرين وجاءت على برين هنا ضرورة .
( ) الأنوق : الرخمة .. وفي المثل أعز من بيض الأنوق لأنها تحرزه فلا يكاد يظفر به لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة . (٤) ديوان المعاني ٢/١٢
(٥) المصدر السابق : ٢/١١٠ (٦) المصدر السابق : ٢/١١٠
(٧) النساء : ١٢٤ (٨) سورة الضحى : ٤٩ (٩) سورة مريم : ٦٠

في الظاهر وكذا قوله تعالى " ما يملكون من قطمير " (١) أبلغ من قوله تعالى " لا يملكون شيئا " وان كان هذا أنفى لجميع ما يملك في الظاهر) (٢)

فلولا أن هدفه المبالغة بقوله (أبلغ) لما استطاع أن يفاضل بين آيات الكتاب الكريم في البلاغة .

وبفضل هذه الموافقة عنده بين البلاغة والمبالغة سمت المبالغة عنده الى درجة جعلها بها تسمية لكل كتاب من كتب أبواب كتابه ديوان المعاني لما رأى أن يجعل (كل باب منه ينفرد بنفسه ، ويتميز من جنسه ليخف محمله ويقرب مأخذه) (٣) . فمثلا سمى الباب الأول بكتاب المبالغة في المديح والتهاني والافتخار .

وقد تحدث أبو هلال عن كل من الغلو والمبالغة في كتابه الصناعتين في فصل منفرد ضمن فصول باب البديع . وتعريفه لكل منهما يظهر فرقا في الدرجة بينهما اذ يعرف الغلو بقوله : (الغلو : تجاوز الحد في المعنى والارتفاع فيه الى غاية لا يكاد يبلغها) (٤) . فالغلو فيه خروج عن الحدود المفروضة للمعنى ، بينما لا يكون في المبالغة ذلك الخروج وإنما هي البلوغ بالمعنى ـ كما قال أبو هلال ـ (أقصى غاياته ، وأبعد نهاياته ، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله ، وأقرب مراتبه) (٥) . ويتفق هذا المعنى للمبالغة مع الدلالة المعجمية لها التي سبق عرضها ، والتي أوردها أبو هلال في تعريفه للبلاغة (٦) .

ولنقف الآن قليلا أمام الفصلين ، لنرى تحقق الفرق الظاهر في التعريف بينهما . ففي الغلو يمكن أن نصنف الأمثلة التي أوردها فيما يلي :

١ ـ الخروج عن الحدود المفترضة للمعنى والتي قيست بمقياس التحقق في الواقع الخارجي . فمن ذلك تمثيله بقوله تعالى (وبلغتِ القلوبُ الحناجر) (٧) .

وقول تأبط شرا :

ويوم كيوم العكتنين وعطفةٍ عطفتُ وقد مسَّ القلوبَ الحناجرُ

---

(١) سورة فاطر : ١٣
(٢) الصناعتين : ٢٧٤ ، ٢٧٥
(٣) ديوان المعاني : ١/ ١٤
(٤) الصناعتين : ٣٦٩
(٥) المصدر السابق : ٢٧٨
(٦) المصدر السابق : ١٢
(٧) الأحزاب : ١٠

وبقوله تعالى (وإن كان مكرُهُم لِتزولَ منه الجبال) (١) .

وقوله سبحانه (وإن يكاد الذين كفروا لَيزلقونَك بأبصارهم) (٢)

وقول امرىء القيس :

من القاصرات الطرفِ لو دب محولٌ   من الذر فوق الأتبِ منها لأثرا

وقول ابي الطمحان :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم   دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

٢ ـ تعليق الأمر الممكن على ما يستحيل وقوعه فمن ذلك تمثيله بقوله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط) (٣) . ويقول الشاعر :

إذا زال عنكم أسودُ العين كنتم   كراما وأنتم ما أقام ألائم

ويقول الآخر :

فرّجي الخير وانتظري إيابي   اذا ما القارظ العنزى آبا

ويقول النابغة :

فإنك سوف تَحلُم أو تناهى   إذا ما شبْتَ أو شابَ الغرابُ

ويمكن أن نجعل من ذلك تمثيله بقول الطرَمّاح فيما بعد البيت الأول :

تميمٌ بطُرقِ اللؤمِ أهدى من القطا   ولو سلكت سُبلَ المكارمِ ضلّتِ

ولو أن برغوثا على ظهر قملةٍ   يَكرُّ على صفّيْ تميم لولّتِ

ولو أنّ أمّ العنكبوتِ بنت لها   مظلّتَها يوم الندى لاستظلّتِ

ولو جمعت يوما تميمُ جموعَها   على ذرّة معقولة لاستقلتِ

ولو أن برغوثا يزقّ مسكه   اذن نهلت منه تميم وعلّتِ

مع أن الطرماح لم يكتف بالتعليق على المستحيل ، ولكن أقام من تلك المستحيلات تمثيلا هزليا لذله هذه القبيلة وجبنها .

٣ ـ قلب المفاضلة بين المفاضلين بجعل المفضول أكثر فضلا من الفاضل فمن ذلك تمثيله بقول سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما وقد أثقلت ابنتها بالدر (٤) (ما ألبستها إياه إلا لتفضحه) (٥) ويقول الشاعر :

جاريةٌ أطيبُ من طيبها   والطيبُ فيه المسكُ والعنبرُ

ووجهها أحسنُ من حُليها   والحُليُّ فيه الدرُّ والجوهرُ

ويقول ابن مطير (٦) :

مخضّرةُ الأوساط زانت عقودَها   بأحسن مما زيّنتها عقودُها

---

(١) سورة ابراهيم : ٤٦   (٢) سورة القلم : ٥١

(٣) سورة الأعراف : ٤٠   (٤) الصناعتين : ٣٧١

(٥) المصدر السابق : ٣٧١   (٦) المصدر السابق : ٣٧١

٤ — رسم صورة هزلية طريفة يقوم بعضها مقام الصور الكاريكاتيرية الآن :
فمن ذلك تمثيله بقول القائل :(١)

لقد مرّ عبدُ الله في السوق راكبا   له حاجةٌ من أنفه ومَطَرّق
وعَنّت له في جانب السوق منخطة   توهمت أن السوقَ منها سيغرقُ
فأقدر به أنفا وأقدر بربـــه   على وجهه منه كنيفٌ معلّق

وبقول أبي نواس يصف قدرا :(٢)

يغص بحيزوم الجرادة صدرُها   وينضج ما فيها بعودِ خلال
وتغلي بذكر النارِ من غير حرّها   و تنزلها عفوا بغير جِعَال
هي القدر قدر الشيخ بكرُبن وائل   ربيع اليتامى عام كلّ هزالِ

وبقول الآخر في امام بطيء القراءة :(٣)

اذا قرأ " العاديات " في رجب   لم تفن آياتُها الى رجب
بل هو لا يستطيع في سنة   يختم (تبت يدا أبي لهب)

وبقول المؤمل :(٤)

من رأى مثل حبّتي   تشبه البدر إذ بدا
تدخلُ اليومَ ثم تد   خلُ أردافُها غدا

وبقول الآخر(٥)

أنت في البيت وعرنيـ   ـنُك في الدار يطوف

وأما الأمثلة التي أوردها للمبالغة فيمكن أن تصنفها فيما يلي :

١ — اختيار كلمة في الكلام لأنها أوفى أداء في غرض الكلام من غيرها فمن ذلك تمثيله بقوله تعالى (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى)(٦) حيث يقول (ولو قال : تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بيانا حسنا وبلاغة كاملة ، وانما خص المرضعة للمبالغة ، لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفتها بحاجة اليها ، وأشغف به لقربه منها ، ولزومه لها لا يفارقها ليلا ولا نهارا وعلى حسب القرب تكون المحبة والإلف)(٧)

---

(١) المصدر السابق : ٣٧٤
(٢) المصدر السابق : ٣٧٤
(٣) المصدر السابق : ٣٧٥
(٤) المصدر السابق : ٣٧٤
(٥) المصدر السابق : ٣٧٤
(٦) سورة الحج : ٢
(٧) الصناعتين : ٣٧٨

وتمثيله بقوله تعالى (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء)[١] حيث يقول (لو قال : يحسبه الرائي لكان جيدا ، ولكن لما أراد المبالغة ذكر الظمآن ، لأن حاجته الى الماء أشبه وهو على الماء أحرص)[٢] .

٢ — الزيادة في المعنى بعد تمامه ، وهو النوع الآخر للمبالغة الذى يقول عنه أبو هلال (ومن المبالغة نوع آخر ، وهو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عليها أجزأه في غرضه منها فيجاوز ذلك حتى يزيد في المعنى زيادة تؤكده ، وتلحق به لاحقه تؤيده)[٣] .

وهذا النوع هو الذى أورده قدامة بن جعفر تعريفا للمبالغة[٤] وجميع أمثلة أبي هلال مأخوذة من أمثلة قدامة ، ما عدا ما أورده من كتابة له في فصل الى بعض أهل الأدب[٥] . وهي مقيسة على تلك الأمثلة . فمن تلك الأمثلة :

قول عمير بن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

(فاكرامهم للجار ما دام فيهم مكرمة ، واتباعهم اياه الكرامة حيث مال من المبالغة)[٦] .

وقول الحكم الخضرى :

وأقبح من قرد ، وأبخل بالقرى من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف

(فالكلب بخيل على ما ظفر به ، وهو أشد بخلا اذا كان جائعا أعجف)[٧] .

وبالنظر الى كل نوع في حدود أمثلته فاننا لا نستطيع أن نفرق بين الغلو والمبالغة الا على أساس أن المبالغة ما كان فيها اختيار كلمة يكون اكثر مبالغة في المعنى من غيرها ، أو ما جاءت فيه الزيادة بعد تمام المعنى ، كما أن الفرق بين التعريفين يظهر لنا أن الغلو يجاوز حد المعنى الى غاية لا يكاد يبلغها ، بينما المبالغة لا تبلغ ذلك وانما تقف عند نهاية الغاية ، ولكن الأمثلة قصرت عن

---

(١) سورة النور : ٣٩ (٢) الصناعتين : ٣٧٨
(٣) المصدر السابق : ٣٧٨ ، ٣٧٩ (٤) نقد الشعر : ٤٦
(٥) انظر الصناعتين : ٣٧٩ ، ٣٨٠ (٦) المصدر السابق : ٣٧٩
(٧) المصدر السابق : ٣٧٩

استيعاب أنواع الأمثلة التي تقف عند الغاية . ولعل هذا يرجع الى عدم استطاعة أبي هلال التفريق عمليا بينهما وعن تفريق أبي هلال بين الغلو والمبالغة . يقول الدكتور أحمد إبراهيم موسى :

(وهذا مظهر من مظاهر تهذيب أبي هلال لمنحى السابقين عليه ، فقد كان المتقدمون ولا سيما قدامة يستعملون الغلو والمبالغة على أنهما كلمتان متواردتان على معنى واحد ، أما أبو هلال فقد جعلهما لونين ، وعرف كل واحد منهما بتعريف يخصه ، ولعل أبا هلال لم يسبق بتلك التفرقة فانني لم أر – على مبلغ جهدي – أحدا من السابقين قد فرق بينهما) (١) .

ولكن معاصرة الحاتمي المتوفي سنة ٣٨٨هـ حاول أن يفرق بينهما كما سنرى عند الحديث عنه .

وبعد أن تحدث الدكتور أحمد ابراهيم موسى عن الغلو ونوعي المبالغة اللذين أوردهما أبو هلال قال (وهكذا يتم على يد أبي هلال تنويع المبالغة الى ثلاثة الأنواع التي عرفها بها المتأخرون مع مباينة طفيفة ، وهذا القسم الأخير – يقصد نوع المبالغة الذى نقله أبو هلال عن قدامة – عرف فيما بعد باسم الإغراق) (٢) .

ولكن المدقق لا يرى هذا التنويع لديه إذ لا نجده يفصح بذكر التبليغ أو الإغراق . وأما القسم الذى رأى الدكتور أنه " الإغراق الذى عرف عند المتأخرين " فليس هو اذ أنه عند المتأخرين يطلق على ما امتنع عادة لا عقلا (٣) . وأمثلة أبي هلال التي نقلها عن قدامة لا ينطبق عليها ذلك وان انطبق ذلك على قول عمير بن الايهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

من بعض الوجوه حيث يقول الدسوقي (وأعلم أن هذا البيت إنما يصلح للاغراق إذا حمل قوله (ونتبعه الكرامة حيث مال) على أن المراد إرسال الإحسان اليه الدافع لحاجته وحاجة عياله بعد ارتحاله عنهم وكونه مع الغير ، وأما إن حمل على أن المراد إعطاء الجار الزاد عند ارتحاله وسفره الى أى جهة فلا يصلح مثالا لأن هذا لا يستحيل عادة اذ هذا شائع عند الأسخياء وأصحاب المروءات) (٤) .

---

(١) الصبغ البديعي في اللغة العربية ١٦٦ (٢) المصدر السابق : ١٦٧
(٣) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٣٦٠/٤
(٤) حاشية الدسوقي على شرح السعد : ٣٦٠/٤

وقد استعمل أبو هلال مصطلح الإفراط ، ويرتبط عنده هذا المصطلح بالغلو فلقد قال تحت فصل الغلو " ومثله في الإفراط قول آخر في إمام بطيء القراءة (١) :

إن قرأ العاديات في رجب ... لم تفن آياتها الى رجب
بل هو لا يستطيع في سنة ... يختم (تبت يدا أبي لهب)

ثم قال بعد ذلك " ومن الناس من يكره الإفراط الشديد ويعيبه ... (٢)

٧ - عند الباقلاني :

وهو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، المتوفي سنة ٤٠٦ هـ وقد تحدث في كتابه " اعجاز القرآن " عن المبالغة والغلو كنوعين من أنواع البديع الذى اعتبر بعضهم - كما يشير بذلك هو - وجود أنواعه في القرآن الكريم وجها من وجوه اعجازه (٣) ، وعرف المبالغة بأنها : تأكيد معاني القول (٤) ونلاحظ خروج هذا التعريف بالمبالغة عن الزيادة في المعنى التي رأيناها عند قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكرى ، والتركيز على قيمة التأكيد في المبالغة ، ولكنه مع ذلك يقف عند الحكم بالمبالغة أو توكيد المعنى دون تدبر لأسباب هذا القصد في التوكيد والمبالغة أو بيان قيمته في سياق الكلام وقد مثل لها بمثالين من تلك الأمثلة التي أوردها قدامة بن جعفر فمثّل لها بقول عمير بن الايهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا ... ونتبعه الكرامة حيث مالا

وقول الآخر :

هم تركوا أسلح من حبارى ... رأت صقرا وأشرد من نعام (٥)

أما الغلو فقد ربطه الباقلاني بالإفراط في الصفة - وهي سنة رأيناها عند أكثر النقاد في ربط الغلو بالإفراط - حيث يقول (ومن البديع عندهم : الغلو والإفراط في الصفة) (٦) . ولم يورد لنا تعريفا له بل يكتفي بإيراد الأمثلة التي رأينا بعضها عند قدامة وأبي هلال كبيتي النمر بن تولب في صفة السيف (٧) ، وكقول النابغة (٨) :

تقد السلوقيّ المضاعف نسجه ... ويوقدن بالصفاح نار الحُباحِبِ

---

(١) الصناعتين : ٣٧٥ (٢) المصدر السابق : ٣٧٥
(٣) اعجاز القرآن : ١١١ (٤) المصدر السابق : ٩١
(٥) المصدر السابق : ٩١ ، ونقد الشعر : ١٤٦ ، ١٤٧
(٦) اعجاز القرآن : ٧٧ (٧) الصناعتين ٣٧٣ ونقد الشعر ٩٢ ، اعجاز القرآن ٧٧
(٨) اعجاز القرآن : ٧٧

وكقول البحتري (١) :

ولو أن مشتاقا تكلّف فوق ما   في وسعه لسعى اليك المنبر

ويضيف إليها قول عنترة (٢) :

فأزور من وقع القنا بلبانه   وشكا اليّ بعبرة وتحمحم

الذى اعتبره الحاتمي مبالغة لا تخرج إلى درجة الغلو (٣) .

ثم يقول الباقلاني (ومن هذا الجنس ـ أى الغلو ـ في القرآن " يوم نقول لجهنّم هل امتلأتِ ، وتقول هل من مزيد " (٤) ، وقوله " إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظًا وزفيرا " (٥) ، وقوله " تكاد تميّز من الغيظ " (٦) (٧))

ولم يجعل هذا داخلا تحت المبالغة إلا لأنه يرى فيه اسناد الفعل الى فاعل لا يعقل قيامه به على جهة التصور المنطقي البشرى ، فجهنم لا تقول ، ولا تغتاظ ، ولا تزفر ، ولا تكاد تميز من الغيظ .

ونقل فصل الرماني عن المبالغة الذى ناقشناه سابقا ، وقال عنه (وما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة في اللفظ ـ فليس بطريق الاعجاز ، لأن الوجوه التي قد ذكرها قد تتفق في كلام غيره ، وليس ذلك بمعجز ، بل قد يصح أن يقع في المبالغة في المعنى والصفة ، وجوه من اللفظ تثمر الإعجاز) (٨) فهو لا يرى للمبالغة في اللفظ وجها من وجوه الإعجاز ، ولكن المبالغة في المعنى والصفة قد تقع فيها وجوه من اللفظ تثمر الإعجاز .

٨ ـ عند نقاد آخرين :

قبل أن نختتم هذا الفصل نود أن نشير إلى المبالغة ، ومصطلحاتها عند نقاد كان لهم موقف في نقد الشعر والأدب في هذا القرن ، فمنهم من جمع تراجم الشعراء وأخبارهم ، وما وجه اليهم من نقدات . كالمرزباني المتوفي سنة ٣٨٤هـ ، أو الخالديين صاحبا (الأشباه والنظائر) ، ابني هاشم المتوفى أولهما : أبو بكر محمد سنة ٣٨٠هـ ، والمتوفى ثانيهما أبو عثمان سعيد سنة ٣٩٠هـ .

---

(١) الصناعتين ٣٧٦ ، اعجاز القرآن : ٧٨   (٢) إعجاز القرآن : ٧٧
(٣) الرسالة الموضحة : ٩٤   (٤) سورة ق : ٣٠
(٥) الفرقان : ١٢   (٦) الملك : ٨
(٧) اعجاز القرآن : ٧٨   (٨) المصدر السابق : ٢٨٣

ومنهم من دفعهم انشغال الناس بأمر أبي الطيب المتنبي ، وشوارده الى وضع الرسائل والكتب في النيل منه والتهجم عليه كالحاتمي : أبي علي محمد بن الحسن الحاتمي الكاتب المتوفى سنة ٣٨٨هـ صاحب (الرسالة الموضحة) أو وضع الكتب في التوسط بين خصومه وأنصاره كالقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ . الذى وضع (الوساطة بين المتنبي وخصومه) .

ولقد كانت أسماؤها عند هؤلاء ، تتراوح بين الغلو (١) ، والمبالغة (٢) ، والإفراط (٣) ، والإغراق (٤) ، وبلوغ النهاية في الفرض (٥) .

وأما التفريق بين هذه الأسماء فلم يكن واضحا عند بعضهم ، اذ نجد الخالديين مثلا يصفان كلا من المبالغة والإغراق بالإحالة ، إذ قالا في موضع (فأما قول ابن الرومي :

تَغَلْغَلَ الرُّمحُ في الدرعِ التي رُتِقَتْ   رتقًا فلو صُبَّ فيها الماءُ ما رشَحا

فهو عندنا خطأ لأن هذه الصفة بالسور الحديد أولى منها بصفة الدرع ، وهذا من المبالغة التي تحيل المعنى (٦) .

وقالا في موضع آخر تعليقا على قول عبيد بن ناقد :

فسائلْ هوازنَ عن وقعِنا   وحيَّ تميمٍ وهُمَامِهَا

عشيّةَ لولا حياءُ النساءِ   لسقنا الديارَ وآطامَها

وأما قوله : " عشية لولا حياء النساء ... البيت " إغراق في الوصف شديد وإياه أراد البحترى بقوله :

وأنزلتَ منا فوق المعاقلِ منهمُ   فلم يبق الا أن تسوق المعاقلا

وبيت البحترى أحسن من الأول وأصح لأن البحترى أوقع شكا في بيته ، وهذا ذكر أنه لولا حياؤهم من النساء لساقوا الديار والآطام وهذا محال (٧)

ولقد كانت الاحالة عند هؤلاء هي الدرجة القصوى في المبالغة وهي التي لا يرضون بالخروج إليها كما رأينا عند الخالديين ، وكما نلحظه من قول

---

(١) الرسالة الموضحة : ٩٤ ، ٩٧ — الموشح : ٤٥٦

(٢) الرسالة الموضحة : ٧١ ، ٩٤ ، ٩٧ — الأشباه والنظائر : ١٥٧/١ — الوساطة : ٤٢٣ .

(٣) الرسالة الموضحة : ٨١ ، الموشح : ٤٤١ ، ٤٤٢ ، الوساطة : ٤٢٠ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

(٤) الرسالة الموضحة : ٩٤ ، الأشباه والنظائر : ٦٠/١ ، ١٦٢/١ ، ٣/٢

(٥) الأشباه والنظائر : ٧٦/٢ ، ٢٣٩/٢ — الوساطة : ٤٢٣

(٦) الأشباه والنظائر : ١٥٦/٢ ، ١٥٧ (٧) الأشباه والنظائر : ٣٠/٢

صاحب (الوساطة)" فأما الإفراط فمذهب عام في المحدثين ، وموجود كثير في الأوائل والناس فيه مختلفون ، فمستحسن قابل ، ومستقبح راد ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء ، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية ، وأدته الحال الى الإحالة ، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط ، وشعبة من الإغراق والباب واحد ، ولكن له درج ومراتب" (١) .

ومن مرويات المرزباني التي يظهر فيها التبرم والاستياء من الإحالة ما أورده في (موشحه) بسند عن عبد الله بن يوسف أبي عبد الرحمن السمرقندي الضرير الخارج مع سيار بن رافع على المأمون ـ وكان راوية أديبا ـ قال : رأيت مسلم بن الوليد بجرجان وهو يتولاها مقدمي من مدينة السلام فسألني عمن خلفت بها من الشعراء ، فقلت : خلفت بها كوفيا وبصريا قد غلبا على الشعر ، أما من الكوفيين فأبو العتاهية ، وهو مقدم عندهم ، ومن البصريين أبو نواس ، فقال : كيف يتقدم عندهم أبو العتاهية وهو يقول :

. رويدك يا إنسانُ لا أنت تقفز .

أخرجت" تقفز" من فم شاعر محسن قط ؟! وأما أبو نواس فمحيل ويصف المخلوقين بصفة الخالق عز وجل فمما أحال فيه قوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطفُ التي لم تخلقِ

وهذا محال . وقوله :

تَكِلُّ عن إدراكِ تحصيلِه ... عيونُ أوهامِ الضمايير

تنتسب الألسن من وصفه ... الى مدى عجزٍ وتقصيرِ

وقوله :

. برىء من الأشباه ليس له مثلُ . (٢)

والذي يلفت النظر أن هؤلاء النقاد كانوا يحسون بالفرق بين درجات المبالغة فهناك مبالغة تحيل المعنى وهناك مبالغة لا تحيله كما رأينا عند الخالديين .

ولباب المبالغة درج ومراتب كما يقول القاضي عبد العزيز الجرجاني .

ولقد حاول الحاتمي أن يفرق بين الغلو والمبالغة وأن يجعل لكل منهما اسمه الذي لا يختلط بالآخر ... وأن يجعل من ذلك التفريق دراية

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه : ٤٢٠ (٢) الموشح : ٤٠٢ ، ٤٠٣

له بالشعر لا يعلمها المتنبي الذى لا يفرق بينهما حسب زعمه في (موضحته) اذ يقول حاكيا اجابته لأبي الطيب المتنبي عن سؤاله الذى حكاه عنه " وهل بين الغلو والمبالغة فرق ؟ " . (فقلت كل الفرق) .

قال عنترة يصف فرسه :

فأزور عن وقع القنا بِلَبانِه   وشكا إلي بعبرة وتحمحم

فجعل اشتكاء الفرس اليه ، إذ كان من الحيوان الذى لا ينطق بحمحمة وعبرته دون النطق والعبارة فلم يخرجه عما هو له ، ثم كشف المعنى في البيت الأخير :

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مكلمي

وقد أخذ هذا المعنى بشار بن برد وأحسن بقوله :

ولما تولى الحرُّ واعتصر الثرى   لظى القيظ من نجم توقَّد لاهبُهُ
وطارت عصافير الشقائق واكتسى   من الآل أمثال المجرة قاصبه
غدت عانة تشكو بأبصارها الصدى   الى الجأب إلا أنها لا تخاطبه

فهذا المبالغة في الوصف من غير عدول عن الحقيقة ، ونحو قول ابن هرمة واصفا كلبا :

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا   يُكَلِّمُه من حبه وهو أعجمُ

فقرن بهذه المبالغة " يكاد " فأخرجه عن الغلو الذى يبتعد عن الحقيقة ، وانظر الى قول المثقب العبدى في هذا المعنى حاكيا عن ناقته ما يبعد كل البعد عن الحقيقة :

تقول اذا درأت لها وضيني   أهذا دينه أبدا وديني
أكل الدهر حل وارتحال   أما يبقى على ولا يقيني

فهذا هو الغلو البعيد كل البعد عن الحقيقة . وإنما ذهب إلى أن الناقة لو تكلمت لأعربت عن شكواها بمثل هذا القول (١) .

وهذا التفريق الذى وضحه الحاتمي بينهما يقوم على درجة امكان قيام من أسند اليه الفعل ، فان كان الشاعر لم يتورط فينسب للفاعل مالا يمكنه القيام به فهو جار على الحقيقة .... وإن نسب له مالا يقوم به مستدلا بدلائل وإشارات يمكن أن يقوم بها كالشكوى من الحيوان بالنظر أو العبرة أو التحمحم فهذا هو المبالغة في الوصف من غير عدول عن الحقيقة ... وإن كان ما نسبه اليه شيئا لا يمكن قيامه به كالقول بالنسبة للحيوان، فهذا هو البعد عن الحقيقة

---

(١) الرسالة الموضحة : ٩٤- ٩٧ الوضين : قال في اللسان عن الجوهرى الوضين للهودج بمنزلة البطان للقتب والتصدير للرحل والحزام للسرج وهما كالنسع الا أنهما من السيور إذا نسج نساجة بعضها على بعض والجمع وضن (لسان العرب : وضن).

كل البعد الذى يسميه الحاتمي بالغلو .

وهذا التفريق الحاتمي بين الحقيقة والمبالغة والغلو يظهر لنا أن التفاوت الذى وصفه بينها ، هو التفاوت الذى سار بينها على أساس النظر العقلي ، والحكم على التخييل من خلال الواقع الخارجي .

الفصـــــل الثانـــــــي

المبالغة ومصطلحاتها عند علماء القرن الخامس الهجري

لقد رأينا في الفصل السابق تطور الحركة النقدية ، التي اتخذت اتجاهات شتى تبدو في جمع الشعر وأخبار الشعراء ، ومحاولة وضع معايير وقواعد للشعر وعقد الموازنات بين الشعراء ، واتخاذ موقف من المواقف تجاه شاعر معين ، والبحث عن وجه الإعجاز في القرآن الكريم ، ووجوه البلاغة في الشعر والنثر .

ولقد كان للمبالغة نصيب في كل هذه الاتجاهات ، فهي ترد كخبر عن الشعراء المفرطين ، وتأتي كقاعدة يستحسن حذوها أو الابتعاد عنها عند وضع القواعد والمعايير ، وتبحث صورها في القرآن الكريم . وفي هذا الفصل سنتابع تطور فكرة المبالغة ، عبر تطور الحركة الفكرية في هذا القرن ، لنرى كيف يتأثر البحث في المبالغة بالاتجاه الفكرى ، كما سنرى عند المعتزلة .

وسنتطرق في هذا الفصل للحديث عن المبالغة عند الزمخشرى المتوفي سنة ٥٣٨هـ. لأنه وإن عاش عمرا في القرن السادس ، إلا أننا لا نستطيع أن نفصل بين اتجاهه في كلا القرنين .

وقد كانت الوقفة في الفصل السابق أمام من تناول المبالغة وقفة فيها بعض التأني وذلك لأننا كنا نتابع الفكرة من بدايتها ، ونتلمس الأوليات ، في زيادة نوع من أنواع المبالغة أو تفريق بين درجاتها ، وفي هذا الفصل لن تكون الوقفة كتلك ، لأن الفكرة قد استقرت والتسمية قد سادت ، وسيكون مقدار الوقفة أمام أى عالم بقدر ما يضيف من جديد ، أو ينقض من قديم ، أو بقدر ما يعمق من فكرة تؤثر في لاحقيه .

١ ــ القاضــــي عبد الجبـــــار

(وهو الذى تلقبه المعتزلة قاضي القضاة ، ولا يطلقون هذا اللقب على سواه ولا يعنون به عند الإطلاق غيره ، كان إمام أهل الاعتزال في زمانه ، وكان ينتحل مذهب الشافعي في الفروع وله التصانيف السائرة ، والذكر الشائع بين الأصوليين) (١)

ولقد كان للمعتزلة دور كبير في التأويل في القرآن الكريم بما يوافق مذهبهم . ولقد خصهم ابن تيمية بجزء من حملته التي شنها على المتأولة :

(فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا

---

(١) طبقات الشافعية : ٩٧/٥

مذهبا يخالف الحق الذى عليه الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها ، وعمدوا الى القرآن فتأولوه على آرائهم تارة ويستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها ، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون الكلام عه مواضعه ومن هؤلاء فرق الخوارج ، والروافض ، والجهمية ، والمعتزلة ، والقدرية والمرجئة وهذا كالمعتزلة مثلا فانهم من أعظم الناس جدلا ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم ... ومثل كتاب أبى علي الجبائي والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني ، والجامع لعلم القرآن لعلي بن عيسى الرماني ، والكشاف لأبي القاسم الزمخشرى ، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذهب المعتزلة)[1] .

ولقد كانت المبالغة وجها من وجوه التوفيق بين ظاهر الآيات القرآنية ومذهبهم فالقاضي مثلا يقول :

(قالوا : ثم ذكر تعالى ... ما يدل على أنه خلق أعمال العباد فقال (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء)[2] .

وهذا وما تقدم مما لا ريب في عمومه ، فيجب دخول اكتساب العبد تحته . ويجيب عن ذلك بعدة أجوبة تخرج أفعال العبد من هذا العموم ومن بينها المبالغة الذى وجد فيها مخرجا يمكن أن يتعلق به لإثبات مذهبه من بين المخارج التي أوردها والتي نكتفي هنا بايراد بعضها : يقول " والجواب عن ذلك أنه ظاهر (وخلق) يقتضي أنه قدّر ، ودبر ولا يوجب في اللغة أنه فعل ذلك وأحدثه ولذلك قال الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

فأثبته خالقا من حيث قدر ودبر ، وإن لم يفر الأديم . ومتى حمل الكلام على هذا الوجه كان حقيقته ، أنه تعالى وإن لم يحدث أفعال العباد ، فقد قدرها ودبرها وبين أحوالها ، فهذا وجه . وقد قال بعض العلماء : إن هذه اللفظة في الإثبات ليس المقصد بها التعميم كما يقصد ذلك في النفي ، لأن القائل يقول : أكلت كل شيء ، وتحدثنا بكل شيء ، وفعلت كل شيء ، وقال تعالى : (تبيانا لكل شيء)[3] و (ما فرطنا في الكتاب من شيء)[4] وقال تعالى (تدمر كل شيء

---

(١) مقدمة في التفسير : ٨٢ (٢) سورة الأنعام : ١٠١ — ١٠٢
(٣) سورة النحل : ٨٩ (٤) سورة الأنعام : ٣٨

بأمر ربها)[١] ،(وقال (يجبى اليه ثمرات كل شيء)[٢] ، وإنما المقصد بذلك المبالغة في الكثير من ذلك النوع المذكور ، قال : ولا يعرف هذا الكلام في باب الإخبار عما يفعل الانسان عما يحدث مستعملا الا على هذا الوجه ، فلا يصح أن يدعي فيه العموم فهذا وجه ثان . ومما يقال في ذلك : وقوله تعالى (خالق كل شيء) على ما يصح أن يقدر عليه فيجب أن يبين أن أفعال العباد يصح ذلك فيها حتى يتضمنها العموم ، كما أن الدلالة العقلية إذا دلت على أنه تعالى يفعل أمورا فانما تدل بعد تقدم العلم بأن كان قادرا عليها ، وما ترتب على شرط غير مذكور تجب معرفته لا يمكن ادعاء العموم فيه .....)[٣] .

وقد سبق أن رأينا هذا الإشكال عند الرماني وقد وجد في المبالغة المخرج منه[٤] . ويجيب على من استدل بقوله تعالى " وهو القاهر فوق عباده "[٥] على أن المكان يجوز عليه سبحانه وتعالى لأن " فوق " انما تستعمل في اللغة بمعنى المكان اذا علا على مكان غيره قائلا (والجواب عن ذلك : أنه قد نبه في الكلام على ما أراد بقوله (وهو القاهر) ثم ذكر ما يقتضي بيان حاله في ذلك فقال (فوق عباده) وهذا كقوله (يد الله فوق أيديهم) ومتى قيل هذا القول في بعض الأوصاف فالمراد به المبالغة في تلك الصفة ، لأنا اذا قلنا : عالم (فوق غيره) فإنما يفهم منه المبالغة فيما قدمناه من الصفة ، يبين ذلك أنا إن حملنا الآية على ظاهرها وجب كونه في السماء فقط ، وينقض ما تقدم من استدلالهم على أنه في السموات والأرضين)[٦].

وقد تبعه في ذلك الحاكم الجشمي فقال عند قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده ، وهو القادر والغالب على كل شيء ـ فوق عباده ـ أى عال عليهم بالقهر والغلبة وهي مبالغة في صفة الله بالقدرة العالية .. لأن الجهات لا تجوز عليه ، لأنه ليس بجسم)[٧] .

ومع اعتراف القاضي بأن في قوله تعالى (قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) تقوية من الله تعالى على ذلك وان لا منتهى لحدود تلك القدرة في السرعة الا أن التصور البشرى المحدود والنظر العقلي لا يزالان به يقفان بعيدا عن حدود تلك القدرة الغيبية فيحكم عليها بالمبالغة يقول في ذلك

---

(١) سورة الأحقاف : ٥ (٢) سورة القصص : ٥٧
(٣) متشابه القرآن : ١/ ٢٥٢ (٤) النكت في اعجاز القرآن : ١٠٤
(٥) سورة الأنعام : ١٨ (٦) متشابه القرآن : ٢٣٧ ، ٢٣٨
(٧) تهذيب التفسير ورقة ٢٦ من المخطوط رقم ب ٢٧٦١٨ نقلا عن بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار : ٦٣٨

(كيف يصح نقل عرشها من ذلك الموضع البعيد في هذا القدر من الأوقات وأن ذلك معلومة استحالته ؟ وجوابنا أن سرعة الحركة والتحريك لا يعلم منتهى حده فلا سريع إلا ويجوز أسرع منه ، فلا يمتنع صحة ذلك إذا كان الله تعالى مقويا له عليه ـ ويعني قبل أن يرتد اليك طرفك المبالغة في الإسراع لأن ذلك قد يقال في الأمر السريع الشديد السرعة)(١) .

وقد جاراه الزمخشري في ذلك فقال (يجوز أن يكون هذا مثلا لاستقصار مدة المجيء به ، كما تقول لصاحبك : افعل كذا في لحظة . وفي ردة طرف وما أشبه ذلك ، تريد السرعة)(٢) . (فقد تطابقا في أن الآية جارية على غير حقيقتها ، إلا أن الزمخشري أطلق على مثل هذا الأسلوب ـ مثلا ـ والقاضي أطلق عليه ـ مبالغة ـ)(٣) .

٢ ـ أبو منصور الثعالبي

عبد الملك بن محمد بن اسماعيل المتوفي سنة ٤٢٩ أو ٤٣٠ هـ .

له مصنفات كثيرة في الأدب واللغة ، أشهرها يتيمة الدهر ، وخاص الخاص ، وفقه اللغة .

وسنبين الآن كيفية تناوله للمبالغة في المجالين اللغوى والأدبي .

ففي المجال الأدبي كان تناوله لها في يتيمة الدهر مثلا لا يختلف عن تناول السابقين لها . ولم يستخدم تفريقهم بين درجاتها بل نجده يمزج الإفراط بالمبالغة وبالإحالة فيذكر من معائب أبي الطيب المتنبي (الإفراط في المبالغة والخروج الى الإحالة) ويستشهد لذلك بعدة أقوال للمتنبي منها قوله :

ونالوا ما اشتهوا بالحزم هونا ... وصاد الوحش نملهم دبيبا

وقوله :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم ... إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

فبعده والي ذا اليوم لو ركضت ... بالخيل في لهوات الطفل ما سعلا

وقوله :

وأعجب منك كيف قدرت تنشا ... وقد أعطيت في المهد الكمالا

وأقسم لو صلحت يمين شيء ... لما صَلُح العبادُ له شِمالا

وقوله :

ولو قلم ألقيت في شق رأسه ... من السقم ما غيرتُ من خط كاتب

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن : ٣٠٣ (٢) الكشاف : ٣/٢٩٠

(٣) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار : ٦٩٣

وقوله :

من بعد ما كان ليلى لا صباح لـه كأن أول يوم الحشر آخـــره

ويعلق على ذلك بقوله :

(فهو مما يستهجن في صفة الشعر، على أن كثيرا من النقده لا يرتضون هذا الإفراط كله)(١)

وقد تناول في كتابه " فقه اللغة وسر العربية " نوع المبالغة الذى رأيناه عند قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكرى والذى تأتي فيه المبالغة عن طريق زيادة في المعنى بعد اتمام المعنى وقد عبر الثعالبي عن ذلك بـ" زيادة المعنى حسنا بزيادة لفظ " وقال : " هي من سنن العرب ، كما تقول :

زيد ليث ، إنما شبهته بليث في شجاعته ، فإذا قال : زيد كالليث الغضبان زاد المعنى حسنا ، وكسا الكلام رونقا ، كما قال الشاعر :

شددنا شدة الليث غدا والليث غضبان

.... ومن هذا المعنى قول الأعشى :

تروح على آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق

فشبه الجفنة بالجابية ، وهي الحوض ، وقيدها بذكر العراقي لأن العراقي اذا كان بالبرّ ولم يعرف مواضع الماء ، ومواقع الغيث ، فهو على جمع الماء الكثير أحرص من البدوى ، العارف بالمناقع والأحساء . وقال ابن الرومي :

من مدام كأنها دمعة المهجور يبكي وعينه مُرْهَاءُ

فشبهها بدمعة المهجور في الدقة ، وزاد في الدقة بأن وصف عينه بالمره وهو طول العهد بالكحل ، ليكون الدمع مع رقته أصفى وأسلم مما يشوبه ، وهذا من لطائف الشعراء "(٢) . ولم يعتبر الثعالبي ذلك مبالغة ولكن تصريحه بزيادة اللفظ يفيد أن المعنى قد تم بدون هذه اللفظة +

وأكثر الأمثلة التي ذكرها هنا تدخل أيضا في باب الايغال الذى ذكره أبو هلال والذى سيأتي ذكره أيضا عند ابن رشيق . وليت شعرى ما الذى دعا الثعالبي الى الحكم بزيادة مثل هذه الألفاظ وهو الذى رأيناه يشرح لنا مقاصد كل لفظة ويبين أثرها في المعنى !!!

ولكنها الحدود المفترضة للمعنى هي التي أوقعت النقد العربي في هذه الإشكالات ، فالثعالبي مثلا نراه بين تيارين :

---

(١) يتيمة الدهر : ١/١٦٤ (٢) فقه اللغة وسر العربية : ٣٨٠، ٣٨١

تيار الحدود المفترضة للمعنى وان ما زاد على ذلك فهو زيادة أو حشو ، وتيار الإبداع والجمال الذى يلح عليه في هذه الزيادة فيندفع الى شرحه وبيانه كما رأينا في هذا الفصل الذى سماه ب (فصل في زيادة المعنى حسنا بزيادة لفظ) وكما فعل في الفصل الآخر الذى قعد فيه إلى ما سماه بالحشو يصنفه ويرتبه الى مراتب تشده أكثرها الى الإعجاب بها وإطعامها المستمع مع حشو اللوزينج . فهو يقول :

(العرب تقيم حشو الكلام مقام الصلة والزيادة ، وتجريه في نظام الكلمة ، وهو على ثلاثة أضرب : ضرب منها ردى مذموم كقول الشاعر :

ذكرت أخي فعاودني ... صداع الرأس والوصب

فذكر الرأس ، وهو حشو مستغنى عنه ، لأن الصداع مختص بالرأس فلا معنى لذكره معه . . وأما الضرب الأوسط ، فكقول امرئ القيس (١) :

الا هل أتاها ، والحوادث جمة ... بأن امرئ القيس بن تملك بيقرا (٢)

فقوله " والحوادث جمة " حشو مستغنى عنه ، ولكن لا بأس به في موضعه ، وكقول النابغة :

لعمرى ، وما عمري عليّ بهيّن ... لقد نطقت بُطلا على الأقارع

فقوله : " وما عمرى عليّ بهيّن " حشو يتم الكلام بدونه ، ولكنه محمود لما فيه من تفخيم اللفظ ، وتأكيد المراد (٣) .

وأما الضرب الثالث ، فهو الحشو الحسن اللطيف ، كقول عوف بن محلّم :

إن الثمانين ، وَبلِّغتَها ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فقوله " وبلغتها " حشو مستغنى عنه في نظم الكلام ، ولكنه حسن في مكانه ، وأوقع في المعنى المقصود ، وكان ابن عباد يسمى هذا الحشو حشو اللوزينج ، لأن حشو اللوزينج خير من خبزته) (٣) . وكانت عباراته في وصف بقية أمثلة هذا الضرب من الحشو تنم عن اعجاب به شديد فهو إما أن يقول (٤) : (حشو ولكن ما لحسنة نهاية) أو (حشو ولكن ما لحسنه غاية) أو (حشو يربى على حشو اللوزينج) أو (حشو يجمع الحسن والطيب) أو (حشو يقطر منه ماء الظرف) أو (حشو يعجز الوصف عن حسنه وحلاوته) .

وأما في مجال الأساليب أو الألفاظ التي وجدت في اللغة للمبالغة فقد حدثنا الثعالبي عن المبالغة بزيادة الهاء (٥) التي سبق أن رأيناها عند ابن جنى ، وعبّر عن

---

(١) هو امرؤ القيس بن تملك أحد المسمين بامرئ القيس من العرب وليس هذا امرأ القيس بن حجر الكندى الشاعر المشهور .

(٢) يقال بيقر الرجل : اذا هاجر من أرض الي أرض ، أو إذا خرج إلى حيث لا يدرى أو إذا نزل الحضر وأقام هناك ، وترك قومه بالبادية وحضر بعضهم من العراق قال ابن منظور : وبيت امرئ القيس يحتمل هذا جميعا .

(٣) فقه اللغة وسر العربية : ٣٨٧، ٣٨٨ (٤) المصدر السابق : ٣٨٨، ٣٨٩

(٥) المصدر السابق : ٣٥٢

مبالغة بعض الأبنية التي ذكرها ابن جني كفعّل وتفعّل بـ (معنى التكثير)[١] ولكنه وقف بنا عند أسلوب لغوى يحمل المبالغة في فصل صغير حدثنا فيه عن اشتقاق نعت الشيء من اسمه عند المبالغة فيه فقال (ذلك من سنن العرب كقولهم : يوم أيوم ، وليل أليل ، وروض أريض ، وأسد أسيد ، وصلب صليب ، وصديق صدوق ، وظل ظليل ، وحرز حريز ، وكِنّ كنين ، وداء دوّ)[٢] .

---

(١) المصدر السابق : ٣٦٣ ، ٣٦٤

(٢) المصدر السابق : ٣٧٢

٣ ـ الشـــريف المرتضـــى

من علماء القرن الخامس الهجرى ، كان مخلصا للاعتزال ، ومتتبعا لبعض المسائل في الحديث الشريف، والقرآن الكريم ، يعلل ظاهرها بالمبالغة أو يأوله على تأويلات مختلفة . ومن ثمّ كان تناوله للمبالغة في أماليه عرضا يعمد اليه عند الحاجة الى التعليل كوجه من وجوه التأويل المختلفة التي يحاول بها أن يجد للآية القرآنية أو الحديث النبوى الشريف مفهوما عقليا خاليا من التشابه وموافقا للمعاني المنطقية التي سادت في دراسات البيئة الاسلامية بنشوء علم الكلام والجدل ويتضح ذلك في صنيع الشريف المرتضى في تأويل خبر (ما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحي فاصنع ما شئت) الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول (وفي هذا الخبر وجوه التأويل ثلاثة : أحدها أن يكون معناه : إذا عملت العمل لله جل وعز وأنت لا تستحي من الناظرين إليك ، ولا تتخوفهم أن ينسبوك فيه إلى الرياء صنعت ما شئت ، لأن فكرك فيهم ومراقبتك لهم ، يقطعانك عن استيفاء شروط عملك ويمنعانك من القيام بحدوده وحقوقه ، وإذا طرحت الفكر توفرت على استيفاء عملك .

والوجه الثاني : أن من لم يستحي من المعاير والمخازى والفضائح صنع ما شاء ، والظاهر ظاهر أمر ، والمعنى معنى تغليظ وإنكار مثل قوله تعالى (اعملوا ما شئتم)(١) ، وقوله عز وجل (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)(٢) وهذا نهاية التغليظ والزجر والإخبار عن كبر الذنب في اطراح الحياء ، ويجرى مجرى قولهم : بعد أن فعل فلان كذا فليفعل ما يشاء ، وبعد أن أقدم على كذا فليقدم على ما شاء والمعنى المبالغة في عظم ما ارتكبه ، وقبح ما اقترفه .

والوجه الثالث : أن يكون معنى الخبر إذا تفعل ما تستحي منه فافعل ما شئت فكأن معنى الخبر إذا تفعل قبيحا فافعل ما شئت ، لأنه لا قبيح من ضروب القبائح إلا والحياء يصاحبه ومن شأن فاعله إذا قرع به أن يستحي منه فمتى جانب الانسان ما يستحي منه من أفعاله فقد جانب سائر القبائح ، وما عدا القبيح من الأفعال فهو حسن)(٣) .

ويتضح مقدار شحذ الذهن في تصيد بعض هذه الأوجه إذ كان الوجهان الأول والثالث بعيدان كل البعد عن الأسلوب العربي بشهادة أن المرتضى قد استطاع أن يستشهد على الوجه الثاني بأسلوب القرآن الكريم الذى نزل بلسان عربي مبين ، ولم

---

(١) سورة فصلت : ٤٠ (٢) سورة الكهف : ٢٩
(٣) آمال المرتضى : ١/٧٥ ، ٧٦

يستطع أن يستشهد على الوجه الأول أو الثالث لا بالقرآن الكريم ولا بكلام العرب .

والمبالغة التي فسر بها المرتضى هذا الحديث النبوى الشريف ، تحمل دلالتها التي وجدت من أجلها في اللغة وهي الدلالة على التناهي في المعنى وبلوغ الغاية فيه كما أوضحنا ذلك سابقا . ولم يخرج بها الى مجاوزة الحقيقة والزيادة على المعنى كما فعل كثير من النقاد والمتأولين . وكما يفعل هو ذلك إذا وجد أن تلك الدلالة تخالف مذهبهم في التوحيد فمن ذلك تأويله لخبر (اذا أحب العبد لقائي أحببت لقاءه ، واذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإذا تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإذا تقرب إليّ ذراعا تقربت اليه باعا) حيث قال : فتأويله ظاهر ، وهو خارج على مذهب للعرب في مثل هذا الباب معروف ، ومعناه إن ذكرني في نفسه جازيته على ذكره لي ، وإذا تقرّب اليّ شبرا جازيته على تقرّبه اليّ ، وكذلك الخبر الى آخره ، فسمى المجازاة على الشيء باسمه اتساعا كما قال تعالى " وجزاء سيئة سيئة مثلها "(١) ، " ويمكرون ويمكر الله "(٢) ، " الله يستهزىء بهم "(٣) . وكما قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب ، ولما أراد تعالى المبالغة في وصف ما يفعله به من الثواب والمجازاة على تقربه بالكثرة والزيادة ، كنى عن ذلك بذكر المسافة المتضاعفة فقال (باعا ، ذراعا) اشارة إلى المعنى من أبلغ الوجوه وأحسنها)(٤) .

وقد وقف المرتضى عند قوله تعالى " ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق "(٥) . وقوله سبحانه في موضع آخر " وقتلهم الأنبياء بغير حق "(٦) وكان موضع التساؤل أن ظاهر هذا القول يقتضي أن قتلهم قد يكون بحق وجعل تحت مثل هذا التساؤل قوله تعالى " ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به "(٧) ، وقوله " الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها "(٨) ، وقوله " ولا تكونوا أولَ كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا "(٩) ، وقوله تعالى " ولا يسألون الناس إلحافا "(١٠) ، وأجاب عن ذلك بقوله (ان للعرب فيما جرى هذا المجرى من الكلام عادة معروفة ، ومذهبا مشهورا ، عند من تصفح كلامهم وفهم عنهم ، ومرادهم بذلك المبالغة في النفي وتأكيده ، فمن

---

(١) الشورى : ٤٠
(٢) سورة الأنفال : ٣٠
(٣) سورة البقرة : ١٥
(٤) آمالي المرتضى : ١ / ٣٢٧
(٥) سورة آل عمران : ٢١
(٦) سورة آل عمران : ١٨١ النساء ١٥٥
(٧) سورة المؤمنون : ١١٧
(٨) سورة الرعد : ٢
(٩) سورة البقرة : ٤١
(١٠) سورة البقرة : ٢٧٣

ذلك قولهم : فلان لا يرجى خيره ، ليس يريدون أن فيه خيرا لا يرجى وإنما غرضهم أنه لا خير عنده على وجه من الوجوه ومثله : قلما رأيت مثل هذا الرجل وإنما يريدون أن مثله لم يـر لا قليلا ولا كثيرا وقال أمرؤ القيس :

على لاحبٍ لا يُهتَدى بمنـارِه   إذا سافَهُ العَوْدُ الدِّيافيُّ جَرْجَرا

يصف طريقا ، وأراد بقوله " لا يهتدى بمناره ، أنه لا منار له فيهتدى بها (١)

وبذلك أدخل المرتضى تحت باب المبالغة هذا الأسلوب اللغوى الذى يرى في ظاهره استثناء من النفي الذى يحمله .

---

(١) أمالي المرتضى : ١/٢٢٨ وفيه : العود : المسن من الابل ، والديافي : منسوف الى دياف قرية بالشام معروفة ، وسافه شمّه ، والجرجرة : مثل الهدير .

٤ ـ ابن رشـــيق القـــيرواني

أما ابن رشيق القيرواني المتوفي سنة ٤٥٦ هـ . فقد كانت وقفته أمام المبالغة وقفة طويلة إذ وقف أمام آراء السابقين يعرضها ويفصّل حججها ، وأضاف الى طرق المبالغة طرقا جديدة لم يدخلها السابقون تحت بابها ، واجتمع لديه أكبر عدد عرف من مصطلحات المبالغة حتى تلك الفترة من القرن الخامس الهجرى اذ رأينا لديه : المبالغة ـ الغلو ـ الإغراق ـ التبليغ ـ الإفراط . بل لا نكون مجاوزين للحقيقة إذ قلنا إن مصطلحات المبالغة التي عرفت في البلاغة العربية لم تزد عن هذه المصطلحات.

وابن رشيق لم يعرّف المبالغة وإنما الذى يؤخذ من كلامه أنها درجة أقل من درجة الغلو ، وقد بين اختلاط الدرجتين عند البعض بقوله (فأما الغلو فهو الذى ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها ويقع فيه الاختلاف لا ما سواه)(١) ففي رأيه أن الذين أنكروا المبالغة إنما أنكروها لإدخالهم الغلو فيها ، بينما المبالغة كما يؤخذ من تعريفه لبعض أنواعها دون درجته اذ أورد منها نوعا سماه التقصى وحدّه بقوله (وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء كقول عمرو بن الإيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينـــا ونتبعه الكرامة حيث كانـــا

فتقصى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه)(٢) فالتقصي لا يخرج دلالة المبالغة عن التناهي في المعنى وبلوغ الغاية فيه . وكذلك كان مثال ترادف الصفات الذى أورده وهو قوله تعالى (أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض)(٣) غير خارج عن هذه الدرجة وإنما فيه (تهويل مع صحة لفظ لا تحيل معنى)(٤) . وأما الغلو فقد قرنه بالإغراق والإفراط فقال تحت باب الغلو (ومن أسمائه أيضا الإفراط والإغراق)(٥) وسبق أن أشرت الى سنة كثير من النقاد في ربط الإفراط بالغلو . وقد مرّ بنا أيضا اطلاق لفظ الإغراق عند عمر ابن أبي ربيعة على الاستقصاء في شعر الأحوص ، وربط الإفراط به عند ثعلب . ولم يزل الإغراق عند ابن رشيق مستعملا كما كان عند هؤلاء بمعناه اللغوى ، ولم يستقل بنوع من أنواع المبالغة ، أو درجة من درجاتها كما حدث عند المتأخرين . وان كان يظهر من جعله تسمية للغلو عند ابن رشيق بلوغه درجة في البعد عن الحقيقة غير درجة المبالغة .

---

(١) العمدة : ٢/٥٥ (٢) المصدر السابق : ٢/٥٥

(٣) سورة النور : ٤٠ (٤) العمدة : ٢/٥٥

(٥) المصدر السابق : ٢/٦٠

والغلو كما يرى ابن رشيق مخالف للحقيقة وخارج عن الواجب والمتعارف ، وعلل ذلك بأن الله سبحانه وتعالى قد قرن الغلو فيه بالخروج عن الحق (١) ، فقال جل من قائل (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق) (٢) .

وللغلو (الاغراق او الإفراط) عنده درجات ومراتب فهو يقول (ومن أبيات الغلو للقدماء قول مهلهل :

فلولا الريح أُسمع من بحجر — صليل البِيضِ تقرعُ بالذكور

وقد قيل : انه أكذب بيت قاله العرب ، وبين حجر ، وهي قصبة اليمامة — وبين مكان الوقعة عشرة أيام ، وهذا أشد غلوا من قول امرئ القيس في النار ، لأن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشد ادراكا .. ومنها قول النابغة في صفة السيف :

تقُدُّ السلوقيَّ المضاعفَ نَسْجَه — ويوقدن بالصُّفاح نار الحُبَاحِبِ

وهو دون بيت امرئ القيس في تنور صاحبته النار إفراطا ، ودون بيت النابغة قول النمر بن تولب في صفة السيف أيضا) (٣) . وقد وقف بنا ابن رشيق على المعاني اللغوية لكل من الغلو والإغراق ليوضح ارتباط ما قصده بالمعنى الاصطلاحي لكل منهما فالمعنى اللغوى فقال : (واشتقاق الغلو من المغالاة ، ومن غلوة السهم ، وهي مدى رميته ، يقال : غاليت فلانا مغالاة وغلاء ، اذا اختبرتما أيكما أبعد غلوة سهم ، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام : " جري المذكيات غلاء " وقد جاء في حديث داحس " غلاء " و " غلاب " بالباء أيضا ، وإذا قلت غلا السعر غلاء ، فانما تريد أنه ارتفع وزاد على ما كان ، وكذلك غلت القدر غليا أو غليانا ، إنما هو أن يجيش ماؤها ويرتفع ، والإغراق أيضا أصله في الرمي ، وذلك أن تجذب السهم في الوتر عند النزع حتى تستغرق جميعه بينك وبين حنية القوس ، وإنما تفعل ذلك لبعد الغرض الذى ترميه ، وهذه التسمية تدل على ما نحوت اليه وأشرت نحوه) (٤) .

ومن مصطلحات المبالغة الذى عرف عند المتأخرين وجاء عند ابن رشيق نقلا عن الحاتمي وأصحابه مصطلح التبليغ ، ولكنه لم يأخذ معناه الاصطلاحي وإنما بقي دالا على معناه اللغوى في بلوغ الغاية حيث يقول عن الإيغال (وهو ضرب من المبالغة ... إلا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها ، والحاتمي وأصحابه يسمونه التبليغ ، وهو تفعيل من بلوغ الغاية ، وذلك يشهد بصحة ما قلته ويدل على ما رتبته) (٥) .

---

(١) المصدر السابق : ٢ / ٦٠ ، ٦١ (٢) سورة المائدة : ٧٧

(٣) العمدة : ٢/ ٦٢ يقصد قول امرئ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها — بيثرب أدنى دارها نظر عال

وقول النمر في السيف:

تظل تحفر عنه ان ضربت به — بعد الذراعين والساقين والهادى

(٤) المصدر السابق : ٢ / ٦٥ (٥) المصدر السابق : ٢ / ٥٧

وبعد أن عرفنا مصطلحات المبالغة عنده ودلالتها يحسن الوقوف على الأنواع التي وصلت إليها المبالغة عنده، وما أدخله تحتها من أنواع، كما يظهر ذلك كتابه العمدة الذى تبرز فيه الأنواع التالية :

١ – التشبيه .

٢ – الاستعارة . وقد أشار الى ذلك بقوله (فأما الغلو فهو الذى ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها ، ويقع فيه الاختلاف لا ما سواه مما بينت ، ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه ، وعيبت الاستعارة الى كثير من محاسن الكلام)(١) .

وكانت المبالغة هي حجته في الرد على الرماني الذى عاب على بعض شعراء عصره قوله :

صُدْغُهُ ضِدُّ خَدِّه مثل ما الوعدُ – إذا ما اعتبرتَ ضِدُّ الوعيد

وقوله :

وله غُرَّةٌ كلَوْنِ وِصَالٍ فَوْقَها طُرَّةٌ كلَونِ صدود

بحجة أن التشبيه الحسن هو الذى يخرج الأغمض الى الأوضح فيفيد بيانا .

إذ قال (أما ما شرط في التشبيه فهو الحق الذى لا يدفع ، لا أنه قد حمل على الشاعر فيما أخذ عليه ، إذ كان قصد الشاعر أن يشبه ما يقوم في النفس دليله بأكثر مما هو عليه في الحقيقة ، كأنه أراد المبالغة)(٢)

وأما في الاستعارة فقد نقل قول أبي الفتح عثمان بن جنى في شرح بيت أبي الطيب المتنبي :

فتىً يملأُ الأفعالَ رأياً وحكمةً وبادرةً أحيانَ يرضى ويغضبُ

عندما قال (الاستعارة لا تكون إلا للمبالغة ، وإلا فهي حقيقة)(٣)

وعلق عليه بقوله : (كلام ابن جنى .. حسن في موضعه ، لأن الشيء إذا اعطى وصف نفسه لم يسم استعارة فإذا أعطي وصف غيره سمي استعارة ، إلا أنه لا يجب للشاعر أن يبعد الاستعارة جدا حتى ينافر ، ولا أن يقربها كثيرا حتى يحقق ، ولكن خير الأمور أوساطها)(٤)

٣ – أحد ضروب التتميم : الذى يقول عنه (وهو التمام أيضا ، وبعضهم يسمى ضربا منه احتراسا واحتياطا . ومعنى التتميم : أن يحاول الشاعر معنى ، فلا

---

(١) المصدر السابق : ٢/٥٥ (٢) المصدر السابق : ١/٢٨٧، ٢٨٨
(٣) المصدر السابق : ١/٢٧٠ (٤) المصدر السابق : ١/٢٧١

يدع شيئا يتم به حسنه الا أورده ، وأتى به : إما مبالغة ، وإما احتياطا واحتراسا من التقصير)(١) فهو هنا يصرح بأن بعض التتميم يأتي للمبالغة وأمثلة التتميم التي رأى فيها المبالغة هي قول زهير :

من يلق يوما على علاته هرما يلق السماحة منه والندى خلقا

حيث يقول " قولة على علاته . مبالغة وتتميم عجيب . وقوله سبحانه (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا)(٢) حيث جعله الأصل في هذا فقال (فقوله (على حبه) هو التتميم والمبالغة في قول من قال (إن الهاء ضمير الطعام)(٣) .

ومع أنه جعل أحد ضروب التتميم هنا للمبالغة الا أنه عاد بعد ذلك فأدخل التتميم كله تحت باب المبالغة فقال مبينا أن ليس كل مبالغة فيها بعد (ألا ترى أن التتميم إذا طلبت حقيقته كان ضربا من المبالغة ، وإن ظهر أنه من أنواع الحشو المستحسن)(٤) .

وقد ذكر التتميم قدامة بن جعفر(٥) ، وأبو هلال العسكري(٦) ، ولكنهما لم يدخلاه تحت باب المبالغة .

٤ — التقصي : وهو الذي يقول عنه : (فمن أحسن المبالغة وأغربها عند الحذاق التقصي ، وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء كقول عمرو ابن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث كانا

فتقصي بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه)(٧) .

٥ — ترادف الصفات : ويقول عنه : (ومن أغربها أيضا ترادف الصفات ، وفي ذلك تهويل مع صحة لفظ لا تحيل معنى ، كقول الله تعالى : " أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوق موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض(٨) "(٩) .

٦ — الايغال : يقول عنه : (وهو ضرب من المبالغة ... الا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها ، والحاتمي وأصحابه يسمونه التبليغ ، وهو تفعيل من بلوغ الغاية ، وذلك يشهد بصحة ما قلته ، ويدل على ما رتبته)(١٠) ثم تحدث عن ذكر

---

(١) المصدر السابق : ٢/٥٠	(٢) سورة الدهر : ٨٠
(٣) العمدة : ٢/٥١	(٤) المصدر السابق : ٢/٥٤
(٥) نقد الشعر : ١٤٤	(٦) الصناعتين : ٤٠٤
(٧) العمدة : ٢/٥٥	(٨) سورة النور : ٤٠
(٩) العمدة : ٢/٥٥	(١٠) العمدة : ٢/٥٧

الأصمعي له في رواية عن التوزى الذى قال : (قلت للأصمعي : من أشعر الناس ؟ قال الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيرا ، أو يأتي إلى المعنى الكبير فيجعله خسيسا ، أو ينقضى كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت : نحو من ؟ قال : نحو الأعشى إذ يقول :

كناطح صخرة يوما ليفلقها ... فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل

فقد تم المثل بقوله : وأوهى قرنه ، فلما احتاج الى القافية قال (الوعل) . قال : قلت : وكيف صار الوعل مفضلا على كل ما ينطح ؟ قال : لأنه ينحط من قمة الجبل فلا يضيره ، قال : قلت : ثم نحو من ؟ قال نحو ذى الرمة بقوله :

قف العيس في أطلال مية واسأل ... رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

فتم كلامه ، ثم احتاج الى القافية فقال (المسلسل) فزاد شيئا وقوله :

أظن الذى يجدى عليك سؤالها ... دموعا كتبديد الجمان المفصل

فتم كلامه ، ثم احتاج الى القافية فقال " المفصل " فزاد شيئا أيضا)[1]

ومع أن كلا من قدامة بن جعفر وأبا هلال قد ذكرا الإيغال المسلم يشيرا إلى أنه نوع من المبالغة ، وإن كان تعريفهما له يدخل تحت تعريف المبالغة الذي ذكره قدامة ونقله عنه أبو هلال كما ذكرنا ذلك سابقا ، وأبو هلال العسكرى لا يخص الإيغال بالقوافي كما هو الحال عند قدامة بن جعفر وابن رشيق وإنما ينقله إلى المقاطع في النثر ، ويدخله في التتميم[2] فيقول (ويدخل أكثر هذا الباب في التتميم ، وإنما يسمى إيغالا إذا وقع في الفواصل والمقاطع)[3] .

وقد وقف ابن رشيق عند المعنى اللغوى للإيغال ليربط ذلك بالمصطلح فقال : (واشتقاق الإيغال من الابعاد ، يقال : أوغل في الأرض ، إذا أبعد فيها حكاه ابن دريد ، وقال وكل داخل شيء دخول مستعجل فقد أوغل فيه وقال الأصمعي في شرح قول ذى الرمة :

كأن أصوات من إيغالهن بنا ... أواخر الميس أصوات الفراريج

الإيغال : سرعة الدخول في الشيء : يقال أوغل في الأمر إذا دخل فيه

---

(١) المصدر السابق : ٢/٥٧ وقد وردت القصة بهذا المعنى مع اختلاف في الترتيب في كل من نقد الشعر : ١٦٩ ، ١٧٠ والصناعتين : ٣٩٥

(٢) الصناعتين : ٣٩٥ وقارن بنقد الشعر ١٦٨ ، والعمدة ٢/٥٧

(٣) الصناعتين : ٣٩٦

بسرعة ، فعلى القول الأول كان الشاعر أبعد في المبالغة وذهب فيها كل الذهاب ، وعلى القول الثاني كأنه أسرع الدخول في المبالغة بمبادرته هذه القافية)[١] .

٧ – بعض أنواع الحشو : (وسماه قوم الاتكاء ، وذلك أن يكون في داخل البيت من الشعر لفظ لا يفيد معنى ، وانما أدخله الشاعر لإقامة الوزن ، فإن كان ذلك في القافية فهو استدعاء ، وقد يأتي في حشو البيت ما هو زيادة في حسنه وتقوية لمعناه)[٢] .

ولا زال ابن رشيق واقعا تحت التيارين اللذين كانا يتجاذبان المعنى في النقد العربي ، وهما تيار الحدود المفترضة للمعنى ، وتيار الإبداع الشخصي والرؤية النفسية للمعنى ، فكان ما يؤثر به التيار الثاني ينظر إليه في النقد العربي على أساس أنه زيادة على المعنى المفترض مسبقا ، ولكن إلحاح الإبداع وإضافة الرؤية النفسية المتميزة تظل تلح على النقاد حتى يعترفوا بها بطرق مختلفة ، كالمبالغة أو الاحتراس ، أو التتميم ، أو الإيغال وقد رأينا حنو الثعالبي على الحشو ، وجهده في بيان فوائده . . . ونراه الآن عند ابن رشيق الذى يشرح مقاصد التتميم ويعلل أكثر ما افترض فيه الحشو بالمبالغة وتقوية المعنى إذ نراه يقول (ومن مليح أناشيد التمثيل قول ابن مقبل :

انى أقيد بالمأثور راحلتي ولا أبالي وإن كنا على سفر

فقوله ، أفيد بالمأثور . تمثيل بديع ، والمأثور هو السيف الذى فيه أثر وهو الفرند وقوله : ولا أبالي ، حشو مليح ، أفاد مبالغة عجيبة)[٣] .

ويقول في قول ابن المعتز يصف رخيلا :

صببنا عليها ظالمين سياطنا وطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

(وهذا عند جميع الناس من باب الحشو ، وهو عندى مبالغة . وكذلك الإيغال)[٤] .

وليس أدل على حنوه على هذه اللفظة التي حكمت عليها محكمة النقد العربي بالحشو – كما يظهر من قوله السابق – من عودته اليها مرة أخرى وقوله فيها (فقوله (ظالمين) حشو أقام به الوزن وبالغ في المعنى أشد مبالغة من جهته ، حتى علمنا ضرورة آن إتيانه بهذه اللفظة التي هي حشو في ظاهر الأمر أفضل من تركها ، وهذا شبيه بالتتميم)[٥] ومهما كان من دفاع ابن رشيق

---

(١) العمدة : ٢/٦٠ (٢) المصدر السابق : ٢/٦٩
(٣) المصدر السابق : ١/٢٧٩ (٤) المصدر السابق : ٢/٥٤
(٥) المصدر السابق : ٢/٦٩

عن بعض ما حكم عليه بالحشو ، فانه لم يستطع أن يفلت من سيطرة تيار الحدود المفترضه للمعنى ، فوقف عند بعض الأبيات ، وطرد بعض ألفاظها منهـــا بجناية الحشو .

وتجلت ظاهرة تجاذب التيارين في استثنائه إرادةَ الشاعر في الحكم بالحشو على بعض الألفاظ مع أن الأولى به وبالنقد العربي النظر الى هـــذه الارادة ، واستنتاجها من داخل العمل الأدبي ، وعدم الحكم على العمـــل الأدبي عند غيابها . فمما يدل على هذه الظاهرة قوله في قـول أبي الطيب المتنبي :

إذا اعتل سيف الدولة ، اعتلت الأرض ومن فوقها ، والبأس والكرم المحـض

(فقوله " والبأس " حشو ، لأن قوله " ومن فوقها " دال على الإنـس والجن جميعا ، والبأس والكرم جميعا ، اللهم إلا أن يحمله على تأويلهم فـي قول الله تعالى " فيهما فاكهة ونخل ورمان "(١) . فأعاد ذكرها وهما مـــن الفاكهة لفضلهما ، وقوله تعالى : " من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال "(٢) فإن هذا سائغ وليس بحشو حينئذ)(٣) .

وقوله في قول الكلحبة اليربوعي :

إذا المرء لم يغش الكريهة أوشكت حبالُ الهوينا بالفتى أن تقطّعـا

(فقوله " بالفتى " حشو وكان الواجب أن يقول " به " لأن ذكر المـرء قد تقدم ، إلا أن يريد في قوله بالفتى الذراية ، والأطنوزة(٤) فانه يحتمل)(٥) .

٨ – نفي الشيء بإيجابـــه :

يقول عنه ابن رشيق (وهذا الباب من المبالغة ، وليس بها مختصـــا الا أنه من محاسن الكلام فإذا تأملته وجدت باطنه نقيا وظاهره إيجابا . قـال امرؤ القيس :

على لا حب لا يهتـدى بمنـاره إذا سـافهُ العَوْدُ النباطِيُّ جَرْجَرا

فقوله " لا يهتدى بمناره " لم يرد أن له منارا لا يهتدى به ، ولكـــن أراد أنه لا منار له فيهتدى بذلك المنار .

---

(١) سورة الرحمن : ٦٨ (٢) سورة البقرة : ٩٨

(٣) العمدة : ٢ / ٧٠

(٤) الأطنوزة من الطنز وهو السخرية وباب فعله نصر قال صاحب المختار " وأظنـــه مولدا أو معربا) ١ . هـ

(٥) العمدة : ٢ / ٧٠

وكذلك قول زهير :

بأرض خلاء لا يُسَدُّ وَصيدُها   عليَّ ، ومعروفي بها غيرُ منكَرِ

فأثبت لها في اللفظ وصيدا ، وإنما أراد ليس لها وصيدٌ فيسد عليّ)(١)

ثم أورد عدة أمثلة أخرى على ذلك قال بعدها (والشاهد على جميع ما قلته في شرح هذه الأشياء ، ما جاء في تفسير قول الله عز وجل : "لا يسألون الناس إلحافا "(٢) . قالوا : ليس يقع منهم سؤال فيقع إلحافا . أى هم لا يسألون البتة)(٣) .

وسبق أن رأينا أن الشريف المرتضى يفسر مسائل من هذا الأسلوب بالمبالغة .

---

(١) المصدر السابق : ٢/٨٠، ٨١   (٢) سورة البقرة : ٢٧٣
(٣) العمدة : ٢/٨١ ، ٨٢

٦ ـ ابن سنان الخفاجي

من أدباء هذا القرن وشعرائه الذين توفروا على التأليف في البلاغة وتحديد بعض مصطلحاتها مع تمييز المقبول من المرذول في بعض الأنواع البلاغية التي تناولها كالاستعارة والتشبيه ، والحشو ، والجناس ، والتكرار ، والمبالغة .

والذى يهمنا الآن استخدامه لمصطلحات المبالغة وتفريقه بين درجاتها وما أدخله فيها من أنواع .

فأما استخدامه لمصطلحات المبالغة فقد استخدم ثلاثة مصطلحات منها كانت هي الأكثر دورانا في التأليف وهي : المبالغة ـ الغلو ـ الإفراط . وإذا كنا قد رأينا فيما سبق تفريقا بين الغلو والمبالغة فإن هذا الفرق يكاد يلغى عند ابن سنان الخفاجي إلى درجة تحس معها بترادفهما وتناوبهما في كلامه كما يظهر ذلك من قوله " وأما المبالغة في المعنى والغلو فان الناس مختلفون في حمد الغلو وذمه ، فمنهم من يختاره ويقول : أحسن الشعر أكذبه ، .... ومنهم من يكره الغلو والمبالغة التي تخرج إلى الإحالة ، ويختار ما قارب الحقيقة ودانى الصحة ، ويعيب قول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التي لم تخلق

لما في ذلك من الغلو والافراط الخارج عن الحقيقة ، والذى أذهب اليه المذهب الأول في حمد المبالغة والغلو .... وأما المبالغة بغير كاد ـ فكقول أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان :

ونبّالة من بحتر لو تعمدوا ... بليل أناسي النواظر لم يُخطئوا

وكقول النمر يصف السيف :

تظلّ تحفرّ عنه إن ضربت به ... بعد الذراعين والساقين والهادى

وكقول النابغة :

تقدّ السلوقيّ المضاعف نسجه ... ويوقدن بالصُّفّاح نار الحباحب

وقول ابن هانئ الأندلسي :

أمديرها من حيث دار لشدّ ما ... زاحمت تحت ركابه جبريلا " (١)

ومع هذا الترادف وإطلاق اسم المبالغة على أبيات وسمت بالغلو عند السابقين (٢) فإنه يلمح من قوله (وأما استعمال الغلو الخارج الى الإحالة في النثر فقليل ، وأكثر

---

(١) سر الفصاحة : ٢٦٣ ، ٢٦٤

(٢) مثل بيت النمر الذى رأيناه في كل من نقد الشعر : ٩٢ والصناعتين

ما يستعمل فيه المبالغة التي تقارب الحقيقة)[1] . أن عنده احساسا بالفرق بين درجتيهما مما يجعل الجزم بترادفهما تماما لديه أمرا غير ممكن[2] .

وأنواع المبالغة عنده هي :

١ — الاستعارة :

لم يصرح ابن سنان بأن هدف الاستعارة المبالغة . ولكن نقله عن الرماني لبعض الاستعارات التي صرّح فيها الرماني بالمبالغة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك يبين سيره على السنن نفسه الذى يرفع من شأن الاستعارة بالمبالغة . وتصريحه بأن الاستعارة على ضربين : (قريب مختار ، وبعيد مطرح)[3] يبين أن الاستعارة على درجات في المبالغة عن الحقيقة ويوضح ذلك قوله (فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى وشبه واضح ، والبعيد المطرح إما أن يكون لبعده مما استعير له في الأصل ، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك ، والقسمان مما يشملهما وصفي بالبعد . لكن هذا التفصيل يوضح)[4] والذى يؤكد وسم هذا البعد بالمبالغة أيضا قوله في رده على القاضي الجرجاني (وأما قوله — يعني القاضي — : (ان أبا الطيب يريد أن مباشرة مفرقها شرف ، ومجاورته زين ومفخرة ، وأن التحاسد يقع فيه والحسرة تعظم عليه ، فلو كان الطيب ذا قلب لسر ، كما لو كانت البيض ذوات قلوب لأسفت " فلم يزد على أن فسر مراد أبي الطيب بقوله إن الطيب يسر بمفرق هذه المرأة والبيض تتحسر ، والمعنى ظاهر فيه الاخفاء به ، وقوله — يعني القاضي — "إن مراده لو كان الطيب ذا قلب لسر " ليس بعذر في قوله (قلوب الطيب) لأن بين قوله " لو كان للطيب قلب " وبين قوله " للطيب قلب " فرقا ظاهرا لا يخفى على أحد ، لأن أحدهما قد جعله واجبا والآخر ممتنعا ليس فيه أكثر من الفرض الذى يعلم من فحوى اللفظ أنه لم يقع ، وليس يخفى على متأمل أن بين قول البحترى

فلو أن مشتاقا تكلف عندما ... في طبعه لمشى إليه المنبر

وبينه لو كان قال "إن المنبر مشى اليك " ميزة بينة ظاهرة ، وهذا الأمر لا يستمر في مثله شبهة ، فيحتاج الى الإسهاب في ايضاحه)[5] .

وهذه النظرة يتحكم فيها الواقع الخارجي وما يصح أن يقع فيه وما لا يصح

---

(١) سر الفصاحة : ٢٦٣ ، ٢٦٤

(٢) ممن قال بترادفهما لديه الدكتور محمد ابراهيم موسى في كتابه : الصبغ البديعي في اللغة العربية : ٢١٦ (٣) سر الفصاحة : ١١٠

(٤) المصدر السابق : ١١٠

(٥) سر الفصاحة : ١٢١ ، ١٢٢ وهذه المناقشة حول قول أبي الطيب :

مسرة في قلوب الطيب مفرقها ... وحسرة في قلوب البيض والبلب

أن يقع دون نظر الى عبقرية الشاعر في الخلق الأدبي عن طريق اللغة . وقد ارتضى ابن سنان أبيات جاءت فيها استعارة كهذه حمد لصاحبها التصرفة باللغة الذى لم يرتضه في هذه الأبيات وذلك في قوله " وللسرى الموصلي أبيات مرضية في معناها وهي :

أقول لحنّان العشي المغردِ   يهز صفيح البارق المتوقدِ
تبسم عن ري البلادِ حبيّه   ولم يتبسم إلا لإنجاز موعدِ

ثم بعدها أبيات :

ويا ديرها الشرقي لا زال رائحٌ   يحلّ عقود المزن فيك فيغتدى
عليلةَ أنفاس الرياح كأنما   يُقلّ بماء الورد نرجسها الندى
وشقَّ جيوبَ الورد في شجراته   نسيم متى ينظر الى الماء يبرُدِ

وفي هذه الأبيات استعارات عدة كل منها مختار : أما حنان العشي المغرد — فمعروف ، والعادية جارية باستعارة الحنين والتغريد للغيث ، لأن له صوتا على كل حال ، وكذلك صفيح البارق — وأشبه شيء بالبرق لمع السيوف ، والتبسم فيه أيضا ظاهر لضوء برقه في خلاله ، وعقود المزن لائقة ... وأنفاس الرياح تكاد تكون حقيقة لوضوحه ، واستعمال العلة فيها كناية عن الضعف والخفوت وقلة الحركة على وجه التشبيه بالمريض ، وجيوب الورد مختار ، لأن النسيم اذا أظهره من أكمامه ونشره عن طيه بعد ذلك كان بمنزلة الجيوب التي تشق ، وعبارته عن سرعة برد الماء بالنسيم انه متى نظر اليه برد مرضيه ، لأن النظر ليس هو الرؤية وانما هو ضرب من المقابلة والمواجهة تقع الرؤية بعده ، ومثل هذا في النسيم موجود ولائق غير بعيد) (١) .

٢ — التشبيه :

لقد جعل ابن سنان هدف التشبيه منحصرا في غرضين هما : ايضاح المعنى وبيان المراد والغلو والمبالغة حيث يقول (والأصل في حسن التشبيه أن يمثل الغائب الخفي الذى لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد ، فيكون حسن هذا الأجل ايضاح المعنى وبيان المراد ، أو يمثل الشيء بما هو أعظم وأحسن وأبلغ منه ، فيكون حسن ذلك لأجل الغلو والمبالغة) (٢) وقد مثل للغرض الأول بعدة آيات منها قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه

---

(١) سر الفصاحة : ١٢٦   (٢) المصدر السابق : ٢٣٧

الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا) (١) وقوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء) (٢) وقوله تعالى (فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) (٣) وقوله تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) (٤) ومثل للغرض الثاني بقوله تعالى (وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) (٥) (فإنه شبه الشيء بما هو أعظم منه على وجه المبالغة) (٦) .

وقال عن قول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

(وهذا التشبيه يجمع المقصود بين من الظهور والمبالغة ، أما الظهور فلأن علم الناس بأن الليل لا بد من إدراكه له أظهر من علمهم بأن النعمان لا بد من إدراكه له ، وأما المبالغة فان تشبيهه بالليل الذى لا يصد دونه حائل أعظم وأفخم وأبلغ في المدح) (٧) وعلى الغرضين وجه التشبيه في قوله تعالى (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) (٨) حيث يقول (فإن قيل : قد مضى في كلامكم أن المشبه به يجب أن يكون معروفا واضحا أبين من الشيء الذى يشبه ، فما تقولون في قوله تعالى في شجرة الزقوم (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين) ورؤوس الشياطين غير مشاهدة قيل إن الزقوم غير مشاهد ورؤوس الشياطين غير مشاهدة إلا أنه قد استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد ، كما استقر في نفوسهم من حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد ، حتى إنهم إذا شبهوا وجها بوجه الحور كان تشبيها صحيحا ، وإن كانت الحور لم تشاهد ولم يستقر في نفوسهم قبح طلع الزقوم كما استقر في نفوسهم قبح رؤوس الشياطين فكأن المشبه به أوضح . وفي رؤوس الشياطين أيضا من المبالغة في القبح ما ليس في طلع الزقوم . وقد قيل في بعض التفاسير : إن الشياطين هنا الحيات وعلى هذا القول يسقط السؤال لأن الحيات مشاهدة) (٩) .

---

(١) سورة النور : ٣٩
(٢) سورة ابراهيم : ١٨
(٣) سورة الرحمن : ٣٧
(٤) سورة العنكبوت : ٤١
(٥) سورة الرحمن : ٢٤
(٦) سر الفصاحة : ٢٣٨
(٧) المصدر السابق : ٢٣٨
(٨) سورة الصافات : ٦٤ ، ٦٥
(٩) سر الفصاحة : ٢٤٦

٣ ـ الكنايـــــة :

ويسميها بالإرداف كما سماها بذلك أبو هلال ويسميها أيضا بالتتبيع حيث يقول (ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تراد الدلالة على المعنى ، فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له في اللغة ، بل يؤتى بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع ، وهذا يسمى الإرداف والتتبيع لأنه يؤتى فيه بلفظ هو ردف اللفظ المخصوص بذلك المعنى وتابعه ، والأصل في حسن هذا انه يقع فيه من المبالغة في الوصف ما لا يكون في نفس اللفظ المخصوص بذلك المعنى ، ومثاله قول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط ، إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

فإنه إنما أراد أن يصف هذه المرأة بطول العنق ، فلو عبر عن ذلك باللفظ الموضوع له لقال ـ طويلة العنق ـ فعدل عن ذلك وأتى بلفظ يدل عليه وليس هو الموضوع له ، فقال : بعيدة مهوى القرط ـ فدل ببعد مهوى قرطها على طول الجيد ، وكان في ذلك من المبالغة ما ليس في قوله ـ طويلة العنق ـ لأن بعد مهوى القرط يدل على طول أكثر من الطول الذى يدل عليه ـ طويلة العنق ـ لأن كل بعيدة مهوى القرط طويلة العنق ، وليس كل طويلة العنق بعيدة مهوى القرط ، إذا كان الطول في عنقها يسيرا وهذا موضع يجب فهمه)[1] .

وقد شرح بعد ذلك المبالغة في كنايتي امرئ القيس (نؤوم الضحى) و (قيد الأوابد) في قوله :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

وقوله :

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

ثم قال (وأصحاب صناعة البلاغة يذكرون الإرداف ، ولا يشرحون العلة في سببه وحسنه من المبالغة التي نبهنا عليها)[2] وقد كان على حق في ذلك فهو أول من أدخل هذا الأسلوب تحت باب المبالغة .

٤ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم :

يقول ابن سنان (ومن المبالغة قول النابغة الذبياني :

---

(١) المصدر السابق : ٢٢١ (٢) المصدر السابق : ٢٢٢

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وإنما كان هذا الاستثناء من المبالغة في المدح ، لأنه قد دل به على أنه لو كان فيهم عيب غيره لذكره ، وأنه لم يقصد إلا وصفهم بما فيهم على الحقيقة .

ومنه أيضا قول أبي هفان :

ولا عيب فينا غير أن سماحنا أضر بنا واليأس من كل جانب

فأفنى الردى أعمارنا غير ظالم وأفنى الندى أموالنا غير عائب

أبونا أب لو كان للناس كلهم أبا واحدا أغناهم بالمناقب (١)

وقد ذكر هذا الأسلوب ابن رشيق وسماه الاستثناء وأشار الى تسميته عند ابن المعتز فقال (وابن المعتز يسميه توكيد المدح بما يشبه الذم ، وذلك نحو قول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فجعل فلول السيف عيبا وهو أوكد في المدح .

وقال النابغة الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

فاستثنى جوده الذي يستأصل ماله ، بعد أن وصفه بالكمال ، وبهذا الاستثناء ثم وزاد كمالا وتأكد حسنه) (٢) .

٥ ـ صورة الوهم :

وقد جعل ابن سنان من المبالغة الممتنع (الذي يمكن تصوره في الوهم ولا يمكن وجوده) وكانت إمكانية التصور في الوهم هي الفرق بين المستحيل والممتنع ـ اذ أن المستحيل (هو الذي لا يمكن وجوده ولا تصوره في الوهم) بينما الممتنع يمكن أن يتصور (مثل أن يتصور تركيب اعضاء الحيوان من نوع في نوع آخر منه ، كما يتصور يد أسد في جسم إنسان ، فإن هذا وإن كان لا يمكن وجوده فان تصوره في الوهم ممكن) ثم قال : (وقد يصح أن يقع الممتنع في النظم والنثر على وجه المبالغة ، ولا يجوز أن يقع المستحيل ألبتة فأما قول أبي عبادة :

لما مدحتك وافاني بذاك على أضعاف ظني فلم أظفر ولم أخب

فليس هذا من المتناقض . . . ألا ترى أن معناه لم أظفر بنفس ما ظننته

---

(١) المصدر السابق : ٢٦٥ (٢) العمدة : ٤٨

لأنك زدت عليه ، لكأن ظني لم يصدق ، لأنه لو صدق لكان وقع على ما ظننته بعينه من غير زيادة عليه ، ولم أخب لأنك قد أعطيتني ، ومن أعطى فما خاب ، وهذا صحيح واضح)[1] .

وقد ذكر ابن سنان كلا من الإيغال والحشو ولكنه لم يدخلها تحت با المبالغة .

---

(١) سر الفصاحة : ٢٣٥

٦- عبد القاهر الجرجاني

كثر حديث الإمام عبد القاهر عن المبالغة ، وبعدها أو قربها من الحقيقة ، وتحديد مكان المبالغة في كثير من الأنواع التي أدخلها تحت المبالغة ، وسننظر الآن في أسماء المبالغة عنده ؟ وهل تتخذ تسمياتها فوارق بين درجاتها ، ثم نتناول بعد ذلك الأنواع التي أدخلها في المبالغة .

فأما أسماؤها عنده فهي المبالغة والإغراق والإفراط وتجد هذه الأسماء مترادفة عنده وينوب بعضها عن بعض وذلك إذا نظرنا الى قوله تعليقا على بيت أبي الطيب المتنبي :

دون التعانق ناحلين كشكلتي ... نَصْبٍ أدَقَّهما وَضَمَّ الشاكلِ (١)

" وأما المتنبي فأراك الشيئين في مكان واحد وشدد في الفرق بينهما ، وذاك أنه لم يعرض لهيئة العناق ، ومخالفتها صورة الافتراق ، وإنما عمد الى المبالغة في فرط النحول واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقا " (٢) مع قوله أيضا حول ذلك البيت " ولئن كان المتنبي قد زاد على الأول فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين ، ولكن من جهة أخرى ، وهي الإغراق في الوصف بالنحول ..) (٣) حيث نجده أناب الإغراق مناب ما وسمه بالإفراط والمبالغة . أو قوله " ... وقولهم إذا أفرطوا : نور الصباح يخفى في ضوء وجهه ، أو نور الشمس مسروق من جبينه ، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة " (٤)

وقد يذكرها مقترنة من ذلك قوله " فهذا ليس من جنس ما مضى – أعني ما أصله التشبيه ثم أريد التناهي في المبالغة والإغراق والإغراب ... " (٥) .

ولكن هل يعني هذا الترادف والاقتران عدم وجود فوارق بين درجاتها لديه ؟! لقد كان عبد القاهر يصدر عن هذه الفوارق والدرجات بين أنواع المبالغة التي وضعت من خلال المنظور الى الواقع الخارجي ... فهو يقول (واعلم أن المعنى في المبالغة – وتفسيرنا بقولنا جعل هذا ذاك ، وجعله الأسد ، وادعى أنه الأسد حقيقة – أن المشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر الى الوصف الذى يجمع بين الشيئين ، وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة . فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه ، وألقى ما عداها فلم ينظر إليه ، فإن هو قال : زيد كالأسد كان قد أثبت

---

(١) الشكله : أراد الشلكلة التي تكون في الاعراب . وضم الشاكل : الكاتب يريد بالضم ولم يرد الضم الذى في الاعراب (التبيان : ٣/٢٥٣)

(٢) أسرار البلاغة : ٢/٥٥ (٣) المصدر السابق : ٢/٥٦

(٤) المصدر السابق : ٢/٧٥ (٥) المصدر السابق : ٢/١٣٩

له خطأ ظاهرا في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذا قال : هو الأسد ، تناهى في الدعوى إما قريبا من المحق لفرط بسالة الرجل ، وإما متجوزا في القول فجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئا ...)[1] .

ولعل إيراده هذه المصطلحات مقترنة ومترادفة مع هذه المعرفة بدرجات القول قربا أو بعدا عن الحقيقة يدلنا على أن الفوارق بين درجاتها لا تعنيه بقدر ما يعنيه المعنى الدال عليه عموم المبالغة عنده وعند السابقين من ارتفاع بالحقيقة الى درجة لا تكاد تبلغها ويستوى لديه إن كان ذلك اغراقا أو مبالغة .

لكن الذى لا يستوى لديه هو بعض أنواع المبالغة وبعض أنواع التخييل فإن كان التخييل لديه جنسا تدخل تحته بعض أنواع المبالغة ، فإن هناك أنواعا منه غير مرضية وينظر إليها عبد القاهر نظرة شك وارتياب ولإيضاح ذلك نقول : إن التخييل عند عبد القاهر يتأرجح بين معان عدة وليس أدل على ذلك من قوله " والذى أريده بالتخييل ههنا: ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها مالا ترى ... "[2] .

فكلمة ههنا تشير الى أن مقصوده بالتخييل ههنا يختلف عن مقصوده به في مواضع أخرى ، فهو يجعل التخييل هنا قرين الكذب والخداع ، والدعوى التي لا تصح إ وما كان ذلك إلا لأنه يحكم الواقع الخارجي والمنطق العقلي في الشعر . ومن هنا سارع الى اخراج الاستعارة من هذه النظرة المريبة وذلك لكثرتها في التنزيل (واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل لأن المستعير لا يقصد الى إثبات معنى اللفظية المستعارة ، وإنما يعمد الى إثبات شبه هناك ، فلا يكون مخبره على خلاف خبره وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن وهي كثيرة في التنزيل على مالا يخفى : كقوله عز وجل " واشتعل الرأس شيبا "[3] ، ثم لا شبهة في أن ليس المعنى على الاشتعال ظاهرا وإنما المراد اثبات شبهه)[4] .

وكان وسيلة اخراجه من ذلك هو إيجاد العلاقة بين ما يظهر في الكلام من مخالفة لحكم العقل والواقع ، وبين الأصل المفترض للكلام فهو يقول " أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف في أنك إذا رجعت الى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمرا عقليا صحيحا ويدعى دعوى لها شبح في العقل ...)[5] . وهذا المحذوف هو إثبات الشبه[6] ، وعلى هذا كان الأمر هينا في اخراج المجاز والاستعارة من تهمة الكذب

---

(١) المصدر السابق : ٢ / ١٠٥
(٢) المصدر السابق : ٢ / ١٣٦
(٣) سورة مريم : ٤
(٤) اسرار البلاغة : ٢ / ١٣٥
(٥) المصدر السابق : ٢ / ١٣٦
(٦) المصدر السابق : ٢ / ١٣٥

والبعد عن الحقيقة وخداع العقل لوجود التقدير والعلاقة بين هذه الصور والأصل المفترض للكلام ... ولكن هناك أنواعا أخرى من الكلام لا توجد فيها هذه العلاقات نرى الإمام يعتبرها بعض الأحيان كذبا وتزويقا وخداعا للعقل (وستمر بك ضروب من التخييل هي أظهر أمرا في البعد عن الحقيقة تكشف عن وجهه في أنه خداع للعقل وضرب من التزويق ، فتزداد استبانة الغرض بهذا الفصل ، وأزيدك حينئذ ان شاء الله كلاما في الفرق بين ما يدخل في حيز قولهم : خير الشعر أكذبه وبين مالا يدخل فيه مما يشاركه مما كان كلاما فيه اتساع وتجوز فاعرفه)(١) .

وقد قسم الامام التخييل الى ضروب عدة :

١ — فمنه ما يجيء مصنوعا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق حتى أعطى شبها من الحق وغشي رونقا من الصدق باحتجاج بخيل وقياس يصنع فيه ويعمل ومثاله قول أبي تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالي (٢)

٢ — وأقوى من هذا في أن يظهر حقا وصدقا وهو على التخيل قوله :

الشيب كره وكره أن يفارقني ... أعجب بشيء على البغضاء مودود

هو من حيث الظاهر صدق وحقيقة لأن الإنسان لا يعجبه أن يدركه الشيب فاذا هو أدركه كره أن يفارقه فتراه لذلك ينكره ويكرهه ، على أن إرادته أن يدوم له إلا أنك إذا رجعت الى التحقيق كانت الكراهة والبغضاء لا حقة بالشيب على الحقيقة ، فأما كونه مرادا ومودودا فمتخيل فيه وليس بالحق والصدق بل المودود الحياة والبقاء ، الا أنه لما كانت العادة جارية بأن زوال رؤية الانسان للشيب زواله عن الدنيا وخروجه منها وكان العيش فيها محببا الى النفوس صارت محبته لما لا يبقى له حتى الشيب كأنها محبة للشيب)(٣) .

٣ — ومن ذلك صنيعهم اذا أرادوا تفضيل شيء أو نقصه أو مدحه أو ذمه فتعلقوا ببعض ما يشاركه في أوصاف ليست هي سبب الفضيلة والنقيصة وظواهر أمور لا تصحح ما قصدوه من التهجين والتزيين كما تراه في باب الشيب والشباب كقول البحترى :

وبياض البازي أصدق حسنا ... ان تأملت من سواد الغراب (٤)

٤ — وهذا نوع آخر وهو دعواهم في الوصف هو خلقة في الشيء وطبيعة أو واجب على الجملة ، من حيث هو — أن ذلك الوصف حصل له من الممدوح ومنه

---

(١) المصدر السابق : ٢/١٣٦ وكان الكلام في الأصل ... وبين ما يدخل ما — يشاركه في أكلا ما اتساع وتجوز فلعرفه .

(٢) المصدر السابق ٢/١٢٩

(٣) المصدر السابق : ٢/١٢٩ (٤) المصدر السابق : ٢/١٢٩، ١٣٠

استفادة ، وأصل هذا التشبيه ، ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد ...(١) ، وجعل منه قول ابن بابك :

ألا يا رياضَ الحَزْنِ من أبرقِ الحمى نسيمُك مسروق ووصفك منتحَل
حكيت أبا سعد فنشرُك نشرُه ولكن له صدق الهوى ولك المَلَل

٥ — ونوع آخر : وهو أن يدعى في الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع الى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور .

فمن الغريب في ذلك معنى بيت فارسي ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى أعني ما أصله التشبيه ثم أريد التناهي في المبالغة والإغراق والإغراب .(٢)

ويدخل في هذا الفن قول المتنبي :

لم يحك نائلَك السحابُ وإنما حمت به فصبيبها الرحضاء(٣)

وجعل من لطيف هذا الجنس قول الصولي :

الريح تحسدني عليك ولم أخلها في العدا
لما هممت بقبلة ردت على الوجه الرد(٤)

٦ — وجعل من الطريقة السابقة مع وجه اختلاف قول الشاعر :

وحاربت فيه ريب الزمان كأن الزمان له عاشق

وأوضح خلافه للنوع الأول بقوله " إلا أنه لم يضع علة ومعلولا من طريق النص بل أثبت محاربة الزمان في معنى الحبيب ثم جعل دليلا على جواز أن يكون شريكا في عشقه "(٥) . ويضيف مبينا الفرق بينهما (فان من حكم المحصل ألا ينظر في تلاقي المعاني وتناظرها الى جمل من الأمور والى الاطلاق والعموم ، بل ينبغي أن يدقق النظر في ذلك ويراعى التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل فأنت في نحو بيت ابن وهيب — وحاربني الخ — تدعى صفة غير ثابتة إذا هي ثبتت اقتضت مثل العلة التي ذكرها . وفي نحو بيت الريح تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ، ثم تدعى لها علة من عند نفسك وضعا واختراعا)(٦) .

٧ — ونوع آخر في التعليل " وهو أن يكون للمعنى من المعاني ، والفعل من

---

(١) المصدر السابق : ١٣٨/١ (٢) المصدر السابق : ١٣٨/٢ ، ١٣٩
(٣) المصدر السابق : ١٣٩/٢ ، الرحضاء : العرق المتصبب .
(٤) المصدر السابق : ١٤١/٢ (٥) المصدر السابق : ١٤١/٢
(٦) المصدر السابق : ١٤١/٢ ، ١٤٢

الا الأفعال علة مشهورة من طريق المادات والطباع ، ثم يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة ويضع له علة أخرى ، مثاله قول المتنبي :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب (١)

وهذا النوع هو حسن التعليل الذى صرح عبد القاهر بإفادته المبالغة (واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون في استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح أو يكون لها تأثير في الذم كقصد المتنبي ههنا في أن يبالغ في وصفه بالسخاء والجود وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة في آمالهم قد بلغت به هذا الحد فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتلى عداه كره أن يخلفها ، وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها ...) (٢) .

ويظهر حسن التعليل ظهورا واضحا في النوع الخامس من هذه الأنواع وأما بقيتها فيظهر فيها بقدر لا يبلغ وضوح ظهوره في هذين النوع ومن هنا رأى الدكتور أحمد إبراهيم موسى أن التعليل يطرد في كل ما مضى (٣) .

٨ — (وهذا نوع آخر من التخييل وهو يرجع الى ما مضى من تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه إلا أن ما مضى معلل) ومثاله قول أبي تمام :

ويصعد حتى يظن الجهو ل بأن له حاجة في السما

فلولا قصده أن ينسى التشبيه ويرفعه بجهده ، ويصمم على إنكاره وجحده يجعله صاعدا في السماء من حيث المسافة الكائنة ، لما كان لهذا الكلام وجه (٤) .

ويضيف الامام قائلا " وهكذا الحكم اذا استعاروا اسم الشيء بعينه من نحو شمس أو بدر أو بحر أو أسد فانهم يبلغون به هذا الحد ويصوغون الكلام صياغات تقضي بأن لا تشبيه هناك ولا استعارة .

ومثاله قوله

قامت تظللني من الشمس نفس أعز عليّ من نفسي

قامت تظللني ومن عجب شمس تظللني من الشمس (٥)

وهذا التقسيم للتخييل ينبيء عن درجاته في القرب من الحقيقة والبعد عنها ، ولم يصرح عبد القاهر في الثلاثة الأولى بأنها للمبالغة أو يشر إلى ذلك

---

(١) المصدر السابق : ٢/١٥٨ (٢) المصدر السابق : ٢/١٩٨

(٣) الصيغ البديعي في اللغة العربية : ٢٣٣ ، (٤) اسرار البلاغة : ٢/١٦٤

(٥) المصدر السابق : ٢/١٦٥

وأما الباقية فقد صرح في بعضها ، وأشار في بعضها الى المبالغة كما هو واضح من حديثه الذى نقلناه في هذه الأنواع .

ولو تساءلنا عن هدف عبد القاهر من هذا الجهد الذى أضناه في محاولة استقراء هذه الأنواع والتفريق بين درجاتها مع أنه يعلم حق العلم أن (ما شأنه التخييل أمره في عظم شجرته ، إذا تؤمل نسبه ، وعرفت شعوبه وشعبه .... لا يكاد تجيء فيه قسمة تستوعبه وتفصيل يستغرقه)(١) لوجدنا أن قياس الكلام بما يمكن أن يقع في المعقول هو الداعي الى هذه التقسيمات لإيجاد علائق ووسائط يمكن أن ترد للكلام معقوليته ... حتى ولو كانت تلك الوسائط ادعاء ، أو اختلاقا ، أو تعليلا بعد ادعاء ، أو تحويل العلة المعروفة الى علة توجد في الكلام ، وكان هذا المطلب مع إحساس الإمام بجمال فن اللغة الذى ينطوى في الكثير الأعم على التخييل هو الذى يفسر موقفه من التخييل والمبالغة بين القبول والرفض وهو الذى يجعله حينا يجعل الاستعارة من التخييل (٢) وحينا يخرجها منه (٣) كما سنوضح ذلك ان شاء الله .

أساليب المبالغة عنده :

١ – التشبيه :

تحدث الإمام عبد القاهر عن التشبيه وأنواعه وما يفيد المبالغة منه وما لا يفيدها . وقد عرّفنا أن التشبيه لا يراد به في كل حين إلحاق الناقص بالزائد ومن هنا يستقيم العكس في التشبيهات التي لا يراد فيها ذلك (وجملة القول أنه متى لم يعتمد ضرب من المبالغة في اثبات الصفة للشيء والقصد الى ايهام في الناقص أنه كالزائد واقتصر على الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة والشكل واللون أو جمع وصفين على وجه يوجد في الفرع على حد يوجد هو أو قريب منه في الأصل ، فإن العكس يستقيم في التشبيه ومتى أريد شيء من ذلك لم يستقم) (٤) . واستثنى من ذلك ما إذا كان الشاعر (يقصد على عادة التخييل أن يوهم في الشيء هو قاصر عن نظيره في الصفة أنه زائد عليه في استحقاقها واستيجاب أن يجعل أصلا فيها ، فيصح على موجب دعواه وشوقه الى أن يجعل الفرع أصلا ، وإن كنا إذا رجعنا إلى التحقيق

---

(١) المصدر السابق : ٢/١٣٧ (٢) المصدر السابق : ١/١٣٩ ، ٢/٩٧
(٣) المصدر السابق : ٢/١٣٥ (٤) أسرار البلاغة : ٢/٧٤

لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه ، ومثاله قول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل في النور والضياء من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعا ووجه الخليفة أصلا (١) .

ثم تحدث عن بلاغة هذا التشبيه المقلوب لما فيه من المبالغة فقال (... وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها ، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ويزجي الخبر عن أمر مسلم لا حاجة فيه إلى دعوى ، ولا اشفاق من خلاف مخالف وإنكار منكر وتجهم معترض ...) (٢) .

ووقف أيضا عند المبالغة في التشبيه الصريح الذى حذفت منه الأداة ومتى يصرف الى المبالغة ومتى لا يصرف اليها ؟! فقال (فان قلت : فلا بد من أصل يرجع اليه في الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه الى الاستعارة والمبالغة ، وما لا يحسن ذلك فيه ولا يحببك المعنى اليه ، بل يصد بوجهه عنك متى أردته عليه . فالجواب : أنه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع ، ولكن ههنا نكته يجب الاعتماد عليها ، والنظر إليها : وهي أن الشبه إذا كان وصفا معروفا في الشيء قد جرى العرف بأن يشبه من أجله به ، وتعورف كونه أصلا فيه يقاس عليه ، كالنور والحسن في الشمس ، أو الاشتهار والظهور وأنها لا تخفى فيها أيضا وكالطيب في المسك والحلاوة في العسل والمرارة في الصاب والشجاعة في الأسد والفيض في البحر والغيث .... وما شاكل ذلك من الأوصاف التي لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ، ومقدم في معانيه ـ فاستعارة الاسم في الشيء على معنى ذلك الشبه تجيء سهلة منقادة ، وتقع مألوفة معتادة ، وذلك أن هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعورف على كونها أصولا فيها وأنها أخص ما توجد فيه بها .... ومتى صلحت الاستعارة في شيء فالمبالغة فيه أصلح ، وطريقها أوضح ، ولسان الحال بها أفصح) (٣) .

ثم أوضح الامام أن التشبيه مع وجود الأداة لا يصل الى درجة المبالغة الموجودة مع حذف الأداة قائلا " واعلم أن المعنى في المبالغة ـ وتفسيرنا بقولنا جعل هذا ذاك وجعله الأسد وادعى أنه الأسد حقيقة ـ أن المشبه

---

(١) المطول للتفتازاني : ٢ / ٧٥ (٢) المصدر السابق : ٢ / ٧٥ ، ٧٦

(٣) المصدر السابق : ٢ / ١٠٤ ، ١٠٥

الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذى يجمع بين الشيئين وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة ، فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه ، وألقى ماعداها فلم ينظر اليه فإن هو قال : زيد كالأسد كان قد أثبت له خطأ ظاهرا في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذا قال هو الأسد تناهى في الدعوى إما قريبا من المحق لفرط بسالة الرجل ، وإما متجوزا في القول فجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئا (١) .

وأما التمثيل فيقصد به عبد القاهر نوعا من التشبيه وهو ما يكون الشبه فيه محصلا بضرب من التأول (٢) كقولك هذه حجة كالشمس (٣) ، وغيره مما لا يمكن ادعاؤه إلا على نوع من المقارنة أو المجازفة دون التحقيق والقطع من المتشابهات المتأولة التي ينتزعها العقل من الشيء للشيء والتي لا تكون في حد المتشابهات الأصلية الظاهرة لأن الشبه العقلي كاد الشيء به يكون شبيها بالمشبه به (٤) .

وهذا الشبه العقلي ربما انتزع من شيء واحد كالمثال السابق ، وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها الى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين يخرج أحدهما الآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الإفراد لا سبيل الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورتهما ومثاله قوله عز وجل (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاره) (٥ ، ٦) .

وقد ركز عبد القاهر على التشبيه المركب ورأى أنه الأولى بأن يسمى تمثيلا فقال (وعلى الجملة فينبغي أن نعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذى هو الأولى بأن يسمى تمثيلا — لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح — ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى إن التشبيه كل ما كان أوغل في كونه عقليا محضا كانت الحاجة الى الجملة أكثر) (٧) .

وقد بين عبد القاهر إفادة عموم التمثيل للمبالغة بقوله : (فأما القول في العلة والسبب لما كان للتمثيل هذا التأثير وبيان جهته ومأتاه ، وما الذى أوجبه واقتضاه فغيرها ، وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا كل منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل ويشرف ويكمل) (٨) وبين أن الأوصاف

---

(١) المصدر السابق : ١٠٥
(٢) المصدر السابق : ١/١٩٠
(٣) المصدر السابق : ١/١٩٣
(٤) المصدر السابق : ١/٢٠٩
(٥) الجمعة : ٥
(٦) اسرار البلاغة : ١/٢١٠
(٧) المصدر السابق : ١/٢١٨
(٨) المصدر السابق : ١/٢٣٤

التي ترد السامع فيها بالتمثيل من العقل إلى العيان والحس وهي في نفسها معروفة مشهورة صحيحة لا تحتاج إلى الدلالة على أنها هي ممكنة موجودة أم لا ؟ فإنها وإن غنيت من هذه الجهة عن التمثيل بالمشاهدات والمحسوسات فإنها تفتقر إليه من جهة المقدار ، لأن مقاديرها في النقل تختلف وتتفاوت ، فقد يقال في العقل انه من جمال الفائدة على حدود مختلفة في المبالغة والتوسط فكأن التمثيل ميزان القسطاس فلما قال الشاعر : كقابض على الماء خانته فروج الأصابع أراك كما يقول عبد القاهر (رؤية لا تشك معها ولا ترتاب أنه بلغ في خيبة ظنه وبوار سعيه الى أقصى المبالغ . وانتهى فيه الى أبعد الغايات، حتى لم يحظ مما قل ولا ما كثر)(١) .

وأوضح عبد القاهر أن المبالغة وبيان المقدار غير مقصود في كل حين من التمثيل فقال (ومما يدلك على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنسا وإن لم يكن بك حاجة الى تصحيح المعنى ، أو بيان المقدار المبالغة فيه ، أنك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التي تؤديه وتبالغ وتجتهد حتى لا تدع في النفوس منزعا نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالطول : يوم كأطول ما يتوهم وكأنه لا آخر له . وما شاكل ذلك من نحو قوله :

في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما ليلة بالحشر موصول

فلا تجد له من الأنس ما تجده لقوله :

• ويوم كظل الرمح قصر طوله •

على أن عبارتك الأولى أشد وأقوى في المبالغة من هذا ، فظل الرمح على كل حال متناه تدرك العين نهايته ، وأنت قد أخبرت عن اليوم بأنه كأنه لا آخر له)(٢) .

٢ – الاستعارة :

تحدث الإمام عبد القاهر كثيرا عن الاستعارة مبينا معالمها ، ومقدسا لبلاغتها لكثرتها في التنزيل ، والكلام العربي الفصيح ، ومشفقا عليها من دعوى التخييل في بعض الأحيان – كما أشرنا الى ذلك –

والذى يهمنا الآن هو إلحاحه على عنصر المبالغة فيها إلى درجة اقترنت عنده فيها الاستعارة بالمبالغة وذلك كما يظهر من حديثه عن التشبيه الذى ينبغي أن يصرف الى المبالغة والذى لا ينبغي له ذلك حيث قال (فإن

---

(١) المصدر السابق : ١/ ٢٣٧ ، ٢٣٨

(٢) المصدر السابق : ١/ ٢٤٠ ، ٢٤١

قلت : فلا بد من أصل يرجع إليه في الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه الى الاستعارة والمبالغة ، وما لا يحسن ذلك فيه ، ولا يحببك المعنى إليه ، بل يصد بوجهه عنك متى أردته عليه)[١] .

وقد قسم عبد القاهر الاستعارة الى نوعين :

١ — استعارة غير مفيدة : كاستعمال اسم مختص بجنس معين في غير جنسه نحو وضع المشفر للإنسان والمرش للإنسان كما في قول العجاج :

. وفاحما ومرسنا مسرجا .[٢]

وقد أرقت دعوى عدم الفائدة في مثل هذا عبد القاهر أمام أمثلة فرضت الفائدة في نفسها على حسه وذوقه فأخرجها من هذا الضرب مع أنها منه واعترف بفائدتها وإفادتها المبالغة من مثل قول الحطيئة :

قروا جارك العيمان لما جفوته وقلّص عن برد الشراب مشافره

وقول مزرد :

فما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر[٣]

٢ — استعارة مفيدة : وأما الاستعارة المفيدة فهي التي يحصل لك باستعارتها (فائدة ومعنى من المعاني وغرض من الأغراض ، ولولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك ، وجملة تلك الفائدة ، وذلك الغرض التشبيه إلا أن طرقه تختلف حتى تفوت النهاية ، ومذاهبه تتشعب حتى لا غاية)[٤] ..

وضرب لذلك أمثلة بين فيها أن وجه فائدة الاستعارة هو المبالغة فقال (ومثاله قولنا : رأيت أسدا — وانت تعني رجلا شجاعا — وبحرا — تريد رجلا جوادا ، وبدرا وشمسا تريد انسانا مضيء الوجه وتهللا ، وسللت سيفا على العدو — تريد رجلا ماضيا في نصرتك أو رأيا نافذا وما شاكل ذلك . فقد استعرت اسم " الأسد " للرجل . ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لاحتلم يحصل لك ، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة ، وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدته ، وسائر المعاني المركوزة في طبيعته مما يعود الى الجرأة . . . وهكذا أفدت باستعارة البحر سعته في الجود وفيض الكف ، وبالشمس والبدر ما لهما من الجمال والبهاء والحسن المالىء للعيون والباهر للنواظر)[٥] .

وإذا كانت الاستعارة من أجل التشبيه وهو كالغرض فيها ، أو كالعلة

---

(١) المصدر السابق : ٢/١٠٤ (٢) المصدر السابق : ١/١٢٣، ١٢٤
(٣) المصدر السابق : ١٣٠ — ١٣٢ (٤) المصدر السابق : ١/١٢٦
(٥) المصدر السابق : ١/١٢٦

والسبب في فعلها (١) . فإن حصوله بها على وجه خاص هو المبالغة، وتبقى المبالغة فيها غرضا وعلة مع الاختصار والإيجاز . يقول عبد القاهر في ذلك (ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة ، فقولي " من أجل التشبيه ، أردت به من أجل التشبيه على هذا الشرط ، وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلة ، كذلك الاختصار والإيجاز غرض من أغراضها . ألا ترى لأنك تفيد بالاسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه والمبالغة لأنك تفيد بقولك (رأيت أسدا) انك رأيت شجاعا شبيها بالأسد وان شبهه به في الشجاعة على أتم ما يكون وأبلغه حتى إنه لا ينقص عن الأسد فيها) (٢) .

٣ — الكنايـــة : وقد صرح عبد القاهر بإفادتها المبالغة ، وأن هذه الافادة جاءت عن طريق الإثبات شأنها في ذلك شأن الاستعارة والتمثيل وذلك لأنك (إذا كنيت عن كثرة القرى بكثرة رماد القدر كنت قد أثبت كثرة القرى باثبات شاهدها ودليلها ، وما هو علم على وجودها ، وذلك لا محالة يكون أبلغ من اثباتها بنفسها ، وذلك لأنه يكون سبيله حينئذ سبيل الدعوى تكون مع شاهد) (٣) .

٤ — المجـــاز الحكمي : لقد تحدث الإمام عبد القاهر عن الاستعارة وهي كما يقول مجاز في ذات الكلمة وفي اللفظ نفسه (٤) ، وعن افادتها المبالغة .

~~ومن بلاغة تكلم البلاغيين~~ أن في الكلام مجازا على غير هذا السبيل وهو أن يكون التجوز في حكم يجرى على الكلمة فقط وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ويكون معناها مقصودا في نفسه ، ومرادا من غير تورية ولا تعريض مثل قولهم : نهارك صائم ، وليلك قائم ، ونام ليلي ، وتجلى همي ، وقوله تعالى (٥) (فما ربحت تجارتهم) (٦) . وأشار الى إفادة هذا النوع من المجاز للمبالغة بقوله (واعلم ان الذى ذكرت لك في المجاز هناك من أن من شأنه أن يفخم عليه المعنى وتحدث فيه النباهة قائم لك مثله ههنا) (٧) . وجعل من ذلك قول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى اذا ادّكرت فإنما هي إقبال وإدبار

وأكد افادته المبالغة بقوله (وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوّزت في نفس الكلمة وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة

---

(١) المصدر السابق : ٩٤/٢
(٢) المصدر السابق : ٩٥/٢
(٣) دلائل الاعجاز : ٣٤٣
(٤) المصدر السابق : ٣٢٧
(٥) سورة البقرة : ١٦
(٦) دلائل الاعجاز : ٢٢٧
(٧) المصدر السابق : ٢٢٨

ما تقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن له حال غيرهما كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار) (١) .

وفي بعض الأحيان يتغلب الإحساس الأدبي عنده، واحترام كلمة القائل على مراعاة المعقول، ورد كل تصرف للقائل في اللغة الى ما يستسيغه العقل ويستجيزه من حذف أو تعبير بلازم عن ملزوم على عبد القاهر فلا يبالي بذلك كما فعل أمام هذا البيت الذى قال فيه (وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون إنه في تقدير " فإنما هي ذات اقبال وإدبار) وذاك لأن المضاف المحذوف من نحو الآية والبيتين يعني قوله تعالى (واسأل القرية) (٢) وقول الشاعر :

وكيف تواصل من أصبحت ... خلالته كأبي مرحب

وقول الأعرابي :

حسبت بغام راحلتي عناقا ... وما هي ويب غيرك بالعناق

في سبيل ما يحذف من اللفظ ويراد بالمعنى كمثل أن يحذف خبر المبتدأ أو المبتدأ اذا دل عليه الى سائر ما إذا حذف كان في حكم المنطوق به وليس الأمر كذلك في بيت الخنساء لانا اذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى إذا نحن قلنا : فانما هي ذات اقبال وادبار : أفسدنا الشعر على أنفسنا وخرجنا الى شيء مفسول ، وإلى كلام عامي مرذول) (٣) .

ويضيف قائلا (فالوجه أن يكون تقدير المضاف في هذا على معنى أنه لو كان الكلام قد جيء به على ظاهره ولم يقصد إلى الذى ذكرنا من المبالغة والاتساع ، وان تجعل الناقة كأنها قد صارت بجملتها إقبالا وإدبارا حتى كأنها قد تجسمت منهما لكان حقه حينئذ أن يجاء فيه بلفظ الذات فيقال : إنما هي ذات إقبال وإدبار : فإما أن يكون الشعر الآن موضوعا على ارادة ذلك وعلى تنزيله منزلة المنطوق به حتى يكون الحال فيه كالحال في (حسبت بغام راحلتي عناقا) حين كان المعنى والقصد أن يقول حسبت بغام راحلتي بغام عناق مما لا مساغ له عند من كان صحيح الذوق صحيح المعرفة نسابة للمعاني) (٤) .

وسبق لنا أن رأينا أن ابن جنى يعد هذه الصور المجازية من المبالغة .

٥ — افادة بعض طرق القصر المبالغة :

تحدث عبد القاهر عن إفادة بعض طرق القصر المبالغة فذكر أن طريق إنما

---

(١) المصدر السابق : ٢٣٣ (٢) سورة يوسف : ٨٢
(٣) دلائل الاعجاز : ٢٣٣ ، ٢٣٤ (٤) المصدر السابق : ٢٣٤ ، ٢٣٤

وطريق التعريف يفيد ان المبالغة في بعض الأحيان، فإنما تفيد المبالغة إذا ادعى في القصر أنه امر ظاهر معلوم للجميع كقول الشاعر : (١)

إنما مصعب شهاب من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء

ونص على افادة هذا الطريق للمبالغة عندما قال : (فأما نحو "إنما مصعب شهاب" فيصلح فيه أن نقول : ما مصعب إلا شهاب لأنه ليس من المعلوم على الصحة وإنما ادعى الشاعر فيه أنه كذلك . وإذا كان هذا هكذا جاز أن تقوله بالنفي والإثبات إلا أنك تخرج المدح حينئذ عن أن يكون على حد المبالغة من حيث لا يكون قد ادعيت فيه أنه معلوم وأنه بحيث لا ينكره منكر ولا يخالف فيه مخالف) (٢) .

وتأتي المبالغة في طريق التعريف إذا قصرت جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة وذلك قولك : زيد هو الجواد ، وعمرو هو الشجاع : تريد أنه الكامل إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه ، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال (٣) .

٦ - إفادة التقديم للمبالغة :

وقد نوه عن ذلك بقوله (فإن قلت فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل آكد لاثبات ذلك الفعل له ، وأن يكون قوله "هما يلبسان المجد" أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال : يلبسان المجد . فإن ذلك من أجل انه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه) (٤)

والذي يدل على أنه يعني في هذا الموضع ب (أبلغ) الدلالة على المبالغة ، أنه قرن ذلك بما يدل عليها وهو التفخيم حيث قال (ومن هنا قالوا : إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم اضمار) (٥) .

٧ - حسن التعليل :

وقد ذكرناه عند حديثنا عن أنواع التخييل عند الإمام ولا حاجة بنا الآن الى إعادة القول فيه .

---

(١) المصدر السابق : ٢٥٥
(٢) المصدر السابق : ٢٥٦
(٣) المصدر السابق : ٢٣٨
(٤) المصدر السابق : ١٠١
(٥) المصدر السابق : ١٠٢

٧ـ الزمخشـــــــري

أما محمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ هـ . صاحب التفسير المعروف بـ (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) فقد كانت دلالته على مواطن المبالغة كثيرة بسبب كثرة الآيات القرآنية والأساليب الفصيحة التي يستشهد بها في تفسيره المتمشية مع مفهوم المبالغة عنده .

ومما يجب أن ننبه اليه أن الزمخشري يستخدم لفظ " ابلغ " في كثير من الأحيان بمعنى أكثر مبالغة ، والدليل على ذلك قوله في قوله تعالى (وانا على ذهاب به لقادرون)(١) عن النكرة : (من أوقع النكرات ، آخرها للمفصل والمعنى ، على وجه من وجوه الذهاب ، وطريق من طرقه ، وفيه إيذان باقتداره ، وانه لا يتقابى عليه شيء إذا أراده ، وهو أبلغ في الإبعاد من قوله " قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين "(٣)) فتخصيصه الأبلغية بالابعاد دليل على إرادته بها المبالغة مما سوغ له وجه المفاضلة بين آيتين من كتاب الله .(٢)

وقوله في قوله تعالى (ليس كمثله شيء)(٤) : (قالوا مثلك لا يبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده وعمن هو أخص أوصافه فقد نفوه عنه ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذمم ، كان أبلغ من قولك أنت لا تخفر ، ومنه قولهم قد أيفعت لداته ، وبلغت أترابه ، يريدون ايفاعه وبلوغه)(٥) .

ويتضح مفهوم المبالغة عنده من خلال استعراض المواضع التالية التي تحدث فيها عن المبالغة :

١ ـ قوله في قوله تعالى " تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا "(٦) : (تفيض من الدمع كقولك تفيض دمعا ، وهو أبلغ من يفيض دمعها لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض)(٧) .

٢ ـ قوله في قوله تعالى " قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين " : (وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لفرض ، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه ، وألا يترك الناطق به شبهة الا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها ،

---

(١) سورة المؤمنون : ٢٣ (٢) الكشاف : ٣/١٤١
(٣) سورة الملك : ٣٠ (٤) الشورى : ١١
(٥) الكشاف : ٤/١٦٦ (٦) سورة التوبة : ٩٢
(٧) الكشاف : ٢/٢٣٦

فكان المعلق بها محالا مثلها ، فهو في صورته إثبات الكينونة والعبادة ، وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها "(١) .

ففي هذين الموضعين تجدها تدل على بلوغ الغاية في المعنى واستقصائه والتناهي فيه ، وتجدها في بعض المواضع تدل على مبالغة نسبية أى زيادة في المعنى تتحقق عن طريق صيغة جاء عليها الكلام لا تتحقق في صيغة أقل منها ، وقد لا تعني بلوغ الغاية في المعنى والتناهي فيه ، فمن ذلك قوله في قوله تعالى " يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها "(٢) (هو أبلغ من قولك يخرجون منها)(٣) وقوله في قوله تعالى (اولئك شر مكانة وأضل سبيلا "(٤) (جعلت الشرارة للمكان وهي لأهله ، وفيه مبالغة ليست في أولئك شر وأضل ، لدخوله في باب الكناية التي هي أخت المجاز)(٥) وقوله في قوله تعالى " ليحطمنكم سليمان وجنوده "(٦) (أراد ليحطمنكم جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ ، ونحوه عجبت من نفسي ومن إشفاقها)(٧) .

وترتبط المبالغة عند الزمخشري بالتوكيد فهي تقترن به وأشار الى ذلك في مواضع عدة فمن ذلك قوله في قوله تعالى " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون "(٨) .

(خطاب لمشركي مكة ، ويا حرف وضع في أصله لنداء البعيد صوت يهتف به الرجل بمن يناديه .

وأما نداء القريب فله أى والهمزة ، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بعد ، فاذا نودى به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه معنى به جدا فان قلت فما بال الداعي يقول في جواره يا رب وهو أقرب اليه من حبل الوريد وأسمع به ، وأبصر قلت : هو استقصاره واستبعاد لها من مظان الزلفى ... وأى وصلة الى نداء ما فيه الألف واللام ... وهو اسم مبهم مفتقر الى ما يوضحه ويزيل ابهامه فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يتضح المقصود بالنداء ... وفي هذا التدرج من الابهام الى التوضيح ضرب من التأكيد والتشبيه وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين : معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه ، ووقوعها عوضا مما يستحقه أى من الإضافة . فإن قلت : لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره . قلت لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده

---

(١) الكشاف : ٤/٢١٠
(٢) سورة المائدة : ٣٧
(٣) الكشاف : ١/٤٢١
(٤) سورة الفرقان : ٣٤
(٥) الكشاف : ١/٥٠٨
(٦) سورة النمل : ١٨
(٧) الكشاف : ٣/٢٨١
(٨) سورة البقرة : ٢١

واختصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما انطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام وسمان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم اليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ) (١) .

وقوله في قوله تعالى " كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم " (٢) : (فما تقول في كيف حيث كان إنكارا للحال التي يقع عليها كفرهم ؟ قلت حال الشيء تابعة لذاته فإذا امتنع ثبوت الذات اتبعه امتناع ثبوت الحال ، فكان إنكار حال الكفر لأنها تبيع ذات الكفر ، ورديفها انكارا لذات الكفر وثباتها على طريق الكناية وذلك أقوى لانكار الكفر وأبلغ) (٣) فالقوة في الإنكار هي تأكيده في النفس . واذا قال الزمخشري عن الكناية إنها هنا أبلغ وأقوى فقد بين تأكيدها في موضع آخر مما يدل تقارب مفهوم المعنيين ، المبالغة والتوكيد وتناوبهما حيث يقول في قوله تعالى " انما يعمر مساجد الله " (٤) . (فأما القراءة بالجمع ففيها وجهان ، أحدهما أن يراد المسجد الحرام . . . والثاني أن يراد جنس المساجد ، واذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك ألا يعمروا المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس ومقدمته ، وهو آكد ، لأن طريقته طريقة الكناية كما لو قلت فلان لا يقرأ كتب الله ، كنت أنفي لقراءته القرآن من تصريحك بذلك) (٥) .

وأظن أن الدكتور محمد حسين أبا موسى قد لفت نظره هذا التلاؤم والاقتران بين المعنيين عند الزمخشرى فجاء بهما أيضا متلاحمين مقترنين عندما تحدث عن عناصر التوكيد عند الزمخشرى حيث يقول (والمؤكدات كثيرة لا يمكن الإحاطة بها فان كثيرا من طرق بناء الكلام تعطيه تقوية ووكادة . فالذكر قد يفيد توكيدا ، والحذف قد يفيد توكيدا والوصل والفصل ، والتكرار ، والاعتراض ، والالتفات وصور التشبيه والاستعارة وأنواع المجاز والكناية كل هذه وغيرها تفيد أنواعا من التوكيد والمبالغة في تثبيت المعنى أو نفيه) (٦) .

ومن هنا كانت طرق المبالغة عنده متعددة ومتنوعة تعدد وتنوع عناصر بلوغ الغاية في المعنى ، والزيادة فيه ، وتوكيده وسنشير هنا الى بعض طرقها ومواضعها من كتابه الكشاف .

١ ــ التشبيه : تحدث الزمخشرى في ثنايا تفسيره عن بعض صور التشبيه وإفادتها المبالغة فأشار الى ذلك في تفسيره لقوله تعالى (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) (٧) حيث يقول (وشبه رؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة ، وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير

---

(١) الكشاف : ٦٨/١
(٢) سورة البقرة : ٢٨
(٣) الكشاف : ٧٧/١
(٤) سورة التوبة : ١٨
(٥) الكشاف : ١٩٨/٢
(٦) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى ٥٤٣
(٧) سورة الصافات : ٦٥

فيقولون في القبيح الصورة كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان ، وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدرون وأهوله (١) . وقال في قوله تعالى (ان أنكر الأصوات لصوت الحمير) (٢) ... (فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة وان جعلوا حميرا وصوتهم نهاقا ، مبالغة شديدة في الذم والتهجين وافراط في التشبيط عن رفع الصوت) (٣) .

و والتشبيه المقلوب كذلك كان عنده طريقا من طرق المبالغة كما نص على ذلك في تفسيره (٤) لقوله تعالى " انما البيع مثل الربا " (٥) .

وكذلك كانت القيود في التشبيه عناصر من عناصر المبالغة في المعنى وتوكيده فمن ذلك تفسيره لقوله تعالى " مثل ما ينفقون في الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته " (٦) حيث يقول : (وشبه بحرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلك عقوبة لهم على معصيتهم لأن الهلاك من سخط أسوأ وأبلغ) (٧) وأشار الى ذلك أيضا في تفسيره لقوله تعالى " وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة " (٨) .

٢ — الاستعارة : وجرى فيها على سنن من سبقوه في إفادتها المبالغة ونص على أنها أبلغ من التشبيه (٩) .

٣ — بعض صور التمثيل والتخييل : ولا يعنينا هنا التفريق بينهما الذى أشار اليه الدكتور محمد حسين أبو موسى (١٠) . وانما الذى يعنينا كون بعض هذه الصور تأتي للمبالغة فمن ذلك التشبيه في قوله تعالى (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) (١١) والتمثيل في قوله تعالى (انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، واشفقن منها ، وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) (١٢) وجعل منه قوله تعالى " لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله " (١٣) حيث يقول : (من باب التخييل : خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوما —

---

(١) الكشاف : ٣/٤٧
(٢) سورة لقمان : ١٩
(٣) الكشاف :
(٤) المصدر السابق : ١/٢٤٥
(٥) سورة البقرة : ٢٧٥
(٦) سورة آل عمران : ١١٧
(٧) الكشاف : ١/٣١١
(٨) سورة المنافقون : ٤ وانظر الكشاف ٤/٣٢
(٩) الكشاف : ١/١٧٤، ١٧٥
(١٠) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٣٥ — ٤٣٩
(١١) سورة الصافات : ٦٥
(١٢) سورة الأحزاب
(١٣) المجادلة : ٢٢

مؤمنين يوالون المشركين ، والغرض به انه لا ينبغي أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة في النهى عنه ، والزجر عن ملابسته)[1] .

وكذلك كان تعليق جواب الشرط على ثبوت صحة الشرط المفترض تمثيلا جيء به لغرض المبالغة إذ يقول في قوله تعالى " قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين "[2] (وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض . وهو المبالغة في نفي الولد والاطناب فيه ، وألا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة ، مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد)[3] .

وبقي أن نقول إن ما أطلق عليه الحاتمي الغلو من نحو المخاطبة مالا يعقل أو تكلمه نجده عند الزمخشري واقعا تحت باب التخييل فمن ذلك قوله في قوله تعالى " فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين "[4] . (ومعنى أمر السماء والأرض بالاتيان وامتثالهما أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أراد هما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع وهو من المجاز الذى يسمى التمثيل . ويجوز أن يكون تخييلا ، ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما ائتيا على الطوع لا على الكره ، والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب ، ونحوه قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقني ؟ قال الوتد اسأل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذى ورائي)[5] . ومقارنة الحقيقة في الكلمة الإلهية التي تم بها تكوين الكون بهذه الحكاية المتخيلة في هذا المثال المصطنع أمر فيه كثير من التعطيل وتجنى منطق العقل البشرى على الكتاب الكريم .

٤ — الكناية : وقد أشار الى إفادتها المبالغة في كثير من المواضع فمن ذلك تفسيره لقوله تعالى " كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم "[6] الذى ذكرنا منه سابقا الجزء الخاص بالمبالغة .

وتفسير قوله تعالى " انما يعمر مساجد الله . . . "[7] وتفسير قوله تعالى " أولئك شر مكانا وأضل سبيلا "[8] وقد ذكرنا جانب المبالغة الذى ذكره في هاتين الآيتين .

٥ — المجاز الحكمي : وأشار الى إفادته المبالغة في عدة مواضع منها ما ذكره أثناء

---

(١) الكشاف : ٤/٣٩٦ (٢) سورة الزخرف : ٨١
(٣) الكشاف : ٤/٢٠٩، ٢١٠ (٤) سورة فصلت : ١١
(٥) الكشاف : ٤/١٤٨ (٦) سورة البقرة : ٢٨ وانظر الكشاف ١/٩١
(٧) سورة التوبة : ١٨ وانظر الكشاف ٢/١٩٨ (٨) سورة الفرقان : ٣٤ وانظر الكشاف ١/٥٠٨

تفسير قوله تعالى " تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا "[١] . وتفسير قوله تعالى " صفراء فاقع لونها "[٢] وتفسير قوله تعالى " كذلك سلكناه في قلوب المجرمين "[٣] وجماع ذلك ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى " ختم الله على قلوبهم "[٤] حيث قال في ذلك (.... ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله لله فيكون الختم مسندا الى اسم الله على سبيل المجاز ، وهو لغيره حقيقة ، تفسير هذا أن للفعل ملابسات شتى يلابس الفاعل ، والمفعول به ، والمصدر ، والزمان والمكان والسبب ، فاسناده الى الفاعل حقيقة ، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة ، وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملابسة الفعل كما يضاهي الرجل الأسد في جرأته ، فيستعار إليه اسمه ، فيقول في المفعول به عيشة راضية ، وماء دافق ، وفي عكسه سيل مفعم ، وفي المصدر شعر شاعر ، وذيل ذائل ، وفي الزمان نهاره صائم ، وليله قائم ، وفي المكان طريق سائره ونهر جار ....) وفي المسبب بني الأمير المدينة)[٥] وعلى هذا الطريق الأخير قال (فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذى أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى السبب)[٦] .

وهكذا كان كل ما رأى فيه زيادة في توكيد المعنى ، أو تقريره ، أو اشعار للاهتمام فيه بشيء دون آخر ، كل ما كان كذلك أشار الزمخشرى الى افادته المبالغة فيذكر أن هناك مبالغة في نفي الأخص حيث يقول في قوله تعالى (قال الملأ من قومه : إنا لنراك في ضلال مبين . قال يا قوم ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين)[٧] . (فإن قلت لم قال ليس بي ضلالة ، ولم يقل ضلال كما قالوا ؟ قلت : الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كأنه قال ليس بي شيء من الضلال كما لو قيل لك ألك تمر فقلت مالي تمره)[٨] .

ويذكر أن هناك مبالغة في الاستفهام في قوله تعالى (فهل أنتم منتهون)[٩] حيث يقول عن هذا الاستفهام (من أبلغ ما ينهى به كأنه قيل قد تلي عليكم ما فيها من أنواع الزواجر والموانع ، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا)[١٠] .

---

(١) سورة التوبة : ٩٢ وانظر الكشاف : (٢/٢٣٦ .
(٢) سورة البقرة : ٦٩ وانظر الكشاف : ١/١١٢ .
(٣) سورة الشعراء : ٢٠٠ وانظر الكشاف : ٣/١٠
(٤) سورة البقرة : ٧
(٥) الكشاف : ١/٣٩ ، ٤٠
(٦) الكشف ١/٤٠
(٧) سورة الاعراف : ٦١
(٨) الكشاف : ٢/٨٩ ، ٩٠
(٩) سورة المائدة : ٩١
(١٠) الكشاف : ١/٥٢٦

وقد أشار الدكتور محمد حسين أبو موسى الى رؤية الزمخشرى المبالغة في مثل هذا النوع من الاستفهام (١) .

وذكر الزمخشرى أيضا أن هناك مبالغة في الأمر في قوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) (٢) وقد أشار الى ذلك الدكتور محمد حسين أبو موسي حيث قال (ومن معاني صيغة الأمر الدلالة على تناهي السخط من الآمر وذلك اذا كان المأمور به غير مرغوب فيه) (٣) كما - في هذه الآية - ويضيف (قال الزمخشرى : فان قلت كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر وبأن يعمل العصاة ما شاءوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه ؟ قلت هو مجاز عن الخذلان والتخلية وأن ذلك الأمر متسخط الى غاية ، ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر وعندك أن ذلك الأمر خطأ ، وأنه يؤدى الى ضرر عظيم ، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه ، فاذا لم تر منه الا الاباء والتصميم جرت عليه وقلت أنت وشأنك وافعل ما شئت ، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر ، وكيف والآمر بالشيء مريد له ، وأنت شديد الكراهية متحسر ، ولكنك كأنك تقول له ، فاذ قد أبيت قبول النصيحة ، فأنت أهل ليقال لك افعل ما شئت وتبعث عليه ، ليتبين لك اذا فعلت صحة رأي الناصح وفساد رأيك) (٤) .

وذكر أيضا أن هناك مبالغة في النداء مثل قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) (٥) . وقد نقلنا آنفا كلامه في هذه الآية . واذا كانت المبالغة قرينة التوكيد فمن الطبيعي أن تأتي بعض المؤكدات للمبالغة كما أشار الى ذلك أثناء تفسيره لقوله تعالى (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم .. الآية) (٦) . حيث يقول (فان قلت : لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالاسمية محققة بأن ؟ قلت ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديرا بأقوى الكلامين وأوكدهما ، لأنهم في ادعاء حدوث الايمان منهم ونشئه من قبلهم لا في ادعاء أنهم أوحديون في الايمان غير مشقوق فيه غبارهم ، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه اذ ليس من عقائدهم باعث ومحرك . وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية ، وصدق رغبة واعتقاد ، واما لأنه لا يروح عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة) (٧) .

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى ٢٩٦ (٢) سورة العنكبوت : ٦٦
(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى ٣٠٧
(٤) المرجع السابق : ٣٠٧ ، ٣٠٨ وانظر تفسير الكشاف ٣/٣٦٥ .
(٥) سورة البقرة : ٢١ (٦) سورة البقرة : ١٤
(٧) الكشاف : ١/٥٠

المبالغة عند المتأخرين

تناولت في الفصلين السابقين تطور المبالغة عند العلماء على اختلاف اتجاهاتهم ، ما بين لغوى ، وناقد ، وأديب ، ومفسر ، ومتكلم ، حتى يتبين من ذلك كيف كان مفهومها عندهم ، وكيف استفادوا منها في أبحاثهم ، وكيف تلونت بأبحاثهم واتجاهاتهم ، وسيتناولها البحث الآن عند البلاغيين المتأخرين ، وسيكون التناول كما سبق من عرض لمصطلحاتها ، وما يدخل تحتها ، وكيفية فهمها ، تاركا بيان الموقف منها الى مكان آخر من هذا البحث .

وهذا العصر الذى يضم هؤلاء البلاغيين المتأخرين هو عصر السكاكى ومدرسته وسنقف فيه على ابن الأثير والعلوى ، ذلك لأنهما وإن كانا في عصر السكاكي إلا أن لكل منهما وجهة مستقلة في المنهج البلاغي ، عن السكاكى ومن لف لفه ، لذلك حرص البحث على معرفة مفهوم المبالغة عندهما ، وعند مدرسة السكاكي حتى نكون على بما كانت عليه في مختلف الاتجاهات .

١ - ابن الأثير

يمثل ضياء الدين بن الأثير المتوفي سنة ٦٣٧ من الهجرة ، اتجاها نقديا بلاغيا ، يمتزج بالأدب ، وهذا الاتجاه امتداد لاتجاه كثير من النقاد قبله كأبى هلال في القرن الرابع الهجرى ، وابن رشيق وابن سنان في القرن الخامس الهجرى —

وقد كان في كتابه المثل السائر أشبه بأبي هلال ، إذ كان يتخذ (في تأليفه النقدى منهجا قريبا من منهج أبي هلال في الصناعتين ، إذ يقسم الكتاب الى مقدمة في البيان ، وأدواته بصفة عامة ، ثم يقسم الكلام فيه الى مقالين أولهما في الصنعة اللفظية ، والثاني في الصنعة المعنوية) (١) .

ومفهوم المبالغة عنده ، ليس فيه كبير اختلاف عن كثير ممن سبقه فلقد جعل من المبالغة التكرير بالمعنى دون اللفظ في مثل قوله تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، اذ قالوا لقومهم انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده (٢)) حيث قال (فان البغضاء والعداوة بمعنى واحد ، وإنما حسن إيرادهما معا في معرض

---

(١) ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد : ٧٥

(٢) سورة الممتحنة آية (٤) [illegible]

[illegible] .

واحد لتأكيد البراءة بين إبراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به ، وبين الكفار من قومهم حيث لم يؤمنوا بالله وحده ، وللمبالغة في اظهار القطيعة والمصارمة)[١] والى مثل ذلك أشار في قوله تعالى (فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير)[٢] حيث قال في ذلك (فقوله (غير يسير) بعد قوله (عسير) من هذا النوع المشار إليه ، والا فقد علم أن العسير لا يكون يسيرا ، وانما ذكر ههنا على هذا الوجه ، لتعظيم شأن ذلك اليوم في عسره وشدته على الكافرين)[٣] وجعل منها أيضا التكرير باللفظ في مثل قول أبي الطيب :

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي ثلاثُ تحياتٍ وان لم تكلّمي

حيث يقول عنه (وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة ، وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد إثباته)[٤] .

وهذه الأمثلة واقعة عنده في القسم المفيد من التكرير ، الذى علله بالمبالغة حيث يقول (واعلم أن المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيدا له ، وتشييدا من أمره وانما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذى كررت فيه كلامك ، أما مبالغة في مدحه أو في ذمه ، أو غير ذلك . ولا يأتي إلا في أحد طرفي الشيء المقصود بالذكر ، والوسط عار منه ، لأن أحد الطرفين هو المقصود بالمبالغة إما بمدح أو ذم أو غيرهما ، والوسط ليس من شرط المبالغة)[٥] وتحدث كذلك عن المبالغة في الكلمة المفردة عند حديثه عن " قوة اللفظ لقوة المعنى " . الذى رأيناه عند ابن جنى ورأينا جذوره عند الخليل وسيبويه فقال (أعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ، ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه ، فلا بد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا ، لأن الألفاظ أدلة على المعاني ، وأمثلة للإبانة عنها ، فاذا زيد في الألفاظ اوجبت القسمة زيادة المعاني ، وهذا لا نزاع فيه لبيانه ، وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة)[٦] . ومثل لذلك بخشن واخشوشن ، وقدر واقتدر ، وقال في قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا)[٧] : (فإن غفارا أبلغ في المغفرة من غافر لأن فعّالا يدل على كثرة صدور الفعل وفاعلا لا يدل على الكثرة)[٨] ولقد أشار الى سبق ابن جني عليه في التنبه الى هذا[٩] .

وفهم ابن الأثير للمبالغة كما يظهر مما سبق يبين لنا أنه يفهمها بمفهومها الأصيل في اللغة . وأنها تجيء للدلالة على بلوغ الغاية ، والنهاية فيما يراد قوله .

---

(١) المثل السائر : ٢/ ١٧٧ ، ١٧٨ ويلاحظ أن ابن الأثير جعل العداوة والبغضاء بمعنى واحد وليس هما كذلك .
(٢) سورة المدثر : ٨ — ١٠
(٣) المثل السائر : ٢/ ١٧٧
(٤) المصدر السابق : ٢/ ١٦٢
(٥) المصدر السابق : ٢/ ١٥٨
(٦) المصدر السابق : ٢/ ٦٠
(٧) سورة نوح : ١٠
(٨) المثل السائر : ٢/ ٦١
(٩) المصدر السابق : ٢/ ٦٠

ولقد صرح ابن الأثير بافادة التشبيه للمبالغة بل إنه ربط جميع أغراضه بهـا فقال (والقول السديد في بلاغة التشبيه هو ما أذكره . وهو أن اطلاق من أطلق قوله في أن من شروط بلاغة التشبيه أن يشبه الأصغر بالأكبر غير سديد ، فان هذا قول غير حاصر للغرض المقصود ، لأن التشبيه يأتي تارة في معرض المدح ، وتارة في معـرض الذم ، وتارة في غير معرض مدح ولا ذم وإنما يأتي قصدا للإبانة والإيضاح ، ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر كما ذهب إليه من ذهب . بل القول الجامع في ذلك أن يقال : إن التشبيه لا يعمد إليه إلا لضرب من المبالغة ، فإما أن يكون مدحا ، أو ذما ، أو بيانا وإيضاحا ولا يخرج عن هذه المعاني الثلاثة . وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من تقدير لفـظة أفعل ، فان لم تقدر فيه لفظة أفعل فليس بتشبيه بليغ ، ألا ترى أنـا نقول في التشبيه المضمر الأداة (زيد أسـد) فقد شبهنا زيدا بأسد الذى هو أشجع منه ، فإن لم يكن المشبه به في هذا المقام أشجع من زيد الذى هو المشبه ، وإلا كان التشـبيه ناقصا اذ لا مبالغة فيه)[١] .

وابن الأثير الذى استعمل لفظ المبالغة في معناه الأصيل ، لا يستخـدم هذا اللفظ فيما رأى أنه فيه إسرافا وتجاوزا للحد بل يستخدم في ذلك " الإفـراط " الذى قرنه بالغلو وقد سبق أن رأينا مثل ذلك عند أبي هلال والثعالبي ، وابن رشيق فهو يقول عن الإفراط : (هو الإسراف وتجاوز الحد ، يقال : أفرط في الشيء أسرف وتجاوز الحد)[٢] وإذا نقله إلى علم البيان يجعله ضدا للتفريط فيقول (أما التفريط والإفراط فهما ضدان أحدهما : أن يكون المعنى المضمر في العبارة ، دون مـا تقتضيه منزلة المعبر عنه . والآخر أن يكون المعنى فوق منزلته)[٣] . ومما يدل علـى تخصيصه الإفراط بما تجاوز الحد أو كان المعنى فيه فوق منزلته عدم اطلاقه على اللـه سبحانه وتعالى لأنه مهما ذكر به من المعاملات في صفاته فإنه دون ما يستحقـه)[٤] . وأما المبالغة فلأنها لا تصل الى هذه الدرجة المتجاوزة للنهاية والغاية فقد أطلقها على صفات الله سبحانه وتعالى كما رأينا اثناء حديثه عن المبالغة في اللفظة المفردة .

ومما حكم عليه بالإفراط والغلو والمغالاة قول عنترة :

وأنا المنيّـة في المواطن كلهـا ... والطعـن مني سابق الآجـال

وقال (وقد يروى بالياء ، وكلا المعنيين حسن ، الا أن الياء أكثر غلوا)[٥]

وقال عن أبي الطيب المتنبي :

(وقد استعمل أبو الطيب المتنبي هذا القسم في شعره كثيرا ، فأحسن فـي

---

(١) المصدر السابق : ٣٩٦، ٣٩٧ (٢) المصدر السابق : ٢/ ٣١٦
(٣) المصدر السابق : ٢/ ٣١٦ (٤) المصدر السابق : ٢/ ٣٣٢
(٥) المصدر السابق : ٢/ ٣٣٢

مواضع منه فمن ذلك قوله :

عجاجا تعثر العقبان فيه　　　　كأن الجو وعث أو خبار (١)

ثم أعاد هذا المعنى في موضع آخر فقال :

عقد سنابكها عليها عثيرا　　　　لو تبتغي عنقا عليه لأمكنا

وهذا أكثر مغالاة من الأول (٢) .

---

(١) الوعث من الأرض : السهل الكثير الرمل ، الخبار : الأرض اللينة (التبيان شرح الديوان : ٢ / ١٠٣) .

(٢) المثل السائر : ٢ / ٢٣٤ ، ٢٣٥

٢ ــ مدرسة التلخيص وشروحه

إنّ هذه المدرسة التي تبتدئ بالسكاكي ، ويمتد بتيارها الخطيب القزويني وشراح التلخيص من بعده لتتحمل مسئولية كبيرة في انحدار البلاغة ، إذ أنها ابتداء من السكاكي قد غمست قواعد البلاغة في بحار من العلوم العقلية من منطق وفلسفة وجرت في ذلك إلى غاية بعيدة المدى ، كانت أولى الخطوات الواسعة ــ بعد قدامة ــ في النزول بالبلاغة إلى هذا الدرك الشائن الذي هي عليه الآن وقد صادفت هذه الطريقة رواجا عند المتأخرين حتى يخيل إليك وأنت تقرأها أنك أمام عدة علوم قوامها المنطق والفلسفة وعلم الكلام . وما إليها (١) ويصور لنا الدكتور احمد ابراهيم موسى ما لقيه البديع وأخواه المعاني والبيان على يد هذه المدرسة بقوله (فلما كانت أواخر القرن السادس وأوائل السابع ، أخذ البديع ــ كزميليه ينحدر رويدا رويدا ، إلى هاوية الإسفاف ، والانحطاط ، ويفقد صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الإشراق والإعجاب ، ويتعثر في قيود ضيقة قدها له المنطق والفلسفة ، حتى صارهم العلماء تحديد ألوانه والاكتفاء بتحديدها كما تحدد الكلمات اللغوية ، وسوق الأمثلة التقليدية التي يتوارثونها لكابر عن كابر حتى أصبحت الكتب الكثيرة التي ألفت فيه بعد السكاكي كأنها كتاب واحد ، فمن وقف على أحدها غنى به عما عداه ... وقد زاده تعثرا على مر الزمن وقوعه فريسة للشراح والمقررين الذين يرون أن الحذق والتمهر إنما يظهران في العناية ، بالجدل الذي لا يفيد ، وافتراض الاعتراضات والشبه ، ثم الاشتطاط في الإجابة عليها مما قضى على البديع ، وذهب بروعته الأدبية وأورده موارد العقم والجمود) (٢) .

ومن هنا فإنا لا نتوقع أن نرى عند هذه المدرسة فهما جديدا للمبالغة ، بل على العكس من ذلك نجد عندها تضييقا لها وحصرا في دائرة الإدعاء والكذب والتجوز والاستحالة ، إذ خضعت لتقسيم منطقي يربطها بالواقع والعادة إذ عرفها الخطيب بقوله (والمبالغة أن يدعي لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدًا مستحيلا أو مستبعدا لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف) (٣) وحصرها في التبليغ والإغراق ، والغلو ، فقال (وتنحصر في التبليغ ، والإغراق ، والغلو لأن المدعى إن كان ممكنا عقلا وعادة فتبليغ كقوله :

فعادى عداء بين ثور ونعجة ... دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

وإن كان ممكنا عقلا لا عادة فإغراق كقوله :

---

(١) الصبغ البديعي : ٢٤٦ ، ٢٤٧ (٢) المرجع السابق : ٢٤٣
(٣) الإيضاح ضمن شروح التلخيص : ٤/٣٥٨

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

وهما مقبولان ، وإلا فغلو كقوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق (١)

وسنعود إلى مناقشة هذا التقسيم ، وما بني عليه . عندما نتناول المبالغة في البديع بإذن الله ، وحصر المبالغة وأنواعها في البديع ، وحملها على الإدعاء والتجوز جعل أحد أعلام هذه المدرسة وهو البهاء السبكي ، يحمل المبالغة في اللفظة المفردة على المجاز ويجعل المبالغة فيها مصطلحا خاصا باللغويين والنحاة فهو يقول (ما ذكر المصنف من المبالغات هو فيما يتعلق بالمركبات ، وذكر جماعة المبالغة على وجه يعم المفرد والمركب ، فقال الرماني : (المبالغة على ضروب منها : المبالغة في الصفة المعدولة غير الجارية فانها جاءت على فعلان ، وفعّال ، وفعول ، وفعيل ، ومِفعَل معدول عن فاعل مثل مدعسي عن داعس، ومِطعَن عن طاعن ، ومفعال مثل مِطْعام ، وزاد عبد اللطيف البغدادي في قوانين البلاغة فزاد فيها مفعيل وفعيل ، وفَعل وفَعال في النداء مثل يا لكع ، ويالكاع ، قال الجاحظ (قالوا للفارس شجاع ، فان زاد قليلا قالوا : بطل ، فإن زاد قالوا : بهمة ، فإن زاد قالوا كمي ، فإن زاد قالوا صنديد ، فإن بلغ الغاية قالوا أليس ، وكذلك يجرى الحال في سائر الطبقات مثل الكريم والحليم والبخيل والعالم والجاهل) . ويضيف السبكي قائلا (وقد ذكر الثعالبي في فقه اللغة كثيرا من هذا النوع ، وذكر ابن الشجرى من الأمثلة المحولة للمبالغة فَعل وفعال ومِفعَال ، وذكر أيضا مَفعَلان في النداء مثل يا مَكذَبان ويا مَكلَمان وما ذكرناه من صيغ المبالغة ليس مقتصرا عليه كما أفهمه كلامهما ، فإن للعرب أوزانا لا تكاد تستعمل إلا للمبالغة مثل فَعِل وفعيل مثل سكّيت ، وفُعَلَه مثل هُمَزَة لُمَزَة) (٢) ويضيف مخرجا هذه المفردات من المبالغة قائلا (وأما ذكر هذه الصيغ من أنواع المبالغات ففيه نظر لأن معنى كون هذه الألفاظ للمبالغة أن العرب وضعتها لذلك المعنى يفيد كونه كثيرا فوصفت العرب راحما ليفيد أصل الرحمة ، ووضعت رحيما ليفيد رحمة كثيرة ، فرحيم معناه راحم كثيرا فالمعنى المستفاد منه أبلغ من المعنى المستفاد من صيغة راحم ، وهذا المعنى ليس هو المذكور في علم البديع ، لأن المبالغة في البديع أن تدعي لوصف بلوغه في الشدة والضعف لحد مستحيل أو مستبعد ليعلم بذلك أن مبناه في أحدهما فلا بد فيه حينئذ من التعبير عن الواقع من تلك الصفة بعبارة موضوعة لأكثر منه على سبيل المجاز ، فأنت إذا قلت عن شخص كثير الرحمة هو

---

(١) المصدر السابق : ٣٥٩/٤ ، ٣٦١

(٢) عروس الافراح ضمن شروح التلخيص : ٣٦٧/٤

رحيم . فهذه ليست مبالغة لأنك أخبرت عنه باشتماله من الصفة على الكثرة التي هي موضوع رحيم ، كما أنك إذا قلت عنه أنه كثير الرحمة لم تبالغ ، وكما أنك إذا قلت عندى ألف ليس فيه مبالغة بالنسبة إلى من قال عندى واحد ، ولا بأس في المبالغة من تجوز ، نعم تحسن المبالغة إذا قلت زيد رحيم ولم يكن كثير الرحمة بل أردت أن تبالغ في الرحمة اليسيرة الواقعة منه لغرض من الأغراض ، فهذه حينئذ مبالغة ، وكذلك إذا قلت عندى ألف رجل ، وأردت مائة تعظيما لهم ، فقد تبين بذلك أن هذه الألفاظ ليست موضوعة للمبالغة البديعية ، وأن من يطلق عليه المبالغة فذلك بحسب اصطلاح النحاة واللغويين نظرا إلى ما دل عليه بالنسبة الى ما دل عليه مطلق اسم الفاعل فليتأمل)[١] .

وقد دعاه هذا المفهوم للمبالغة الذى يقرنها بالادعاء والتزيد أن يقول (سمعت بعض المشايخ يقول إن صفات الله تعالى التي هي على صيغة المبالغة كغفار ورحيم وغفور ومنان كلها مجازات وهي موضوعة للمبالغة ، ولا مبالغة فيها لأن المبالغة أن يثبت للشيء اكثر مما له ، وصفات الله تعالى متناهية في الكمال ، لا تمكن المبالغة فيها ، والمبالغة أيضا تكون في صفات تقبل الزيادة والنقص وصفات الله تعالى منزهة عن ذلك ، وعرضت هذا الكلام على الوالد فاستحسنه ، ولا شك أن هذا انما يأتي تفريعا على أن هذه الأسماء صفات ، فان قلنا أعلام فلا يرد السؤال ، لأن العلم لا يقصد مدلوله الأصلي من مبالغة ولا غيرها ، وسمعت بعض أهل العلم يقول ، إنما لم يوجد لكثير من الشعراء المسلمين كثير من الشعر يمدحون به رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الشعر إنما يحسن بالمبالغة ، وهي متعذرة في حقه صلى الله عليه وسلم لأن المادحين وإن بذلوا جهدهم لا يصلون الى قطرة من بحره عليه أفضل الصلاة والسلام)[٢] .

ومبنى هذا الكلام يقوم على التنائي عن مفهوم المبالغة الأصلي في الدلالة على الوصول الى الغاية ، والتناهي في أداء المعنى ، الى التجاوز بها عن النهاية والغاية الى الكذب والإدعاء ، والإسراف .

---

(١) المصدر السابق ٤/٣٦٧ ، ٣٦٨

(٢) المصدر السابق : ٤/٣٦٨

٣ ـ الإمـــام العلـــوى

وأما أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوى المتوفي سنة ٧٤٥هـ. فنحن ذاكروه هنا ، لأنه صاحب بحث مستقل في كتابه الطـراز المتضمـن لأسرار البلاغة ، وحقائق علوم الإعجاز لم يعتمد فيه على المفتاح ، وإنما كانت لـه مصادر أخرى أشار إليها ـ وإن كان بعضها يمثل أصولا لمفتاح العلوم الذى قـام عليه التلخيص وشروحه ـ لنرى الى أى حد وصلت المبالغة عنده ؟ هل انحصـرت في الإدعاء والإفراط والتجوز ؟ كما رأينا عند مدرسة التلخيص ، أوأنها لا زالـت تحمل شيئا من دلالتها الأصلية في بلوغ الغاية والوصول إلى النهاية كما رأينـا عند كثير من العلماء السابقين الذين سبقت الإشارة إليهم ؟ !

لقد حاول الإمام العلوى أن يظهر لنا من خلال مقدمة كتابه . أنه يتخـذ في التأليف البلاغي منهجا وسطا بين من يخلطون مباحثهم البلاغية بالأدب ، وبين من يلخصونها، ويقررون قواعدها، ويحصرون أمثلتها حيث قال عن منهج تينك الفئتين (فمنهم من بسط كلامه فيه نهاية البسط ، وخلط فيه ما ليس منه فكان آفته الإملال ، ومنهم من أوجز فيه غاية الإيجاز ، وحذف منه بعض مقاصده فكان آفته الإخلال) وأشـار الى أنه طالع من الدواوين المؤلفة فيه اربعة كتب هي : المثل السائر للشيخ أبـي الفتح نصر بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير .

وكتاب التبيان للشيخ عبد الواحد بن عبد الكريم ، وكتاب " النهاية " لابـن الخطيب الرازى ، وكتاب " المصباح " لابن سراج المالكي .

وأشار الى مكانة الإمام عبد القاهر في علم البيان وأنه أول من أسس من هـذا العلم قواعده ، وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ، ورتب أفانينه ، وقال عن كتابيـه (وله من المصنفات فيه كتابان ، أحدهما لقبه " بدلائل الإعجاز " والآخر لقبـه " بأسرار البلاغة " ولم أقف على شيء منهما مع شغفي بحبهما ، وشدة إعجابي بهما ، الا ما نقله العلماء في تعاليقهم منهما)[1] .

ولقد حمل في كتابه هذا على الذين يخلطون المنطق بعلم البيان قائـلا " فإن موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، ومعرفة أساليبهما ، وهما بمعزل عن المنطق ، فلا ينبغي أن يمزج أحدهما بالآخر لاختلاف حقائقهما)[2] .

وأما منهجه في المبالغة فقد كان فيه قريبا من منهج مدرسة التلخيص إذ عدها من أنواع البديع فيما يتعلق بالفصاحة المعنوية تماما كما فعلت مدرسة التلخيـص

---

(١) الطراز : ١/ ٣ ، ٤ (٢) المصدر السابق : ١/ ٣٧

وعرفها تعريفا مقاربا لتعريفهم قائلا بأنها في مصطلح علماء البيان (هي أن تثبت للشيء وصفا من الأوصاف تقصد فيه الزيادة على غيره ، إما على جهة الإمكان ، أو التعذر أو الاستحالة) وعندما جاء الى ذكر أنواعها ربطها بالإدعاء كما فعلوا ، وقسمها الى أقسامها الثلاثة عندهم ، من تبليغ ، وإغراق ، وغلو ، مستبدلا التبليغ بالمبالغة فقال " اعلم أن المبالغة ترجع حقيقة أمرها الى دعوى المتكلم للوصف اشتدادا فيما سبق من أجله على مقدار فوق ما يسلّمه العقل ، ويستقربه ، ثم ذلك المقدار في نفسه إما أن يكون ممكنا أو غير ممكن ، والممكن إما أن يكون واقعا أو غير واقع ، فدعوى كون الوصف على مقدار مستبعد يصح وقوعه عادة يسمى مبالغة ، ودعوى كون الوصف على مقدار ممكن يمتنع وقوعه عادة ، يسمى إغراقا ، ودعوى كون الوصف على مقدار غير ممكن يسمى غلوا)[١] ، ولقد جعل مما يستبعد في العقل ويصح وقوعه قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذّل من الرحمة)[٢] وقوله عز وجل (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)[٣] ولست أدري ما الذي دعاه الى ربط مفهوم المبالغة بالإدعاء والاستبعاد العقلي – ومن ثمّ ادخال استعارات القرآن الكريم في هذا الحكم – مع أن في دلالة المبالغة الأصلية في اللغة والتي قال عنها (وهي مصدر من قولك : بالغت في الشيء مبالغة إذا بلغت أقصى الغرض منه)[٤] مندوحة له عن هذا الحكم الجائر على آي الكتاب العزيز ، وقصر بالمبالغة فيها عن الإسراف والإفراط في حدود أقصى الغرض وغايته ، مع إن المبالغة ليست وظيفة الاستعارة الوحيدة وليست هي الوظيفة التي نركن إليها ، ونستريح من عناء البحث في الاستعارة كما سنرى في الفصول القادمة

وأما ما ادخله تحت المبالغة من أساليب فقد حصره في طرق ثلاث :

الطريق الأولى :

١ – استعمال اللفظ في غير ما وضع في الأصل وجعل من ذلك الاستعارة ، والكناية والتمثيل قال في هذا الطريق (أن يستعمل اللفظ في غير ما وضع له في الأصل اما على جهة الاستعارة أو الكناية ، أو التمثيل . . . فإنه إنما استعمل فيها على تلك الأوجه من أجل المبالغة في معناها ، فإن قولنا : مررت بالرجل الأسد يخالف قولنا مررت بالرجل الشجاع البالغ في الشجاعة كل مبلغ ، وما ذاك إلا لما فيه من المبالغة بكونه مجازا)[٥] .

---

(١) المصدر السابق : ٣/ ١٢٥ (٢) سورة الاسراء : ٢٤
(٣) سورة النحل : ١١٢ (٤) الطراز : ٣/ ١١٦
(٥) المصدر السابق : ٣/ ١٢٢

الطريق الثانية :

وأما الطريق الثانية فقال فيها (أن ترادف الصفات وتكون متكررة لإعظام حال الموصوف ، ورفع شأنه ، ومن أجل قصد التهويل في المعنى المقصود واشادة أمره من مدح أو ذم)[١] . وجعل من ذلك قوله تعالى (الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار نور على نور)[٢] . وعلق بقوله (فانظر الى تعديد هذه الجمل ، ومجيئها من غير حرف عطف ، كيف أفادت المبالغة في حال الموصوف ، وأشادت من قدره ، ورفعت من حاله وأبانت المقصود على أحسن هيئة)[٣] واذا علمنا ان هذه الآية تتحدث عن نور الله عز وجل فكيف يكون فيها الرفع من حاله ؟ وكان علينا أيضا أن نفهم المبالغة في حاله بمفهوم يخالف مفهومها عنده الذى يجعلها دعوى ، ويجعلها مما يستبعد في العقل فنفهمها حسب مدلولها اللغوى ، الذى يدل على بلوغ الغاية في الوصف .

وجعل من ذلك قوله تعالى (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها)[٤] حيث قال : فتأمل هذه الأوصاف في نعت النور والظلمة ، كيف أصابت المحز وطبقت المفصل في تحصيل المقصود ، واظهار المبالغة فيه كما ترى)[٥] . وعلينا أيضا أن نفهم المبالغة فيها كما فهمناها في الآية الأولى وكما يجب أن نفهمها في القرآن الكريم عموما أنها تبلغ بالكلام الغاية في الوصف ، والنهاية في المعنى دون تجاوز لذلك الى الادعاء والإسراف والإفراط وغير ذلك من المسميات الجائزة التي ارتبطت بالمبالغة .

الطريقة الثالثة :

وأما الطريقة الثالثة فهي عنده : (إتمام الكلام بما يوجب حصول المبالغة فيه ، وإكماله به ، وهذا كقول من قال يمدح نفسه وقومه :

ونكرم جارنا ما دام فينا ... ونتبعه الكرامة حيث كانا

فإنه لم يكتف بما صدره في أول البيت من مقدار ما هو عليه وقومه من الإحسان الى الجار والقيام بحقه ، وبذل الجهد في المعروف إليه ، حتى شفعه بقوله (ونتبعه الكرامة حيث كانا) مشتملا على زيادتين ، الزيادة الأولى لحوق الكرامة له

---

(١) المصدر السابق : ٣/١٢٢ ، ١٢٣ (٢) سورة النور : ٣٥
(٣) الطراز : ٤/١٢٣ (٤) سورة النور : ٤٠
(٥) الطراز : ٣/١٢٣

من الاتحاف والإلطاف وكثرة الإحسان والتبجيل ، والتعظيم ، والزيادة الثانية قوله " حيث كانا " وأراد به حيث يسير من سائر الجهات من بر أو بحر أو سهل أو جبل فحصول هاتين الازيادتين قد اشتمل على المبالغة فيما ذكرناه)[1] .

وسنناقش مستقبلا ان شاء الله هذا التصور للمعنى ، وكيفية الحكم بالزيادة فيه ، وهل ذلك يصح أو لا ؟

---

(١) المصدر السابق : ١٢٣/٣

الباب الثاني

أساليب المبالغة في البلاغة العربية

الفصل الأول :
أساليب المبالغة في علم البيان

الفصل الثاني :
أساليب المبالغة في علم المعاني

الفصل الثالث :
أساليب المبالغة في علم البديع

الفصـــــــــل الأول

المبالغــة في علــم البيـــــــان

١ ـ المبالغة في التشـــــبيه

كثرت الدراسات التي قام بها المحدثون لبيان منظور البلاغة العربية والنقـــد العربي إلى التشبيه وتكاد تجمع هذه الدراسات على أن غالب هذا المنظور يـرى أن فكرة التشبيه هي تمثيل شيء بشيء لتقريره وتوضيحه أو توكيده والمبالغة فيه (١) يقـــول الرماني (والأظهر الذى يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه : منها إخراج مالا تقـــع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة . ومنها إخراج ما لم تجربه عادة إلى ما جرت بـــه عادة ، ومنها إخراج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، ومنها إخراج مـــا لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة) (٢) ولقد أعاد أبو هلال العسكرى هذه الأوجـه ومثل لها بأمثلة قرآنية تحت قوله : (وأجود التشبيه وأبلغه ما يقع على أربعة أوجه) (٣) وأضاف إليها قسما آخر أوضحه بقوله : (وقد جاء في أشعار المحدثين تشبيه ما يـرى العيان بما ينال بالفكر وهو ردىء ، وان كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافـة والدقة وهو مثل قول الشاعر :

وكنـــت أعــزّ عـــزّا من قنــــوع ... يعوضــه صفــوح من ملــــــــول

فصـــرت أذل من معنى دقيـــــق ... بــه فقـــر إلى فهـــم جليــــــل

كقول الآخر :

وندمـــان ســقيت الـراح صرفـــا ... وأفــق الليــل مرتفــع الســـــجوف

صفـــت وصفـــت زجاجتها عليهـــا ... كمعـــنى دق في ذهـــن لطيـــــف

فأخرج ما تقع عليه الحاسة إلى مالا تقع عليه ، وما يعرف بالعيان الى ما يعرف بالفكر ، ومثله كثير في أشعارهم) (٤) والذى دعاه إلى الحكم عليه بالرداءة فكرة التوضيح والإخراج التي رأى أن التشبيه يأتي لها (والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا ولهذا ما أطبق عليه جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهـــم عنه) (٥) ويقول ابن الأثير عنه وعن صور المجاز الأخرى من استعارة وتمثيل وكناية أن عملها هو (إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليـــه عيانا ، ألا ترى أن حقيقة قولنا : زيد أسد هي قولنا : زيد شجاع ، لكن الفرق بـــين

---

(١) انظر مثلا : فلسفة البلاغة : ٧٥ والصورة الأدبية : ٥٦ ـ ٦٤ والصورة الفنية : ٢٣٧

(٢) النكت في اعجاز القرآن : ٨١ (٣) الصناعتين : ٢٤٦ ـ ٢٤٨

(٤) الصناعتين : ٢٤٨ (٥) المصدر السابق : ٢٤٩

القولين في التصوير والتخييل واثبات الغرض المقصود في نفس السامع لأن قولنا : زيد شجاع لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجل جرىء مقدام ، فاذا قلنا زيد أسد تخيل عند ذلك صورة الأسد وهيئته ، وما عنده من البطش والقوة ودق الفرائس)[١] .

ويقول السكاكي (المشبه به من حقه أن يكون أعرف بجهة الشبه ، وأخص بها وأقوى حالا معها والا لم يصح أن يذكر لبيان مقدار المشبه ، ولا لبيان إمكان وجوده ، ولا لزيادة تقريره ... ولا لإبرازه في معرض التزيين .. أو التشويه ... أو الاستطراف)[٢]

ويقول العلوى : (اعلم أن الغرض من حال التشبيه أن يكون المشبه به أعظم حالا من المشبه في كل أحواله وقد يأتي على العكس كقول من قال :

وبدا الصباح كأن غرته ... وجهة الخليفة حين يمتدح

فبالغ حتى جعل المشبه أعلى حالا من المشبه به ، في الوضوح والجلاء ، لأن الغالب في العادة هو تشبيه بياض الوجه بغرة الفجر ، فأما ههنا فعلى العكس من ذلك)[٣] .

ومن هنا يبدو للمبالغة دور بارز في وظيفة التشبيه وتفسيره ، وهناك قسم من التشبيه خصوه بالمبالغة وجعلوها غرضه وهدفه وهو التشبيه الذى يجعل المشبه به ازاء المشبه دون ربط بأداة أو بيان اشتراك في صفة ، وسموا هذا التشبيه بالبليغ نظرا للدرجة التي يحتويها من المبالغة . يقول الامام عبد القاهر في ذلك (وههنا أصل يجب ضبطه وهو أن جعل المشبه به على ضربين أحدهما أن تنزله منزلة الشيء تذكره بأمر قد ثبت له فأنت لا تحتاج الى أن تعمل في اثباته وتزجيته . وذلك حيث تسقط ذكر المشبه من الشيئين ولا تذكره بوجه من الوجوه كقولك : رأيت أسدا ، والثاني أن تجعل ذلك كالأمر الذى يحتاج الى أن تعمل في اثباته وتزجيته . وذلك حيث تجرى اسم المشبه به صراحة على المشبه فتقول زيد أسد ، وزيد هو الأسد أو تجيء به على وجه يرجع الى هذا كقولك : إن لقيت به أسدا ، وان لقيته ليلقينك منه الأسد ، فأنت في هذا كله تعمل في إثبات كونه أسدا أو الأسد وتضع كلامك له ، وأما في الأول فتخرجه مخرج مالا يحتاج فيه الى إثبات وتقرير . والقياس يقتضي أن يقال في هذا الضرب أعني ما أنت تعمل في اثباته وتزجيته أنه تشبيه على حد المبالغة ويقتصر على هذا القدر ولا يسمى استعارة)[٤] . والأساس في هذا التفريق هو قول القاضي عبد العزيز الجرجاني (وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة أو تشبيه أو مثل ، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عدّ فيها قول أبي نواس :

---

(١) المثل السائر : ٢/٦٣ (٢) مفتاح العلوم : ١٤٧
(٣) الطراز : ٣/٣٢٧ (٤) دلائل الاعجاز : ٥٣ ، ٥٤

والحب ظهر أنت راكبـــه فـإذا صرفت عنانه انصرفـــا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر ، أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو اما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء وإنما الاستعارة ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها ...) (١) .

ولقد أفاض الامام عبد القاهر في الاحتجاج والجدل لتفريق بين النوعين مشيرا إلى كلام القاضي الآنف الذكر (٢) .

والذى دعانا الى ذكر هذا التفريق بينهما الدلالة على أن التشبيه عندهم هو محض مقارنة بين طرفين متمايزين لاشتراك بينهما في الصفة (٣) (مرة في نفسها وحقيقة جنسها ، ومرة في حكم لها ومقتضى فالخد يشارك الورد في الحمرة نفسها ، ونجدها في الموضعين بحقيقتها ، واللفظ يشارك العسل في الحلاوة لا من حيث جنسها بل من جهة حكم وأمر تقتضيه وهو ما يجده الذائق في نفسه من اللذة والحالة التي تحصل في النفس إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل الى الطبع ويقع منه بالموافقة (٤)) . ويضيف في التفريق بين هذين الضربين من الاشتراك في الصفة قائلا (وأما الضرب الأول فاذا كان المثبت من الشبه في الفرع من جنس المثبت في الأصل ـ الفرع هو المشبه والأصل هو المشبه به ـ كان أصلا بنفسه ، وكان ظاهر أمره وباطنه واحدا وكان حاصل جمعك بين الورد والخد أنك وجدت في هذا وذاك حمرة ، والجنس لا تتغير حقيقته بأن يوجد في شيئين ، وإنما يتصور فيه التفاوت بالكثرة والقلة والضعف والقوة ، نحو أن حمرة هذا الشيء أكثر وأشد حمرة من ذلك . وإذا تقررت هذه الجملة حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيقي الأصلي هو الضرب الأول ، وأن هذا الضرب فرع له ومرتب عليه ... ومعلوم أن هذه القضية إنما توجد على الاطلاق والوجود الحقيقي في الضرب الأول .. وأما الضرب الثاني فانما يجيء فيه على سبيل التقدير والتنزيل فأما ألا نجد فصلا بين ما يقتضيه العسل في نفس الذائق ، وما يحصل باللفظ المرضي والكلام المقبول في نفس السامع فذلك لا يمكن ادعاؤه الا على نوع من المقاربة أو المجازفة ، فأما على التحقيق والقطع فلا (٥)) .

وقد أشار الجاحظ الى هذه الحدود المتميزة للطرفين بقوله (وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء الانسان بالقمر والشمس ، والغيث والبحر ، وبالأسد والسيف وبالحية وبالنجم ، ولا يخرجونه بهذه المعاني الى حد الانسان ، وإذا ذموا قالوا :

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه : ٤١ (٢) اسرار البلاغه ٢/٨٨/٩٩
(٣) الصورة الفنية : ٢٠٨ (٤) اسرار البلاغة : ١/٢٠٢ ـ ٢٠٦
(٥) المصدر السابق : ١/٢٠٧ ـ ٢٠٩

هو الكلب والخنزير ، وهو القرد والحمار وهو الثور ، وهو التيس ، وهو الذيب ، وهو العقرب وهو الجعل ، وهو القرنبي ، ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم ، ولا يخرجون بذلك الإنسان الى هذه الحدود وهذه الأسماء . وسموا الجارية غزالا ، وسموها أيضا خشفا . . . وخيزرانا على ذلك المعنى ، وصنعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب فذكروا الأسد والثور ، والحمل والجدى والعقرب والحوت ، وسموها بالقوس والسنبلة والميزان وغيرها . وقال في ذلك ابن غسله الشيباني :

فصحوت والنمرى يحسبها ... عمّ السّماك وخالة النجم

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (نعمت العمة لكم النخلة خلقت من فضله طينة آدم) وهذا الكلام صحيح المعنى ، لا يعيبه الا من لا يعرف مجاز الكلام وليس هذا مما يطّرد لنا أن نقيسه ، وانما نقدم على ما أقدموا ونحجم عما أحجموا وننتهي الى حيث انتهوا . . .) (١) فما دام أن الطرفين متمايزان فعملية التشبيه هي الحاق فرع بأصل كما رأينا عند عبد القاهر مثلا وهذا الالحاح لا يتم الا لأجل المشابهة في الصفة المشتركة ، وبيان مقدار توفر الصفة في الفرع . . ومن ثم كانت الصفة الموجودة في المشبه به نموذجا يرفع المشبه إليه لتوضيح المشبه وتقريره أو تأكيد الصفة في الفرع والمبالغة فيها . يقول الدكتور مهدى صالح السامرائي (وفي ضوء فكرة التوضيح والحاق الأصغر بالأكبر فهم البلاغيون التشبيه على أنه صورة من صور المبالغة) (٢) وقد فسر الامام عبد القاهر معنى المبالغة بقوله : (ان المشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر الى الوصف الذى يجمع بين الشيئين وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة فاذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه وألقى ما عداها فلم ينظر اليه . فان قال : زيد كالأسد كان قد أثبت له حظا ظاهرا في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد . وإذا قال هو الأسد تناهى في الدعوى اما قريبا من الحق لفرط بسالة الرجل واما متجوزا في القول فجعله لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئا) (٣) . وقد اعترض الدكتور مهدى صالح السامرائي على هذا المفهوم مبينا أنه إذا ألقى المشبه زيدا في الأسد صورة الشجاعة بين عينيه وغض النظر عما سواها فسيكون حاله حال من يفهم معنى الشجاعة من كلمة " شجاعة " لأنه في هذه الحالة يقطع معنى الشجاعة عن مصدره — المشبه به — المشبه . وإذا قطع معنى الشجاعة عن الطرفين فكيف يتحصل مفهوم المبالغة ؟ ويقول (الواقع أننا ننظر الى الشجاعة في التشبيه من خلال صورة الأسد ، من خلال لبدته ونيوبه وأظفاره وزئيره . . . وفي التشبيه صورتان موجودتان

---

(١) الحيوان : ١/٢١١ ، ٢١٢

(٢) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية : ٢١٢

(٣) أسرار البلاغة : ٢/١٠٥

احداهما تعطي والأخرى تأخذ . وهذا الأخذ والعطاء هو أساس حيوية التشبيه (١)
وفي الحقيقة أن الدكتور واقع أيضا في حبائل النموذج ولا زال يفهم من هذا التشبيه نموذج الشجاعة الذى فهمه عبد القاهر والبلاغيون !!

والذى جنى على التشبيه هذه الجناية وأخضعه لفكرة النموذج والقياس أن بحثه كان في أى عمل فني هو البحث في مثال مجرد تحده حدود الجملة التي تؤخذ مثالا للدرس والتعليم ثم ينطبق مجيئها على العمل الفني على أساس أن اللغة قوالب جاهزة يفرغ فيها الابداع الفني بينما لا يحدد الكلمة في المجال الفني الا سياقها الذى قيلت فيه فالشاعر كما يقول جان بول سارتر (أبعد ما يكون من استخدام اللغة أداة ، وقد اختار طريقه اختيارا لا رجعة فيه . وهو طريق فرضه عليه مسلكه الشعرى في اعتبار الكلمات أشياء في ذاتها وليست بعلامات لمعان . . فالناثر دائما وراء كلماته متجاوز لها ليقرب دائما فن غايته في حديثه . ولكن الشاعر دون هذه الكلمات لأنها غاية والكلمات للمتحدث خادمة طيعة وللشاعر عصية أبية المراس لم تستأنس بعد ، فهي على حالتها الوحشية ، والكلمات للمتحدث اصطلاحات ذات جدوى ، وأدوات تبلى قليلا قليلا باستخدامها ، ويطرح بها حين لا تعود صالحة للاستعمال ، وهي للشاعر أشياء طبيعية تنمو طبيعية في مهدها كالعشب والأشجار) (٢) .

ولقد قسمت النظرة الجزئية التشبيه على ضوء العلاقة المنطقية بين طرفيه المسند والمسند اليه ، بين الاصابة والافراط والمقاربة والبعد يقول المبرد :

(والعرب تشبه على أربعة أضرب ، فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام) (٣) . ولكن هذا التقسيم المنطقي للتشبيه على ضوء المقابل الخارجي . وعلى ضوء الدرجة من وجه الشبه بين الأصل والفرع أمر يجني على عملية الخلق الأدبي ويقصر بالنقد عن بلوغ المستوى الفني للكلام . . اذ أن المقاييس التي يأخذها الناقد من قواعد البلاغة في التشبيه قوانين مستقراة من أمثلة جزئية على ضوء تلك العلاقة المنطقية . . طبقت على كل عمل أدبي فألغت بذلك شخصية القائل ، وحجبت النقد عن تقدير الإبداع فيه وان أبقت على شيء يحمد للقائل فيه إبداعه وابتكاره فان مرد ذلك الابداع والابتكار الى استطراف وغرابة وشحذ ذهن في الحصول على شبه خفي ، ومن ذلك نظرتهم الى قول امرىء القيس

نظرت اليها والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تشب لقفال

التي بين الدكتور مصطفى ناصر سطحيتها وقصورها عن سبر أغوار الكلام في سياقه

---

(١) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية ١١٢ (٢) ما الأدب : ١٤ ، ١٥
(٣) الكامل : ٢ / ١٠١

الذى وجد فيه وذلك حيث يقول (فمن مسخ التشبيه بالمبالغة أن تقول انه شبه النجوم بمصابيح الرهبان لأنها في السحر يضعف نورها كما يضعف نور المصابيح الموقدة ليلها أجمع ، وأن القفال يرجعون من الغارات وجه الصبح ، فاذا رأوها أول الصبح وقد خمد سناها فكيف كانت أول الليل ، والصورة بريئة من ذلك كله ، فانها قامت على القرآن بين القفال من الغزوات والرهبان غلبهم النعاس بعد تعبد ومناجاة ، وتقوم على المجاورة بين نار تشب لقفال ، ومصابيح توقد لعباد ، وتضع النار والمصابيح معا في مساق واحد ، ولا علاقة لهذا الفهم بأن تكون النار أول الليل واضحة وأن تكون النجوم أول الصبح خافتة)[١] . ثم يفسر سبب التعلق بهذا التفسير البسيط (المبالغة) بقوله : (لقد كان للجو التعلمي للغة ـ لبعد المسافات بينها وبين الحياة تباعا ـ آثار هائلة في افساد فقه المعنى الأدبي ، والاخلال بموجبات التفكير في تعقده جزئيا وراء الساذج الشعبي من التفسير)[٢] .

والتفسير بالمبالغة هو الذى يحجبنا عن رؤية الابداع في مثل قول أبي الطيب المتنبي :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم[٣]

فلو قلنا من خلال المنطق البلاغي ، شبه الشاعر نفسه بالثريا تشبيها بليغا وشبه العيب والنقص بالشيب والهرم تشبيها بليغا أيضا ... وأخذنا نبحث عن وجه الشبه ودرجة الادعاء في التشبيه فان هذا يحجبنا عن أبعاد أخرى لسياق الكلام يمكن أن نفهمها من سياق القصيدة ... فالشاعر في هذه القصيدة معتد بذاته أيّما اعتداد .. فهو يوجد نفسه وسط هذا البلاط المشحون بالغيرة والحقد عليه ... ويقيم لذاته وجودا آخر يرتفع عن هؤلاء ويظل يرتفع حتى يصبح كائنا لا يناله أذى هؤلاء وحسدهم وذلك الايجاد ينبت نبتا خلال سياق القصيدة فالشاعر في البداية يتحدث بضمير المتكلم :

يا أعدل الخلق الا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ثم تبرز لنا بعد ذلك ذاته المتفردة المتميزة :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شوارد ها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

ومرهف سرت بين الجحفلين به ... حتى ضربت وموج الموت

فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

---

(١) الصورة الأدبية : ٦٣ (٢) المرجع السابق : ٦٣

(٣) التبيان في شرح الديوان : ٣/٣٧١

صحبت في الفلوات الوحش منفردا   حتى تعجب مني القور والأكم

ثم ترتفع هذه الذات ويتحدث عنها بضمير الجمع " نا "

يا من يعز علينا أن نفارقهم   وجداننا كل شيء بعدكم عدم

بل يسمو بها إلى درجة تقف موقف الند من سيف الدولة ،

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة   لو أن أمركم من أمرنا أمم

وتصعد هذه الذات في سموها فترتفع الى مقام أكبر من ذلك بكثير فتصبح كائنا آخر يبهر البشر ويتطلعون اليه فلا يظفرون بمداه ... فيصبح هو الثريا . ولكن هل تبقى الثريا في السياق هي ذلك النجم المرتفع في السماء أو تنبت في السياق نبتا جديدا ؟

في البيت عملية صراع بين العيب والشرف .. العيب أمر مهانة وذلة والشرف أمر عز وكرامة ... العيب انحدار وسقوط والشرف ارتفاع وسمو .. الشرف يرتفع الى الثريا والعيب والنقصان يزرى بمن يلحق به ويشيبه ويهرمه .. ونلاحظ عملية انبات الثريا في السياق نبتا جديدا ونموها نماء آخر اذ لم تعد الثريا هي ذلك النجم المرتفع في السماء وانما هي رمز لارتفاع الذات وسموها .. ولم يعد هناك مجال مقارنة بين الشاعر والثريا ، ولم تعد أنا شيئا منفصلا عن الثريا بحرف تشبيه مقدر ... فالشاعر ارتفع عن العيب والنقصان الى الشرف وارتفع به الشرف عن الانحدار والسقوط في الثرى الى الثريا رمز الارتفاع والاستمرار ... بينما بقي العيب والنقصان في انحدارهما وسقوطهما حتى وصلا الى مرحلة الشيب والهرم ، وعلى كل فكلمة الثريا لها حياتها ونشاطها النابعة من داخل سياق القصيدة ، ومن داخل سياق البيت ولم تبق منفصلة بمعناها الوضعي المحدد وانما أوجد بها الشاعر ذاته المتفردة المتميزة التي ظلت في سموها وارتفاعها حتى تعلقت بها كرمز للسمو والارتفاع يقاوم علامات السقوط والانتهاء .

والآن نستطيع أن نشير الى أن (الصورة التشبيهية ليس المقصود منها مثلا اعطاء مبالغات ذهنية سقيمة ، أو كما يعبر البلاغيون بزيادة الصفة في المشبه به ، بل إن المطلوب أن تتعانق الصورة واجزاؤها مع السياق العام الذى يولد علاقة رمزية تشير الى المتلقي تجاه نقاط تفجر كل واحدة منها طاقات فنية ذات آثارات نفسية خاصة)(١) . وذلك لا يتم إلا إذا عرفنا أن (قيمة التشبيه لا يكتسبها من طرفيه فقط ، ولا من وجه الشبه القائم بينهما بقدر استمدادها من الموقف الذى يدل عليه السياق ويستدعيه الحس الشعورى المنبت خلال الموقف التعبيرى ، كذلك فان النص اللغوى يضفي حياة على الصورة التشبيهية ، ويكسبها ظلالا إيحائية لا يستطيع التشبيه بطرفيه أو بوجهه أن يقوم بها)(٢)

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور : ١٧٥ (٢) المرجع السابق : ١٧٥ ، ١٧٦

ومثل هذه النظرة الى التشبيه تحترم العمل الأدبي ، ونقدر تمييز كل عمل وتفـــرده ، وتخرجه من الدخول تحت أحضان قواعد كلية يقودنا تطبيقها على العمل الأدبي الـى تشبيه بالمبالغة والتزيد وحصر عمل الأديب في ادراك المشابهة والبحث عنها اما ادعـا أو قريبا من التحقيق والصدق وذلك لأن التشبيه يتجاوز العلاقات المنطقية العامة الى احداث علاقات جديدة داخل العمل الأدبي لأنه (لا يعني تحقق معنى واحدا ينقل آليا من المشبه الى المشبه به بل انه يولد في الطريق ايحاءات قتالية تظل تتـــاوش طرفي التشبيه وهو يؤدى متصلا بسابقه ولاحقه دورا فنيا في العمل الفني بأكمله) (١) . وهذه الولادة للايحاءات التي تولد داخل سياق العمل سواء كانت ايحاءات قتاليـة أم لا فان البحث عنها هو الذى يفتح مغاليق العمل الأدبي التي لا يمكن للعلاقة الآليـة بين طرفي التشبيه أن تفتحها اذ أن تلك العلاقة تنظر الى العمل الأدبي على أساس مدى تحقق أخبار المسند عن المسند اليه واذا نظرنا الى قول المجنون :

أقول لأصحابي هي الشمس ضوءها قريب ولكن في تناولها بعـــــد

لقد عارضتنا الريح منها بنفحـــة على كبدى من طيب أرواحها بـــرد

على هذا الأساس فإننا لا نستطيع فتح مغاليقه . (وما أهون أمر الشـــعر اذا حمل على أنه اخبار يراد ابلاغه للسامع وليس فيه من معنى الا ما يقتضيه التشـــبيه لرفاه من مشبه ومشبه به . . واذا كان ذلك كذلك فما الداعي الى قوله " ضوءها قريب ولكن في تناولها بعد " ؟ ان كان ذلك للايضاح قلنا ان ضوء الشمس لا يحتاج الـــى ايضاح ، والأمر حين يراد التدليل على ظهوره يقال انه واضح كالشمس ، ثم ما الوجـه في ذكر الريح والنفحة والكبد وما بينهما من علاقات أكيدة ، أم أن هذه ثرثرة من المجنون لا يؤاخذ عليها ؟ !) (٢) .

وهذه الآفاق التي يقودنا اليها مثل هذا الفكر في العمل الفني لا شك أنهـا جديدة ولا شك أنها تعيد قراءة الأدب العربي قراءة جديدة ، يحيا بها في ضمير الأمـــة وجدان شبابها وتقيم حبل الاتصال بين قواعد النقد والعمل الأدبي ، ذلك الاتصال الذى قطعته علوم البلاغة ، وجعلت العمل الأدبي يخرج من محكمة الناقد الـــذى يتخذ من قواعد البلاغة مقياسا له متهما بمخالفة العقل والمنطق وسلوك سبيل الخيـــال والتجوز والتزيد والمبالغة .

فالتشبيه الجارى بكثرة في كلام العرب (حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهـــم لم يبعد) (٣) . لا سبيل له في تراثنا النقدى والبلاغي الا الحاق الفرع بالأصل يقول ابن

---

(١) المرجع السابق : ١٧٦ (٢) التركيب اللغوى للأدب : ١٢٨

(٣) الكامل : ٢ / ٧٩

رشيق (وسبيل التشبيه ـ اذ كانت فائدته انما هي تقريب المشبه من فهم السامع وايضاحه له ـ أن تشبه الأدون بالأعلى اذا أردت مدحه وتشبه الأعلى بالأدون اذا أردت ذمه ، فتقول في المدح ؛ تراب كالمسك وحصى كالياقوت وما أشبه ذلك ، فاذا أردت الذم قلت مسك كالمسك والتراب ، وياقوت كالزجاج أو كالحصى ، لأن المراد في التشبيه ما قدمته من تقريب الصفة ، وافهام السامع ، وان كان ما شابه الشيء من جهة فقد شابهه الآخر منها ، ان المتعارف وموضوع التشبيه ما ذكرت) (١) .

ومن هذه الفكرة أخذوا يرتبون التشبيه في القوة والضعف في درجة المبالغة ومن ثم قسمه الخطيب الى ثمان مراتب (فالحاصل من مراتب التشبيه في القوة والضعف في المبالغة باعتبار ذكر أركانه كلها أو بعضها ثمان احداهما ذكر الأربعة كقولك زيد كالأسد في الشجاعة ولا قوة لهذه المرتبة ، وثانيتها ترك المشبه كقولك كالأسد في الشجاعة أى زيد وهي كالأولى في عدم القوة ، وثالثتها ترك كلمة التشبيه كقولك زيد أسد في الشجاعة وفيها نوع قوة ورابعتها ترك المشبه وكلمة التشبيه كقولك أسد في الشجاعة أى زيد وهي كالثالثة في القوة ، وخامستها ترك وجه الشبه كقولك زيد كالأسد وفيها نوع قوة لعموم وجه الشبه من حيث الظاهر ، وسادستها ترك المشبه ووجه التشبيه كقولك كالأسد أى زيد وهي كالخامسة ، وسابعتها ترك كلمة التشبيه ووجهه كقولك زيد أسد وهي أقوى الجميع وثامنتها افراد المشبه به بالذكر كقولك أسد أى زيد وهي كالسابقة) (٢) .

والسر في حصر التشبيه في وظائف التوضيح والتقرير ، والتوكيد والمبالغة وتقسيمه الى هذه الدرجات وغيرها من التقسيمات في السلم الوظيفي الذى يؤديه لخدمة معنى مفترض ينطلق من مسلمات سيطرت على النقد العربي نظرت الى أن المعنى فكرة مجردة ثم تخرج الى حيز الوجود بصورة يفكر فيها الشاعر ويكد ذهنه فيها لينقل المعنى عن طريقها الى الآخرين . ومن ثم كان عمل الناقد البحث عن هذه الفكرة التي نقلها الشاعر من خلال التشبيه أو المجاز . . أو الاستعارة . . بردها الى ما كانت عليه قبل ذلك ، والحديث عن طبيعة اخراجها بطريقة سطحية لا تصل الى أعماق العمل الأدبي ولا تبرز لنا ابداعه وتفرده . . ولا تبين لنا ما تحمله الكلمة من معطيات فتجدهم يحصرون الصورة في معنى يتفق مع الفرض الذى افترضوه للمعنى قبل اخراجه . . ويجادلون في ذلك جدلا كان يغنيهم عنه التعامل مع الكلمة ككائن حي داخل سياق تتفاعل معه فتحيا به حياة جديدة ويحيا بها حياة جديدة كذلك . ومن ذلك مناقشة الامام عبد القاهر

---

(١) العمدة : ٢/ ٢٩٠ (٢) الايضاح ضمن شروط التلخيص : ٣/ ٤٧٠، ٤٧١

لقول النابغة الذبياني :

فانك كالليل الذى هو مدركي وان خلت أن المنتأى عنك واسع

اذ رفض تفسيره على طريقة المبالغة محتجا بأنك (ان حاولت فيه طريقة المبالغة فقلت : فانك الليل الذى هو مدركي – لزمك لا محالة أن تعمد الى صفة من أجلها كالشجاعة التي من أجلها الرجل الأسد فان قلت تلك الصفة الظلمة وانه قصد شدة سخطه وراعى حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم في عينيه حسب الحال في المستوحش الشديد الوحشة كما قال :

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب (١)

قيل لك : هذا التقدير ان استجزناه ، وعملنا عليه فاما نحتمله والكلام على ظاهره ، وحرف التشبيه مذكور داخل على الليل كما تراه في البيت ، فاما وأنت تريد المبالغة فلا يجيء لك ذلك ، لأن الصفات المذكورة لا يواجه بها الممدوحون ، ولا تستعار الأسماء الدالة عليها الا بعد أن نتدارك وتقرن الى أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله (أنت الصاب والعسل) ولا تقول وأنت مادح أنت الصاب وتسكت) .

ثم يعرض الوجه الذى يراه ويحتج له وعلى من يعترضه قائلا (فان قلت : أفترى أن تأبى هذا التقدير في البيت أيضا حتى يقصر التشبيه على ما تفيده الجملة الجارية في صلة الذى ؟

قلت : فان ذلك الوجه فيما أظنه فقد جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم (ليدخلن هذا الدين ما دخل عليه الليل) فكما تجرد المعنى للحكم الذى هو الليل من الوصول الى كل مكان ، ولم يكن لاعتبار ما اعتبروه من شبه ظلمته وجه كذلك – يجوز أن يتجرد في البيت له ويكون ما ادعوه من الاشارة بظلمة الليل الى ادراكه له ساخطا ضربا من التعمق والتطلب لما لعل الشاعر لم يقصده ، وأحسن ما يمكن أن ينتصر به لهذا التقدير أن يقال : ان النهار بمنزلة الليل في وصوله الى كل مكان فما من موضع من الأرض الا ويدركه كل واحد منهما ، فكما أن الكائن في النهار لا يمكنه أن يصير الى مكان لا يكون به ليل كذلك الكائن في الليل لا يجد موضعا لا يلحقه فيه نهار ، فاختصاصه الليل دليل على أنه قد روى في نفسه فلما علم أن حالة ادراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى . ويمكن أن يزاد في نصرته بقوله :

نعمة كالشمس لما طلعت بشت الاشراق في كل بلد

وذلك أنه قصد ههنا نفس ما قصده النابغة في تعميم الاقطار والوصول الى كل

---

(١) عجزه : وردو رقادى فهو لحظ الحبائب .

مكان ، الا أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة الى أقاصي البلاد وانتشارها في العباد بالليل ووصوله الى كل بلد وبلوغه كل أحد ، لكان قد أخطأ خطأ فاحشا الا أن هذا وان كان مجيئ مستويا في الموازنة فرق بين ما تكره من الشبه وما تحب ، لأن الصفة المحبوبة اذا اتصلت بالغرض من التشبيه نالت من العناية بها والمحافظة عليها قريبا مما يناله الغرض نفسه وأما ما ليس بمحبوب فيحسن أن تعرض عنها صفحا وتدع الفكر فيها جانبا .

وأما تركه أن يمثل بالنهار وان كان بمنزلة الليل فيما أراده فيمكن أن يجاب عنه بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لا محالة ، واذا كان يكلمه وهو في النهار بعد أن يضرب المثل بادراك النهار له وكان الظاهر أن يمثل بادراك الليل الذى اقباله منتظر ، وطريانه على النهار متوقع ، فكأنه قال وهو في صدر النهار أو آخره : لو سرت عنك لم أجد مكانا يغنيني الطلب منك ، ولكان ادراكك لي وان بعدت واجبا كادراك هذا الليل المقبل في عقب نهارى هذا اياى ، ووصوله الى أى موضع بلغت من الأرض .

وههنا شيء آخر وهو أن تشبيه النعمة في البيت بالشمس وان كان من حيث الغرض الخاص وهو الدلالة على العموم فكان الشبه الآخر من كونها مؤنسة للقلوب وملبسة العالم البهجة والبهاء كما تفعل الشمس حاصلا على سبيل العرض وبضرب من التطفل ، فان تجريد التشبيه لهذا الوجه الذى هو الآن تابع وجعله أصلا ومقصودا على الانفراد مألوف معروف كقولنا : نعمتك شمس طالعة وليس كذلك الحكم في الليل) (١) .

ولقد حاولت أن أنقل معظم نص عبد القاهر حتى نكون على بينة من مراده الذى نفى فيه بشدة أن يكون في التمثيل بالليل اشارة الى سخط الممدوح .. ورد على من يقول لذلك حاصرا الغرض من التمثيل بالليل في افادة العموم والشمول .. ولذلك فهو يرى أن العلاقة بين الطرفين علاقة منطقية آلية ومن هنا يتبين لنا وهم الدكتور كمال أبو ديب عندما توهم أن عبد القاهر لم يحصر غرض تشبيه النابغة نفسه بالليل في هذا الغرض وأنه فهم من تشبيه النابغة نفسه بالليل معنى السخط فخصه بالليل .. ولذلك جاءت الصورة تجلو الوجود العاطفي للشاعر وذلك حيث يقول : (في صورة النابغة كما يقول الجرجاني تحقق الوظيفة المعنوية للتعبير "أنت كالنهار" الى الدرجة ذاتها من الكمال التي يحققها التعبير "أنت كالليل" كلا التعبيرين يقرر أن الملك له القدرة على الوصول الى كل مكان ، وان الشاعر يدرك استحالة الهرب منه . والنهار في هذا له خصائص الليل ذاتها لكن الصورة "أنت كالنهار" تتحرك على مستوى واحد ، مستوى التقرير ، ولا تجلو الوجود العاطفي للشاعر وأبعاد أحاسيسه لا بازاء الملك ولا بازاء النهار ، الصورة لا تعكس

---

(١) أسرار البلاغة : ١٠٨ — ١١٠

ما يثيره الموضوعان في عالم الشاعر الداخلي من أحاسيس وما يفرضانه من استجابات ، أو ما يجسدانه في سياق القصيدة الكلي للشاعر — انسانا متكاملا له ردة فعله الحيوية للوجود)(١) .

ولقد علق على العبارة (فاختصاصه الليل دليل على أنه قد روى في نفسه فلما علم أن حالة ادراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى)(٢) الواردة في نص الجرجاني مشيدا بادراك الجرجاني لفاعلية طرفي الصورة الشعرية وذلك حيث يقول (للعبارتين في " نفسه " و " حالة ادراكه " دلالات مهمة يجب أن تستقصى ، اذ يبدو انهما تؤكدان بطريقة مباشرة ، الجذور النفسية للصورة الشعرية ، وأصولها النابعة من ذات الفنان الخالق ، العاكسة لأبعاد الوجود النفسي والعاطفي الذى يشكل جزءا حيويا من التجربة الشعرية المتكاملة ، ثم ان العبارتين " اختصاصه الليل " و " روى في نفسه " تطرحان بعدا جديدا للتجربة ، أمام العقل المكتشف ، هو بعد الوعي ، وعي الشاعر بالمكونات المتشابكة لتجربته ، وبالصورة المثلى لاعطاء هذه الأبعاد تعبيرا شعريا لكن دور الوعي هنا ليس دورا آليا ، ذهنيا ، جافا ، بل دور خلاق يكثف المستوى النفسي للموقف الشعرى في الصورة عن طريق خلق بنية تتداخل فيها العلاقات ، وتتبادل الفاعلية بفن يستقى من طبيعة طرفي الصورة المضائين لا من حيث هما ظواهر فيزيائية معزولة ، وانما من حيث هما مدركات تنفعل بها الذات ، الصورة بهذا التحديد تخلق لا تنقل معنى فقط ، ولا لتقرر أن (ب) يشبه (جـ) في سياق المجرد ، وانما لتخلق جوا يتسرب فيه تيار داخلي مضيء ، جذوره في الاستجابة الانسانية للعالم)(٣) .

وقد كان يمكن لنا أن نشيد معه بادراك الجرجاني لهذه العلاقات النابعة من داخل السياق ، والمنبثة خلال التعبير ، لو أن الجرجاني انتصر لهذا التقدير وأما وان الجرجاني قد ضرب عنه صفحا فان ذلك يدل على اهمال الجرجاني لها وان كان ذلك لا يمنع من معرفته بها وانها أمر يمكن أن يتجه اليه في النص بدليل أنه أورد هذه الحجة في الانتصار للرأى المعارض لرأيه الذى كان يرى أن في التشبيه بالليل معنى الصلة والسخط والاحاطة ، ذلك الرأى الذى فنده عبد القاهر وخص التشبيه بالشمول والعموم فقط .

وفكرة النموذج في التشبيه والحاق الفرع بالأصل جعلتهم يلوون عنق الكلام ويحكمون عليه بالقلب والعكس ويفسرونه بالادعاء بأن صفة المشبه به أصبحت أتم في المشبه ولذلك قلب التشبيه ولذلك حكموا على قول محمد بن وهيب :

---

(١) جدلية الخفاء والتجلي : ٤٢ (٢) أسرار البلاغة : ٢/١٠٩

(٣) جدلية الخفاء والتجلي : ٤١

وبدا الصباح كأن غرتـــــه وجه الخليفة حين يمتـــدح

بالعكس . وذلك حين مثل به عبد القاهر للدلالة على أن الشاعر قد يقصد علــى عادة التخييل أن يوهم في الشيء هو قاصر عن نظيره في الصفة أنه زائد عليه فـــي استحقاقها واستيجاب أن يجعل أصلا فيها ، فيصبح على موجب دعواه وشوقه إلـى أن يجعل الفرع أصلا وان كنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر مـا يضع اللفظ عليه (١) ويفسر ذلك بقوله (فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل في النور والضياء من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية ان يجعل الصبـاح فرعا ووجه الخليفة أصلا) (٢) .

ثم يتحدث عن سر بلاغة هذا التشبيه الكامنة في قدر الادعاء والمبالغة فيه وطريقة الاتيان بها قائلا (واعلم أن هذه الدعوى وان كنت تراها تشبه قولهم : لا يدرى أوجهــه أنور أم الصبح ؟ وغرته أضوأ أم البدر ؟ وقولهم إذا أفرطوا : نور الصباح يخفى في ضوء وجهه ، أو نور الشمع مسروق من جبينه ، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغـراق والمبالغة ، فان في الطريقة الأولى خلابة وشيئا من السحر ، وهو أنه كان يستكثر للصبـاح أن يشبهه بوجه الخليفة ، ويوهم أنه قد احتشد له واجتهد في طلب تشبيه يفهم به أمره ، وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر ، ويفيدكها مـن غـير أن يظهر ادعاؤه لها ، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه . ويزجي الخبر عـن أمر مسلم لا حاجة فيه إلى دعوة ، ولا إشفاق من خلاف مخالف ، وانكار منكر وتجهم معترض وتهكم قائل : "لم" ومن اين لك ذلك ؟ والمعاني اذا وردت على النفس هذا المـورد كان لها ضرب من السرور خاص . وحدث بها نوع من الفرح عجيب ، فكانت كالنعمة لـم تكدرها المنة ، والصنيعة لم ينقصها اعتداد المصطنع لها) (٣) .

وأما البلاغيون بعده فقد ساروا على هذه السنة في فهم البيت ولذلك كان الشاهد عندهم فيه (ايهام أن المشبه أتم من المشبه به ، ويسمى التشبيه المقلوب ، فانه قصـد ايهام أن وجه الخليفة أتم من الصباح في الوضوح والضياء ، وفي قوله حين يمتدح دلالـة على اتصاف الممدوح بمعرفة حق المادح ، وتعظيم شأنه عند الحاضرين بالاصغاء اليـه ، والارتياح له وعلى كونه كاملا في الكرم يتصف بالبشر والطلاقة عند استماع المديح) (٤) .

وكان داعيهم الى ذلك النظرة الجزئية في التشبيه ، وأخذه على أساس أنه جملة مستقلة في السياق . يرتبط طرفاها برباط النموذج ، والحاق الفرع بالأصل ، اما قريبـا من التحقيق واما ادعاء أو مبالغة ، ولم يفطنوا الى أن العمل الفني يقوم على عملية خلق

---

(١) أسرار البلاغة : ٧٥/٢ (٢) المصدر السابق : ٧٥
(٣) المصدر السابق : ٧٥/٢ ، ٧٦ (٤) معاهد التنصيص : ١٥٣/١

واعادة لتشكيل الأشياء وامتزاجها من خلال نشاط الكلمة وحيويتها ، وتفاعلها في سياقها الذى سيقت فيه ... وعلى ذلك ففي التشبيه خلق لغوى يصهر الطرفين في بوتقة جديدة ولا نستطيع أن نفسر هذه الصورة الجديدة لهما إلا بتأمل ما يمكن أن يعطيه كل طرف للآخر وما يأخذه منه ، وبتأمل اشعاع كلا الطرفين وتفاعله في سياقه داخل كيان العمل الأدبي ... ومن هنا لو نظرنا الى بيت محمد بن وهيب الحميرى هذا داخل نصه الذى أورده صاحب معاهد التنصيص لخرجنا بتفسير لهذا التشبيه كان يحجب النقد عمن رؤيته النظرة الجزئية لجملة التشبيه ، وفكرة النموذج وفكرة الادعاء والمبالغة :

لقد ورد هذا البيت في قصيدة للشاعر يقول فيها :

العذر ان انصفت متضح ... وشهود حبك أدمع سفح
واذا تكلمت العيون على ... اعجامها فالسر مفتضح
مهما أبيت معانقي قمر ... للحسن فيه مخايل تضح
نشر الجمال على محاسنه ... يدعا وأذهب همة الفرح
يختال في حلل الشباب به ... مرح وداؤك أنه مرح
ما زال يلثمني مراشفه ... ويملني الابريق والقدح
حتى استرد الليل خلعته ... ونشا خلال سواده وضح
وبدا الصباح كأن غرته ... وجه الخليفة حين يمتدح
نشرت بك الدنيا محاسنها ... وتزينت بصفاتك المدح
وكأنما مذ غاب عنك له ... بازاء طرفك عارض سمح
واذا سلمت فكل حادثة ... جلل فلا بؤس ولا ترح (١)

فالنص من بدايته تتجلى لنا فيه جدلية بين الخفاء والتجلي ، فالعذر يظهره الانصاف ، والأدمع تشهد على الحب الذى تتكلم عنه العيون ، وتفصح عنه الجفون النواطق مهما حاول الضمير أن يكيد ويستودع ، والوجود الذى أقامه الشاعر لنفسه وجود ملىء باللهو والمرح يسترد فيه ذلك الليل الذى جرد عليه خلعته .. وعاش الشاعر في ذلك الوجود الذى أقامته شاعريته حتى بدأ الليل في استرداد خلعته تاركا الشاعر لفضيحة الصباح ... وبدأ الشاعر يفيق ويتعقل . كيف لا وهو أمام صبح مزيل لستر الظلام .. أول ما يغشى فيه الخليفة رمز الشرع القائم بالحدود والرادع عن كل لهو .. وبدأ الخليفة يحتوى وجود الشاعر ، فأضحى الخليفة هو كل شيء .. وأضحى يمتزج بالوجود امتزاجا ملأ على الشاعر كل زمانه . فلا غرو اذن ان التبس الصباح بخصائص الخليفة وصفاته ، وانتزع غرته .. وجاء هذا الصباح بهيبة الخليفة وجلاله .. والشاعر

---

(١) معاهد التنصيص : ١/١٥٣

لا يهمه من هذا الصباح الا وجود الخليفة المقيم للحدود والرادع عن كل لهـــو .. وهذا الوجود الشعرى للخليفة حتم على الشاعر الافاقة والتعقل والتحول من اللهـــو الى الانتقال الى حياة الجد فوجود الخليفة كان فيه جانبان ، جانب حرم الشـــاعر من الاستمرار في وجوده اللاهي العابث ، وجانب حتم عليه امتداح الجد المتمثلة فـي شخص الخليفة . ولقد نبه الشاعر الى أن وجود الخليفة هذا الوجود الممتزج بزمـــان الشاعر هو وجود شاعرى .. أقامه مدح الخليفة .. وان هذا الوجود هو أفق آخـــر للخليفة لا يقارن بواقعه الفعلي وذلك حين يقول " حين يمتدح " ومن هنا يضعـــف حملهم المعنى على أن ذلك يدل على اتصاف الممدوح بمعرفة حق المادح وتعظيـــم شأنه عند الحاضرين بالاصغاء اليه والارتياح له ، وعلى كونه كاملا في الكرم يتصف بالبشر والطلاقة عند استماع المديح (١) ... فذلك غير لائق ألا يتنبه الشاعر الى وجود تلـــك الصفة الا في ساعة المدح فقط .

---

(١) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص : ٣/٤٠٩

٢ ـ المبالغة في الاستعارة

لقد تناول البحث البناء الاستعارى بالتحليل والتجريد والتنظير سواء أكان ذلك قديما أم حديثا . ولا يعنينا هنا الخوض في تفاصيل تلك الأبحاث الا بقدر ما تشير اليه من وضع للاستعارة في درجة من درجات المبالغة .

والذى يضع الاستعارة هذا الموضع هو مقابلة الأداء الفني بالواقع الخارجي انطلاقا من مسلمة الوضع التي ناقشناها سابقا ، والحكم تبعا لذلك على الاستعارة بالنقل أو الادعاء .

فاذا كان ابن قتيبة يرى أن العرب (تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة اذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاورا لها أو شاكلا)(١) . فإن الجاحظ وأحمد ثعلب وابن المعتز يحددون الاستعارة ، ويعرفونها تعريفا مشابها لتعريف ابن قتيبة أو قريبا منه فالجاحظ يعرفها بأنها (تسمية الشيء باسم غيره اذا قام مقامه)(٢) وثعلب يقول بأنها (ان يستعار للشيء اسم غيره أو معنى سواه)(٣) . وابن المعتز يحدثنا عنها بأنها (استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف)(٤) .

وتمضي الاستعارة في رحلتها عبر تاريخ النقد العربي حاملة لذلك المفهوم باختلافات يسيرة اذ يقول الآمدى عنها (وانما استعارت العرب المعنى لما ليس هو له اذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذى استعيرت له وملائمة لمعناه)(٥) .

والرماني يعرفها بأنها (تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للابانة)(٦) .

وأما أبو هلال فيقول : (الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة الى غيره لغرض)(٧) .

وأما الحاتمي فلم يكن خارجا عن هذه التعاريف عندما يقول (حقيقة الاستعارة أنها نقل كلمة من شيء قد جعلت له الى شيء لم تجعل له)(٨) .

ويعلق الدكتور جابر عصفور بعد أن أورد هذه التعريفات قائلا (ولسنا نمضي في حصر تعريفات الاستعارة في القرن الخامس أو ما تلاه فهي لا تخرج في جوهرها عن التعريفات السابقة ، واذا كانت هناك فوارق بينها في درجات التحديد والحصر ، ولكنها

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ١٣٥
(٢) البيان والتبيين : ١/١٥٣
(٣) قواعد الشعر : ٤٧
(٤) البديع : ٢
(٥) الموازنة : ١/٢٦٦
(٦) النكت : ٨٥
(٧) الصناعتين : ٢٧٤
(٨) الرسالة الموضحة : ٢٩

في النهاية تشير الى شيء واحد وهو أن الاستعارة انتقال في الدلالة لأغراض معددة ، وان هذا الانتقال لا يصح ولا يتم الا اذا قام على علاقة عقلية صائبة تربط بين الأطراف ، وتيسر عملية الانتقال من ظاهر الاستعارة الى حقيقتها وأصلها (١) .

وتتضح حقيقة هذا القول بالرجوع الى تعريف ابن قتيبة والجاحظ والى قول الآمدي الذي كان يرى فيه أن العرب انما استعارت المعنى لما ليس له (اذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له ، وملائمة لمعناه) (٢) .

وأما الامام عبد القاهر وهو علم بارز في النقد العربي ، وكانت آراؤه محورا لكثير من المفاهيم النقدية التي جاءت بعده فهو يتقبل فكرة النقل في الاستعارة عندما يعرفها بقوله (اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع قد يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقله اليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية) (٣) .

وأما العلاقة بين لفظ الأصل في الوضع اللغوي المفترض وبين استعمال الشاعر أو غيره فتنحصر عند الامام في التشبيه لأجل المبالغة ويسمى النوع الذي توجد فيه هذه العلاقة بالاستعارة المفيدة ، وما لم يجد فيه تلك العلاقة فيحكم عليه بعدم الفائدة (وموضع هذا الذي لا يفيد نقله حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة والتفوق في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها : كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو وضع الشفة للانسان ، والمشفر للبعير ، والجحفلة للفرس ، وما شاكل ذلك من فروق ، ربما وجدت في غير لغة العرب ، وربما لم توجد . فاذا استعمل الشاعر شيئا منها في غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله ، وجاز به موضعه كقول العجاج

وفاحما ومرسنا مسرجا

يعني آنفا برق كالسراج ، والمرسن في الأصل للحيوان ، لأنه الموضع الذي يقع عليه الرسن . . . فهذا ونحوه لا يفيدك شيئا لو لزمت الأصل لم يحصل لك) (٤) .

ولكن التحكم في كلام العرب الأقحاح على ضوء لزوم الكلمة لموضع معين يتحتم على القائل ألا يجاوزها اياه الا بعلاقة منطقية تربط بين الأصل المفترض واللفظ المستعمل ، جعل عبد القاهر يعيد النظر في حكمه على هذا النوع ويلتمس الشبه بين الأصل والفرع فيقول (فاعلم أنك قد تجد الشيء يخلط بالضرب الأول الذي هو استعارة من

---

(١) الصورة الفنية : ٢٤٥ (٢) الموازنة : ١/٢٦٦
(٣) أسرار البلاغة : ١/١٢٣ (٤) المصدر السابق : ١٢٣ — ١٢٥

طريق اللفظ ويعد في قبيله وهو اذا حققت ناظر الضرب الآخر فهو مستعار من جهة المعنى وجار في سبيله . فمن ذلك قولهم (انه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر) وذلك أنه كلام يصدر عنهم في مواضع الذم فصار بمنزلة أن يقال : كأن شفته في الغلظ مشفر البعير ، وجحفلة الفرس ، وعلى ذلك قول الغرزدق :

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتي ولكن زنجيا غليظ المشافر

فهذا يتضمن معنى قولك : ولكن زنجيا كأنه حمل لا يعرفني ولا يهتدى لشرفي .

وهكذا ينبغي أن يكون القول في قولهم " أنشب فيه مخالبه " لأن المعنى على أن يجعل له في التعلق بالشيء والاستيلاء عليه حالة كحالة الأسد مع فريسته ، والبازى مع صيده وكذا قول الحطيئة :

قروا جارك العيمان لما جفوته وقلص عن برد الشراب مشافره (١)

وأما النوع الآخر المفيد فهو الذى يحصر العلاقة فيه بين الأصل المفترض وبين الاستعمال القائم في الكلام بالتشبيه لأجل المبالغة ، ويشرحه لنا بقوله (وأما المفيد فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني ، وغرض من الأغراض ، ولولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك ، وجملة تلك الفائدة ، وذلك الغرض ، التشبيه ، الا أن طرقه تختلف حتى تفوت النهاية ، ومذاهبه تتشعب حتى لا غاية . . . ومثاله قولنا : رأيت أسدا ـ وأنت تعني رجلا شجاعا ـ وبحرا ـ تريد رجلا جوادا ، وبدرا وشمسا تريد انسانا مضيء الوجه متهللا ، وسللت سيفا على العدو ـ تريد رجلا ماضيا في نصرتك أو رأيا نافذا ومما شاكل ذلك ، فقد استعرت اسم " أسد " للرجل ، ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك ، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة ، وايقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه واقدامه وبأسه وشدته ، وسائر المعاني المذكورة في طبيعته ، مما يعود الى الجرأة . . وهكذا أخذت باستعارة البحر سعته في الجود وفيض الكف ، وبالشمس والبدر ما لهما من الجمال والبهاء والحسن المالىء للعيون والباهر للنواظر) (٢) .

وتوظيف الاستعارة للمبالغة أمر استقر في تراثنا النقدى والبلاغي أشار اليه الرماني عند حديثه عن عدد من الاستعارات القرآنية فمن ذلك قوله في قوله تعالى " انا لما طغا الماء حملناكم في الجارية " (٣) . (حقيقته علا والاستعارة أبلغ لأن طغى علا قاهرا ، وهو مبالغة في عظم الحال) (٤) .

وقوله في قوله تعالى (سنفرغ لكم أيها الثقلان) (٥) (والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن هذا أبلغ في الوعيد ، وحقيقته سنعمد ، الا أنه لما كان الذى

---

(١) المصدر السابق : ١/١٢٩ (٢) المصدر السابق : ١/١٢٦
(٣) سورة الحاقة : ١١ (٤) النكت : ٨٧
(٥) سورة الرحمن : ٣١

يعمد الى شيء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب مما يجرى به التعارف ، دلنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ، ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند الخاصة والعامة موقع الحكمة)[١] .

وقال به أبو هلال حيث يقول (الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة الى غيره لغرض ، وذلك الغرض اما أن يكون شرح المعنى وفضل الابانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الاشارة اليه بالقليل من اللفظ ، أو تحسين المعرض الذى يبرز فيه)[٢] .

وأشار اليه ابن رشيق بقوله (ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة)[٣] .

وقال أبو الفتح عثمان بن جنى (الاستعارة لا تكون الا للمبالغة ، والا فهي حقيقة)[٤] .

وقال ابن الخطيب الرازى عن الاستعارة (انها ذكر الشيء باسم غيره واثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه)[٥] .

ويقول الخطيب القزويني معرفا الاستعارة (وهي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له وقد تقيد بالتحقيقية لتحقق معناها حسا أو عقلا . . فيقال ان اللفظ نقل عن مسماه الأصل فجعل اسما له على سبيل الاعارة للمبالغة في التشبيه)[٦] .

وهذه الوظيفة للاستعارة التي أصروا عليها أمر يستقر مع رؤيتهم التي درجوا عليها في نظرتهم الى التشبيه ، فاذا كان التشبيه يقوم على الحاق فرع بأصل وتكون بالمبالغة تبعا لدرجة القرب والبعد بين المتشابهين أو درجة الادعاء تبعا لحال ذكر الأداة ، والجامع الكلي فان في الاستعارة القائمة على فكرة التشبيه الغاء لفكرة التشبيه فسر في تراثنا النقدى والبلاغي بالادعاء والتناسي وحمل لواء هذا التفسير الامام عبد القاهر وجاهد في سبيل الانتصار له جهادا يتضح لقارئه معاناته في الدفاع عن هذه الفكرة فهو يقول : (واعلم أنك ترى الناس وكأنهم يرون أنك إذا قلت : رأيت أسدا وأنت تريد التشبيه كنت نقلت لفظ أسد عما وضع له في اللغة واستعملته في معنى غير معناه حتى كأن ليس الاستعارة الا أن تعمد الى اسم الشيء فتجعله اسما لشبيهه وحتى كأن لا فصل بين الاستعارة وبين تسمية المطر سماء والنبت غيثا والمزادة راوية ، وأشباه

---

(١) النكت : ٨٨ (٢) اصناعتين : ٢٧٤
(٣) العمدة : ٢/٥٥ (٤) المصدر السابق : ١/٢٧٠
(٥) الطراز : ١/٢٠١ (٦) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٤/٤٥

ذلك مما يوقع فيه اسم الشيء على ما هو مثله بسبب ، ويدعيون عنا هو مركوز في الطباع من أن المعنى فيها المبالغة ، وأن يدعى في الرجل أنه ليس برجل ولكنه أسد بالحقيقة)[١] .

(ويستمر في مناقشة هذه القضية مبينا أن الاستعارة ليست لمجرد النقل قائلا : وانه انما يصار اللفظ من بعد أن يصار المعنى ، وانه لا يشرك في اسم الأسد الا من بعد أن يدخل في جنس الأسد لا ترى أحدا يعقل الا وهو يعرف ذلك اذا رجع الى نفسه أدنى رجوع ، ومن أجل أن كان الأمر كذلك رأيت العقلاء كلهم يثبتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكون أبدا أبلغ من الحقيقة)[٢] .

ويضيف الامام عبد القاهر مبينا أن هذه الأبلغية لا تتحقق مع النظر الى الاستعارة بأنها ليست الا مجرد نقل قائلا (والا فان كان ليس ههنا الا نقل اسم من شيء الى شيء فمن أين يجب ليت شعري أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة ويكون لقولنا : رأيت أسدا مزية على قولنا : رأيت شبيها بالأسد ، وقد علمنا أنه محال أن يتغير الشيء في نفسه بأن ينقل اليه اسم قد وضع لغيره من بعد أن لا يراد من معنى ذلك الاسم فيه شيء بوجه من الوجوه بل يجعل كأنه لم يوضع لذلك المعنى الأصل أصلا وفي أي عقل يتصور أن يتيسر معنى شبيها بالأسد بأن يوضع لفظ أسد عليه وينقل اليه)[٣] .

والامام عبد القاهر بمسألة الادعاء هذه يحاول أن يقدم لكثير من الاستعارات في الكلام العربي حجة يدافع بها عن نفسها أمام محكمة النظرة العقلية والمنطقية التي لا ترتضي للعمل الفني أن يعيد تشكيل الواقع بأن يقيم عالما فنيا يعلو على الواقع الخارجي . تلك النظرة التي نظرت الى مجموعة من استعارات أبي تمام فجعلتها من مزدول الألفاظ وقبيح الاستعارات وأوردت لذلك أمثلة منها قوله :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد ... اضجعت هذا الأنام من خرقك

وقوله :

ألا لا يمد الدهر كفا بسيء ... الى مجندى نصر فيقطع من الزند

والدهر ألام من شرقت بلؤمه ... الا اذا أشرقته بكريم

وقوله :

اذا للبست عار دهر كأنما ... لياليه من بين الليالي عواريك

وقوله يرثي غلاما :

أنزلته الأيام من ظهرها من ... بعد اثبات رحله في الركاب

---

(١) دلائل الاعجاز : ٣٣١ ، ٣٣٢ (٢) المصدر السابق : ٣٣٢

(٣) دلائل الاعجاز : ٣٣٢

وقوله :

كأنني حين جردت الرجاء له ... عضبا صببت به ماء على الزمن

وقوله يصف فرسا :

وكأن فارسه يصرف اذ بدا ... في متنه ابنا للصباح الأبلق

وعلقت عليها قائلة (وأشباه هذا مما اذا تتبعته في شعره وجدته كثيرا ، فجعل كما ترى مع غثاثة هذه الألفاظ - للدهر أخدعا ، ويدا تقطع من الزند ، وكأنه يصرع ، وجعله يشرق بالكرام ... والليالي كأنها عوارك ، والزمان كأنه صب عليه ماء ، والفرس كأنه ابن للصباح الأبلق ، وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والغثاثة والبعد من الصواب) (١) .

وقد وجد الامام عبد القاهر في ربطه وظيفة الاستعارة بالادعاء مخرجا لهذه الاستعارات بل انه أوضح أنه لا يمكن اخراج الاستعارة على زعم النقل في مثل هذه الاستعارات التي أطلق عليها فيما بعد مصطلح الاستعارة المكنية ، وذلك حيث يقول :

(واعلم أن في الاستعارة مالا يتصور تقدير النقل فيه البتة وذلك مثل قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة ... اذ أصبحت بيد الشمال زمامها)

مبينا أنه لا خلاف في أن اليد استعارة رادا على من زعم أن لفظ اليد نقل عن شيء الى شيء بأن ليس المعنى على أنه شبه شيئا باليد فيمكن أن يزعم أنه نقل لفظ اليد اليه ، وانما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال في تصريفها الغداة على طبيعتها شبه الانسان قد أخذ الشيء يقلبه ويصرفه كيف يريد فلما أثبت لها مثل فعل الانسان باليد استعار لها اليد) (١) .

وقد طبّق لنا الامام هذه النظرة على بيت الحماسة :

اذا هزه في عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحك

قائلا (فانه لما جعل المنايا تضحك جعل لها الأفواه والنواجذ التي يكون الضحك فيها ..

فأنت الآن لا تستطيع أن تزعم في بيت الحماسة أنه استعار لفظ النواجذ ولفظ الأفواه ، لأن ذلك يوجب المحال ، وهو أن يكون في المنايا شيء قد شبهه بالنواجذ وشيء قد شبهه بالأفواه ، فليس الا أن نقول انه لما ادعى أن المنايا تسر وتستبشر اذا هو هز السيف وجعلها لسرورها بذلك تضحك أراد أن يبالغ في الأمر فجعلها في صورة من يضحك حتى تبدو نواجذه من شدة السرور) (٢)

---

(١) دلائل الاعجاز : ٣٣٤ (٢) دلائل الاعجاز : ٣٣٥

وتظل فكرة الإدعاء في الاستعارة للمبالغة التي حمل لواءها الامام عبد القاهر حاملة للشك والريب واحتمال الكذب في الاستعارة على الرغم من أن الامام حاول أن يدفع عنها ذلك ببيان أن القصد من الاستعارة اثبات الشبه (واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل لأن المستعير لا يقصد إلى اثبات معنى اللفظة المستعارة وانما يعمد الى اثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره ، وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن وهي كثيرة التنزيل على مالا يخفى كقوله عز وجل " واشتعل الرأس شيبا " ثم لا شبهه في أن ليس المعنى على اثبات الاشتعال ظاهرا وانما المراد اثبات شبهه)(١) . ولقد سبق أن بينا تناقض الإمام عبد القاهر في ذلك .

أما في النقد الحديث فقد تجاوز البناء الاستعارى هذه الوظيفة وذلك لأن النظرة الى الاستعارة في النقد الحديث نظرت اليها في ذاتها وفي ضوء استعمالها وسياقها الذى نمت فيه واعتبرتها عنصرا أساسيا يعتمد العمل الأدبي ويخلقه بواسطة اللغة انطلاقا من أن محور عمل الأديب هو اللغة التي يتصرف فيها على قدر عمق رؤيته ، واستبصاره للأشياء . فتراه يقيم علاقات بين المتباعدات . ويقيم وجودا للأشياء يختلف عن وجودها الخارجي وما ذلك الا لأنها أصبحت من ذاته ، تستمد قيمتها من رؤيته التي تدخل في تكوينها العناصر الباعثة سواء كانت عناصر انفعالية أو ثقافية (فاذا كانت القصيدة استعارة كبرى واذا كانت كل صورها وأدواتها الشعرية تعتمد على تغيير المعنى وتصحيح الانحراف المقصود فما هي وظيفة كل ذلك ؟ لماذا نقوم بتغيير المعنى ولا نسمي الأشياء بأسمائها ؟ لماذا يتحدث الشاعر عن " المنجل الذهبي " ويقصد القمر ؟

والاجابة على هذه التساؤلات تكمن في التناقض او التنافر القائم بين المعنيين المعنى الفكرى ، والمعنى الايحائي العاطفي . فكلاهما لا يتعايش مع الآخر في نفس الوعي والضمير ، وليس بوسع الدال أن يؤدى دلالتين متنافرتين في نفس الوقت ، ولهذا فان الشعر يقوم بما أطلق عليه " حركة الالتفاف " يقطع الحبل الأصلي الذى يطيل بين الدال والفكرة كي يضع مكانه الانفعال ، أو الاحساس ، يحاصر نظام الدلالة القديم ليجعل من الممكن تشغيل النظام الجديد ، وبهذا فان الشعر ليس مجرد شيء مختلف عن النثر ، بل هو ضد النثر ، وليست الاستعارة مجرد تغيير في المعنى ولكنها نسخ له وسخط لمعالمه ، فالكلمة الشعرية تتضمن موت اللغة وبعثها في آن واحد ، وليس بوسع الشاعر أن يسمي الأشياء بأسمائها ولا أن يقول " قمرا " وحسب لأن هذه

---

(١) أسرار البلاغة : ٢٥٧ (١٠٠٢

الكلمة تثير فينا وفي ضمائرنا حالة باردة محايدة ، ولكنها كي تثير صورة وجدانية لا بد أن تلجأ الى الحيلة الشعرية الى انتهاك قوانين اللغة العادية ، ولابد للشاعر اذن أن يقول عن القمر انه " منجل ذهبي في حقل النجوم " فيبتعد عن قوانين اللغة التي لا تسمح بتلاقي هذه الكلمات على هذا الشكل ليؤدي وظيفته الشعرية الحميمة) (١) .

وتحليل الاستعارة والبحث عن أركانها مستعار . ومستعار له ، وعلاقة المشابهة بينهما أمر يميت عمل الشاعر ، ويلغي شاعريته لأنه يردنا عن لغة الشاعر المبدعة الخلاقة الى اللغة العادية الايصالية التي يتجاوزها الشاعر في اللحظة التي نعد عمله شعريا ومن هذا المنطلق يقول الدكتور صلاح فضل (ينطلق النقاد عادة من مبدأ عام اذ يقترضون أن كل قصيدة لها معنى عام ويتصورون مهمتهم على أنها اكتشاف هذا المعنى فاذا قرأوا لأحد الشعراء بيتا يقول :

فوق السطح الهادئ تدرج الحمائم

أدركوا من قرائن القصيدة أنه يعني بالسطح البحر ، وبالحمائم المراكب ، وهم على حق في ذلك فمن يفهم غير هذا يخون الشاعر ، لكن هذا المعنى انسياب المراكب فوق الماء الهادئ — ليس شعريا في حد ذاته بدليل أننا يمكن أن نؤديه بعبارة نثرية عادية كما فعلنا . ويبدأ الشعر في اللحظة التي تسمي فيها البحر سطحا والمراكب حمائم ، عندئذ يحدث اعتداء وجرح لشفرة اللغة ، أي انحراف عن الاستخدام العادي هذا الانحراف هو الذي كانت تسميه البلاغة القديمة استعارة ، وهو وحده الآن الموضوع الحقيقي لدراسة الشعر) (٢) .

وبغض النظر عن اختلافنا معه في تسمية هذا الانحراف بالاستعارة — إذ ليست الاستعارة الا جزءا من صور هذا الانحراف الذي تختلف تسمياته في البلاغة العربية بمصطلحات تدخل تحت اسم المجاز — فهو محق في إشارته الى أن نقد الشعر يجب أن يبدأ من اللحظة التي تتكون فيها الكلمة الشاعرة ، ويكون العمل النقدي متجها إليها والى البحث عن سر الخلق اللغوي والابداع الشعري فيها عن طريق النظر الى تفاعل الكلمة مع السياق ذلك التفاعل القائم على الأخذ والعطاء ، والذي لا يقتصر على النظر الى السياق في ترابطه الذهني المنطقي ، وذلك لأن (أمر التفاعل بين الحدود لا ينجلي تماما ، الا بالتفرقة بين التركيب العضوي ، والتركيب المنطقي ، فالتركيب المنطقي موصوف بالآلية ، اجزاؤه مستقلة والعلاقات بين هذه الأجزاء اضافية بحيث لا

---

(١) نظرية البنائية في النقد الأدبي : ٢٨٠

(٢) المرجع السابق : ٢٧٧

يتأثر الجزء والعلاقة بين هذه الأجزاء بالنظم الكلي الذى يدخلان فيه ، أما التركيب الفني العضوى فيعني أن علاقة الجزء بالجزء تتضمن في ذاتها علاقة الجزء بكل التعبير فعناصر الاستعارة لا معنى لها الا من حيث ارتباطها بذلك المجموع الذى تخلقه بوساطة ما بينها من تفاعل ، وبعبارة أخرى يقتضي الفهم العضوى لبنية الاستعارة أن نقول : ان الاستعارة تقدم الينا حدودا لا وجود كاملا لها في خارج التعبير الذى أنتجته هي نفسها)(١) .

وهذه الفكرة في التفرقة بين التركيبين هي التي جعلت الدكتور مصطفى ناصف يقول أيضا " ومن ثم كان تفسير المجاز أمرا محفوفا بالصعاب ، ولا يمكن أن يأخذ الا جهة واحدة ويمثل لذلك بالفرق بين " أبواب الحياة الحديدية " و " أبواب المنتزه الحديدية " فالأبواب الحديدية جزء من المنتزه ، والعلاقة بينهما ثابتة لا تتغير على حين أن العبارة المجازية الا ذا أخذت مأخذ التفاعل بين جميع أجزائها تبين لنا فكرة الحياة في مشهد الأبواب الحديدية ، والأبواب الحديدية في مشهد الحياة ، وبحسب اختلاف وجهتي النظر المكتنين الى العبارة تتأثر الحياة بفكرة الأبواب الحديدية ، وتتأثر الأبواب الحديدية بفكرة الحياة تارة أخرى . واذا نظرنا الى الطرفين ، كل في مقام الآخر ، غدا الشبه الحقيقي معنى أنتجه التفاعل بين الحدين اللذين يشكلان معا المشبه به ، فالمشبه نوع من الحياة يمكن أن نتلهى به في مواجهة الأبواب الحديدية ونوع من الأبواب الحديدية خليق بالتأمل في مواجهة الحياة)(٢) .

وهذه الوظيفة التي اكتشفها النقد الحديث في الاستعارة ، والتي ترتفع على المعنى المعروف لكليهما لخلق وحدة جديدة معقدة أمر قد يقضي مسكلة الاستعارة بالكناية التي يرتد فيها البلاغيون الى معنى المشابهة ، ثم يضطرون الى أن يفترضوا أن المستعار حذف ورمز اليه بشيء من لوازمه يقول الدكتور مصطفى ناصف فلسنا في هذا النموذج أمام مشابهة مكنية . . . ذلك لأننا لا نميل الى أن تكون المنية في بيت أبي ذؤيب المشهور ، مشبهة بالسبع في اغتيال النفوس ، ولا نميل الى أن المنية هي السبع بادعاء السبعية لها وانكار أن تكون شيئا آخر غير السبع ، ولن نرى أن المكنية هي التشبيه المضمر في النفس المرموز اليه باثبات لازم المشبه به للمشبه (وهذا الاثبات هو الاستعارة التخييلية) المقام أيسر من ذلك ، فالاستعارة لا علاقة لها مباشرة بالسبع والمشابهة وانما هي العالم الخيالي الذى يعيش فيه الشاعر ، ويؤثره على التخيلات الساذجة الأولى التي قال بها كولردج ، فقد أعيد تنظيم الاحساس بالمنية والسبع

---

(١) الصورة الأدبية : ١٤٢ (٢) المرجع السابق : ١٤٣

وأعطى لهذين العنصرين وظيفة جديدة ، بل ربما يستحيل افتراس المنية نفسه عنصرا آخر متميزا من ذاك السبع نفسه . وقد غاب عن أذهان محللي الاستعارة أن العناصر التي يتناولها الشاعر بالتفكيك ، واعادة التركيب تصبح فعلا في الاستعارة جديدة ، وان هذه الجدة المتخيلة هي مصدر ما في الاستعارة من روعة (١) وذلك لأن (الخيال في الاستعارة حين يستعين ببعض العناصر الحسية انما يريد من وراء ذلك غاية أخرى هي التسامي عليها وخلق مقولة أو عالم خيالي ثاني بديل منها) (٢) .

وما عسى أن يكون مصير المبالغة في الاستعارة بعد رفض فكرة تحليل الاستعارة الى مكوناتها المفترضة ، والدعوة الى التعامل معها كوجود جديد ليس له مقابل خارجي ؟

ان المبالغة تجاوز لواقع أو عادة ، ويتم ذلك بداهة بمقارنة الوجود بالواقع والعادة ، ولكننا ما دمنا قد رفضنا رفضا قاطعا فكرة الاستعارة وتحويلها الى ما يزعم أنه مكوناتها على ضوء أن الاستعارة اختصار لتشبيه ، وأنها عدول عن حقيقة أصلية ، فلا مجال للحكم على الاستعارة بالمبالغة وتجاوز الواقع والعادة ووضعها في قفص الاتهام والدفاع عنها باخراجها وتبرئتها من تهمة الكذب وذلك لأن (الاستعارة عملية خلق جديد في اللغة ، ولغة داخل اللغة ، فيما تقيمه من علاقات جديدة بين الكلمات . وبها تحدث اذابة لعناصر الواقع ليعاد تركيبها من جديد ، وهي في هذا التركيب الجديد كأنها منحت تجانسا كانت تفتقده ، وهي بذلك تبث حياة داخل الحياة التي نعرف أنماطها الرتيبة ، وهي بذلك تضيف وجودا جديدا ، أى تزيد الوجود الذى نعرفه ، هذا الوجود الذى تخلقه علاقات الكلمات بواسطة تشكيلات لغوية عن طريق تمثيل جديد له (٣) .

---

(١) الصورة الأدبية : ١٣٧ ، ١٣٨ (٢) المرجع السابق : ١٣٨
(٣) فلسفة البلاغة : ١٥٧

٣ ـ المبالغـــة في الكنايـــــة

ان تقديم استمراض تاريخي لتعريف الأسلوب الكنائي وتطوره أمر لا يهم هذا البحث (١) ، وانما الذى يهمه أن النظرة الغالبة الى الكناية في تراثنا النقدى والبلاغي تنظر اليها على أنها دلالة إشارية تفهم لازما لمعنى الكلام مهملة لدلالة الألفاظ التي يحملها ذلك التركيب اللغوى .

فالامام عبد القاهر يعرفها بقوله : (والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومىء به اليه ، ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولهم " هو طويل النجاد " يريدون طويل القامة " وكثير رماد القدر " يعنون كثير القرى ، وفي المرأة " نؤوم الضحى " والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا اليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود وأن يكون اذا كان ، أفلا ترى أن القامة اذا طالت طال النجاد ؟ واذا كثر القرى كثر رماد القدر ؟ واذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ذلك أن تنام الى الضحى ؟) (٢) ويعرفها السكاكي بقوله (الكناية هي ترك التصريح بذكره الى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور الى المتروك كما تقول فلان طويل النجاد ولينتقل منه الى ما هو ملزومه وهو طول القامة ، وكما تقول فلانة نؤوم الضحى لينتقل منه الى ما هو ملزومه ـ وهو كونها مخدومة غير محتاجة الى السعي بنفسها في اصلاح المهمات) (٣) ويعرفها الخطيب القزويني بقوله (الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز ارادة معناه حينئذ كقولك فلان طويل النجاد أى طويل القامة وفلانة نؤوم الضحى أى مرفهة مخدومة غير محتاجة الى السعي بنفسها في اصلاح المهمات) (٤) .

واما افادتها المبالغة فقد أشار اليها الامام عبد القاهر عندما قال : (اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم اليها بخبره ولكنها في طريق اثباته لها ، وتقريره اياها) (٥) بعد قوله (قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح والتعريض أوقع من التصريح ، وان للاستعارة

---

(١) لقد كفانا مؤنة ذلك الدكتور محمود السيد شيخون في كتابه : الأسلوب الكنائي .

(٢) دلائل الاعجاز : ٥٢   (٣) مفتاح العلوم : ١٧٠

(٤) الايضاح : ١٨٣   (٥) دلائل الاعجاز : ٥٦

مزية وفضلا ، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة)[١] . ويقول مفسرا هذا الشأن في الكناية (تفسير هذا أن ليس المعنى اذا قلنا : (ان الكناية أبلغ من التصريح) انك لما كنيت عن المعنى فردت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في اثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد فليست المزية في قولهم : جسم الرماد . أنه دل على قرى أكثر بل انك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته ايجابا هو أشد وادعيته دعوى أنت بها أنطق ، وبصحتها أوثق)[٢] ، ويضيف قائلا (واذ قد عرفت مكان هذه المزية والمبالغة التي لا تزال تسمع بها وأنها في الاثبات دون المثبت فان لها في كل واحد من هذه الأجناس ـ الكناية ـ الاستعارة ـ المجاز ـ سببا وعلة . اما الكناية فان السبب في أن كان للاثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم اذا رجع الى نفسه أن اثبات الصفة باثبات دليلها . وايجابها بما هو شاهد في وجودها ، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء اليها فتثبتها هكذا ساذجا غفلا ، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها الا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط)[٣] .

وافادة الكناية للمبالغة أمر أشار اليه أيضا الزركشي حيث ذكر أن من فوائد الكناية (قصد المبالغة في التشنيع كقوله تعالى حكاية عن اليهود ـ لعنهم الله ـ " وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا "[٤] فان الغل كناية عن البخل وقوله تعالى " بل يداه مبسوطتان "[٥] ، كناية عن كرمه)[٦] .

وان حجة الحموى عند ما تحدث عن قول ليلى الأخيلية :

ومخرق عنه القميص تخاله ... وسط البيوت من الحياء سقيما

فقال (كنت عن الافراط في الجود بخرق القميص لجذب العفاة له عند ازدحامهم عليه لأخذ العطاء)[٧] .

ولازم الكناية هذا الذى التفتوا اليه ، وجعلوا من وظائفها المبالغة في الدلالة عليه أمر استحوذ على اهتمامهم ، وكفاهم مؤونة البحث في الدلالة اللغوية لهذه التراكيب وكأنها ليست الا مجرد أصوات تشير الى لازمها المستعين .

ولقد اتخذت هذه التراكيب عبر التراث النقدى والبلاغي صفة الثبوت الدائمة وكانت معرفة اللازم والوسائط الذهنية بين التركيب وبين اللازم ، وأن الكناية جاءت

---

(١) المصدر السابق : ٥٥ (٢) المصدر السابق : ٥٦ ، ٥٧
(٣) دلائل الاعجاز : ٥٧ ، ٥٨ (٤) سورة المائدة : ٦٤
(٥) سورة المائدة : ٦٤ (٦) البرهان في علوم القرآن :
(٧) خزانة الأدب :

للدلالة عليه من طريق هو أبلغ وآكد هي الغاية في البحث في هذه التراكيب الكنائية مع أن هذا اللازم ليس الا معرضا ومناسبة كلية من المناسبات التي قيلت فيها هذه التراكيب .

ف " بعيدة مهوى القرط " اتخذوها رمزا وكناية عن طول العنق . وهذا التركيب جاء في قول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط ، إما لنوفل ... أبوها ، واما عبد شمس وهاشم

وقال عنه قدامة بن جعفر : (وانما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص به ، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد ، وهو بعد مهوى القرط) (١) .

وقال أبو هلال العسكرى (فأراد أن يصف طول عنقها ، فأتى بما دل عليه من بعد مهوى القرط ، وبعد مهوى القرط ردف لطول العنق) (٢) ولم يتفق ... السكاكي

ولكن الدارس لدلالة التركيب اللغوية وسياق التركيب في البيت والنص يمكن أن يجد فيه بعدا آخر يسمو على طول العنق ويتجاوزه . ذلك أن البيت ورد في قصيدة عمر بن أبي ربيعة التي يقول فيها :

رأيت بجنب الخيف هندا فراقتي ... لها جيد ريم زينته الصرائم
وذو أشر عذب ، كأن نباته ... جنى أقحوان نبته متناعم
نظرت إليها بالمحصب من منى ... ولي نظر لولا التحرج عارم
فقلت أشمس ، أم مصابيح بيعة ... بدت لك تحت السجف أم أنت حالم
مهفهفة غراء ، صفر وشاحها ... وفي المرط منها أهيل متراكم
بعيدة مهوى القرط ، إما لنوفل ... أبوها ، واما عبد شمس وهاشم
ومد عليها السجف يوم لقيتها ... على عجل تباعها والخوادم
فلم استطعها غير أن قد بدا لنا ... عشية لاحت كفها والمعاصم
معاصم لم تضرب على البهم بالضحى ... عصاها ووجه لم تلحه السمائم (٣)

فالشاعر منذ البداية يقيم للمرأة وجودا في شعره يختلف عن وجودها الواقعي ومقارنة ذلك الوجود بالواقع يخرج لنا هذا النص في صور مبعثرة ، وممزقة .

ولقد كانت المرأة في الشعر العربي عالم قداسة ، وخصب ، ونماء ، وفي هذه القصيدة يتجسد ذلك بصور شتى ، يراها الشاعر في مكان مقدس ، ويلفت نظره منها الجيد ، ذلك الجيد الذى لم يعد جيد امرأة جميلة ، فحسب ، وانما أصبح جيد

---

(١) نقد الشعر : ١٥٨ (٢) الصناعتين : ٣٦٢

(٣) ديوان عمر بن ابي ربيعة : الأشر : حده ورقة في أطراف الأسنان ومنه قيل : ثغر مؤشر ، وانما يكون ذلك في أسنان الأحداث وتفعله المرأة الكبيرة بتشبه بأولئك (لسان العرب : أشر) ـ المرط : كساء من خز أو صوف أو كتان وقيل هو الثوب الأخضر وجمعه مروق (لسان العرب: مرط)

حيوان له في الشعر العربي مكانته ، التي ربما استمدها من تقديس الجاهليين لـه . ويلفت نظره كذلك فاها الذى لم يعد ثغرا حاويا لأسنان جميلة ، وذا رائحة طيبـة فحسب . بل يزيد على ذلك بأن أصبح رمزا للعطاء والخصب .

ولقد انبعث هذا الوجود في جو قداسة الزمان والمكان ، الذى ارتبط بهيبة وجلال لهذه المرأة ... وتأثر بهذا الوجود واقع الشاعر الحسي فتخرج نظره العارم وأصبح في عجز عن المجال القدسي الذى ارتفعت اليه ، وفي عجز عن تحديد موقفـه هل هو في موقف تكون النظرة فيه واقعية ، أم أنه في عالم الأحلام :

نظرت اليها بالمحصب من منى ولي نظرة لولا التحـرج عـارم

فقلت أشمس ، أم مصابيح بيعة بدت لك تحت السجف أم أنت حالم

اننا نعفّـى على رؤية هذا العالم القدسي لو قلنا انه أراد تشبيههـا بالشمس أو مصابيح البيعة في الضياء والاشراق ونعفّـى على علامة التشكك "أم" الـتي تحمل لنا انفصال المرأة عن وجودها الواقعي ، وابتعادها عنه الى ذلك العالـم القدسي . مما جعل الشاعر يظهر لنا معاناته ، وحيرته في تصور ذلك العالم ، لأنـه أبقى نفسه في واقعه ذو النظرة العارمة التي يقاومها التحرج ، والجلال ، والهيبـة تلك الهيبة التي تستمدها من نسبها العريق :

بعيد مهوى القرط ، اما لنوفل أبوها ، واما عبد شمس وهاشـم

واذا حصرنا فائدة الكناية (بعيدة مهوى القرط) في الدلالة على طول العنق عفينا على دلالة الألفاظ وحياتها داخل السياق .

فهنا لفظة " بعيد " وهنا " القرط " وهنا " نوفل " و " عبد شمس " و " هاشـم " وهذه الأسماء تشترك في العزة والحظوة لديها ، فـ" نوفل " و " عبد شمس " و " هاشم" أسماء لها بعد في النسب عريق ، وهذا القرط في أذنها يحظى لديها بأن يستقـر في مكان عال ، يستمد علوه من علو النسب والمهابة والجلال التي صبغها الشاعر عليها .

لقد أقامها الشاعر في وجود يرفع رأسها ، ويمدّ عنقها ، فهي المتبوعـة المخدومة التي مدّ عليها الغطاء ، وأخفى عن ناظر الشاعر هذه الطوالم من القدسية والجلال ، والجمال ، فلم يستطع أن يظفر بها لأنها مرت عندما نظر الى وجههـا كالحلم ، ولم يستطع أن يتأملها ، ولم يبق من ذلك الوجود الا ما يراه من كفّهـا ومعاصمها ، تلك المعاصم التي لا تزال في حرز من عراقة الحسب والنسب ، عـن أن تضرب بها على البهم أو تقوم بما يقوم به السواد .

وهكذا يتضح لنا أن تحليل الكناية دون اهمال لمدلولات ألفاظها داخـل السياق ، يعطي لهذه الكناية حياة جديدة غير تلك التي كانت لها عندما انتزعت مـن

سياقها التي قيلت فيه ، وأخذت كقوالب جاهزة لا يتغير مدلولها مهما تغيرت النصوص.

وليس معنى ذلك أنها تتجرد عن مدلولها ، ولكن ذلك المدلول ليس هو كل شيء لأن ألفاظها لها حركة ووجود داخل كل نص يختلف عن حركتها ووجودها في أى نص آخــــر .

معنى " أبلـغ " في قولهم : المجاز أبلغ من الحقيقة :

وقبل أن نختتم هذا الفصل يجدر بنا أن نتبين ما الذى يعنيه العلماء بقولهم (المجاز أبلغ من الحقيقة ، والكناية أبلغ من التصريح ، والتمثيل أبلغ من غيره) !

واجابة هذا السؤال تتضح بالرجوع الى ما سبق أن ذكرناه عن دلالة " أبلـغ " عند كثير من العلماء ، فلقد رأينا أنها في بعض النصوص ترتبط بالمبالغة وتفسر بها أو بمعناها (١) ، وفي بعضها الآخر تأتي في مجال التفاضل بين كلمتين مفردتين كقولهم قدير أبلغ من قادر (٢) .

وقد أتت أيضا في مجال التفاضل بين آية وأخرى (٣) ، ومع أن صياغة أفعل التفضيل لا تأتي من الرباعي الا على رأى الأخفش والمبرد الذى ذكره ابن يعيش فقال (وكان أبو الحسن الأخفش يجيز بناء أفعل من كذا ، من كل فعل ثلاثي لحقته زوائد ، قلت أو كثرت ، كاستفعل ، وافتعل ، وانفعل ، لأن أصلها ثلاثة أحرف ، قال : وانما قالوا : ما أعطاه للمال ، وأولاه للخير ، لأنه ثلاثي الأصل ، وهذا المعنى موجود في انطلق ونحوه مما فيه زيادة ، وتابعه أبو العباس المبرد ...) (٤) ـ يرجح أن تكون " أبلـغ " في كل ما مر ذكره تقتضي المبالغة . بل انها فسرت بذلك في الموضع الأول ، وأما ترجيح اقتضائها المبالغة في الموضعين الآخرين ، فانه لا وجه لأن تفضل كلمة أختها مجردة عن السياق الا بأن تكون احداها تدل على زيادة في المعنى عن أختها . ومن هنا سموا بعض هذه الصيغ بصيغ المبالغة .

وأما في الموضع الآخر فان تنزيه الكتاب الكريم ، والايمان باعجاز كل آية منه يقتضينا أن نرجح انصراف " أبلغ " في هذه المفاضلة ، بين الآيات عند النقاد الى كونها منصرفة للدلالة على المبالغة لأنه لا يمكن أن نأتي بآية من سورة ونفضلها على آية في سورة أخرى بغير ذلك كأن نقول ان هذه الآية أوفي بلاغة ، أو أفصح حيث أن لكل سورة سياقها الخاص . بل ان في السورة الواحدة سياقات مختلفة . ثم ان أولئك النقاد كانوا يأتون بأبلغ اذا جاءت في المفاضلة بين الآيات ـ كما رأينا في الباب الأول ـ مجردة او يخصونها بالأبلغية في الغرض ، ولا يقرنونها بأى شيء آخر يمكننا أن نستنتج منه أنهم يريدون تفضيل آية في البلاغة على آية .

ولذلك تصرف " أبلغ " في هذه المواضع الى المبالغة سواء كان ذلك عن طريق صياغة " أفعل " التفضيل من الرباعي ، على رأى الأخفش والمبرد ، أو كان ذلك عن طريق صياغة

---

(١) انظر ديوان المعاني ١/١٢٢ ، ٢/١١٢ ، ٢/١١٠ وحديثنا عن دلالة " أبلغ " عند أبي هلال ص من هذا البحث .

(٢) انظر المحتسب : ٢/١٣٤ ، والخصائص : ٣/٢٦٧ ، والمثل السائر : ٢/٦٠

(٣) انظر الكشاف : ٣/١٤١ والصناعتين (٤) شرح المفصل : ٦/٩٢

أفعل التفضيل من بلغ بمعنى وصل وانتهى ، فتكون أبلغ وصولا ونهاية في المعنى فهي لذلك تحمل المبالغة عن هذا الطريق ، وذلك لأن من معاني بلغ الوصول والنهاية كما رأينا عند أبي هلال العسكري (١) ، وكما نراه الآن في قول ابن منظور (بلغ الشيء يبلغ بلوغا ، وبلاغا وصل وانتهى ، وأبلغه هو ابلاغا ، وبلغه تبليغا ، وقول أبي قيس بن الأسلت :

قالت : ولم تقصد لقيل الخنى مهلا فقد أبلغت أسماعي

انما هو من ذلك ، أي قد انتهيت فيه ، وأنعمت (٢) وقوله (وبلغ النبت انتهى) (٣) واذا جئنا الى ما نحن بصدده من معنى أبلغية المجاز ، والكناية ، والاستعارة وجدنا الامام عبد القاهر يقول (قد أجمع الجميع على أن الكناية ، أبلغ من الافصاح ، والتعريض ، أوقع من التصريح ، وأن للاستعارة مزية وفضلا . وان المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة . الا أن ذلك وان كان معلوما على الجملة ، فانه لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ به غايته ، وحتى يفلفل الفكر الى زواياه) (٤) . ويضيف قائلا (اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم ان ليست المزية التي تتبعها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة ، التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم اليها بخبره لكنها في طريق اثباته لها ، وتقريره اياها (٥) فهو هنا لا يفسر " أبلغ " بالمبالغة ، وانما يجعل المبالغة جزءا وميزة من مزايا هذه الأجناس التي أصبحت بها " أبلغ " مما يدل على أن مدلول " أبلغ " هنا أكثر سعة لتشمل المبالغة ، والتقرير ، والتوكيد وما شابه ذلك مما جعله من مزايا هذه الأجناس .

وبالمبالغة شرح ابن يعقوب المغربي قول الخطيب القزويني (أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح) حيث قال (أبلغ أي أكثر مبالغة في اثبات المقصود) (٦) ، وقال الدسوقي في ذلك (قيل عليه ان أبلغ ان كان مأخوذا من بلغ بضم اللام بلاغة ، ففيه أن البلاغة لا يوصف بها المفرد ، والكناية كلمة مفردة والمجاز قد يكون كلمة ، وأيضا الحال ان اقتضى الحقيقة كانت البلاغة في الاتيان بها ، ولا عبرة بغيرها من كناية أو مجاز ، وان اقتضى المجاز والكناية كانت البلاغة في الاتيان بما ذكر ولا عبرة بالحقيقة ، وان كان مأخوذا من بالغ مبالغة ففيه أن أفعل التفضيل لا يصاغ من الرباعي . وقد يجاب باختيار الأول وأن المراد البلاغة اللغوية وهي الحسن فقوله أبلغ من الحقيقة أي أفظ وأحسن منها ، ويصح ارادة الثاني بناء على مذهب الأخفش والمبرد المجوزين لصوغ أفعل التفضيل من الرباعي ، والمعنى أكثر مبالغة في

---

(١) الصناعتين : ١٢ (٢) لسان العرب : بلغ
(٣) لسان العرب : بلغ (٤) دلائل الاعجاز : ٥٥ ، ٥٦
(٥) المصدر السابق : ٥٦ (٦) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ٤/٥

اثبات المقصود (١) . وقد رأينا فيما سبق أنه يجوز أن يكون من بلغ بمعنى وصل وانتهى فيكون أبلغ وصولا في تأدية المعنى المراد .

ولقد جعلها البهاء السبكي من بلغ بالفتح فقال (قولنا في هذا الفصل كله الكناية والمجاز أبلغ هو بالمعنى اللغوى كقولنا فعيل أبلغ من فاعل ، وليس من البلاغة المصطلح عليها في هذا العلم لأمرين أحدهما : أن تلك لا تكون في المفرد ، ولا شك أن المجاز والكناية يكونان مفردين غالبا . نعم ما ذهب اليه عبد القاهر من أن الأبلغية في الاثبات يمشي معه في تسمية ذلك بلاغة بالاصطلاح . الثاني : أن أبلغ أفعل تفضيل فاذا حملت على المعنى اللغوى كان على بابه من التفضيل لأن الحقيقة بالغة للمقصود بكل حال ، فالمجاز أبلغ منها ، فاذا حملناه على الاصطلاح كان من بلغ بالضم وهو دليل على حصول البلاغة بالحقيقة ، وليس كذلك لأن الحقيقة المجردة لا بلاغة فيها ، فلا يكون من بلغ بالضم بل من بلغ بالفتح) (٢) .

واذا كانت البلاغة العربية لها اهتمام كبير بالمخاطب ، وايصال المعنى اليه ، وتبليغه اياه . فتلح كثيرا على التقرير والتوكيد ، والاثبات ، فان ذلك يرجح أن تكون " أبلغ " اذا كانت مطلقة مأخوذة من البلاغ (وهو الاسم من الابلاغ والتبليغ . وهما الايصال ، وفي الحديث " كل رافعة رفعت علينا من البلاغ) (٣) . فلذلك يكون معناها آكد ، وأشد تقريرا ، واثباتا وايصالا للمعنى ، ونفاذا له قال في القاموس (وأمر الله بلغ أى بالغ نافذ يبلغ أين أريد به) (٣) . على ذلك جاء القول (اللهم سمعا لا بلغ وسمعا لا بلغا أى نسمع به ولا يتم أو يقوله من سمع خبرا لا يعجبه) (٣) . ولذلك قال أبو هلال العسكرى (فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه) (٤) .

ومن هنا تكون " أبلغ " أفعل تفضيل على ذلك ، ويلاحظ أن معرفة المفاضلة في الايصال ، والاثبات ، والتقرير ، والتوكيد ، ترتبط بالكلام اذا كان مركبا ، وأما اذا كانت المفاضلة بين كلمتين مفردتين مثل قولهم فعيل أبلغ من فاعل فان المفاضلة تنصرف الى الزيادة في المعنى عن طريق بلوغ النهاية فيه ، وتكون هنا اما على بابها بمعنى انتهى أو مأخوذة من " بلغ " كما سبق أن أشرنا الى ذلك .

ويبقى علينا بعد ذلك أن نعرف ما الذى يقصده الامام عبد القاهر عندما ناقش أبلغية هذه الأجناس ؟ ولمعرفة ذلك علينا أن نعرض من كلامه ما نعتقد أنه يعطينا تكاملا للقضية التي طرحها ، فهو يقول (قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من

---

(١) حاشية الدسوقي على شرح السعد ضمن شروح التلخيص : ٤ / ٢٧٥
(٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٤ / ٢٨١
(٣) القاموس المحيط : بلغ وانظر المادة نفسها في لسان العرب وتهذيب اللغة .
(٤) الصناعتين : ١٢

من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، وأنّ للاستعارة مزية وفضلا ، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة . إلا أن ذلك وإن كان معلوما على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته ، وحتى يفلفل الفكر إلى زواياه وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة)[١] .

فهو هنا كما تلاحظ لا ينفي عنها الأبلغية وإنما يريد أن يؤكد ذلك ويقرره ، ويدفع كل شبهة تشكك فيه ، ثم يقول (اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة التي تدعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره ، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها)[٢] . وهنا نراه يجعل من أبلغية هذه الأجناس ومزاياها : المبالغة ولكنه لا يجعلها في المثبت بل في طريقة الإثبات يقول في تفسير ذلك (تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا : "إن الكناية أبلغ من التصريح" أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى انك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد ، فليست المزية في قولهم جمّ الرماد ، أنه دل على قرى أكثر ، بل إنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ ، وأوجبته ايجابا هو أشد ، وأدعيته دعوى أنت بها أنطق وبصحتها أوثق .

وكذلك ليست المزية التي تراها لقولك "رأيت أسدا" على قولك "رأيت رجلا لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجرأته" أنك أفدت في الأول زيادة في مساواته الأسد ، بل أنك أفدت تأكيدا وتشديدا وقوة في إثباتك له هذه المساواة وفي تقريرك لها فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته ، بل في إيجابه والحكم به)[٣] ثم يشرح السبب في كل ذلك فيقول (وإذ قد عرفت مكان هذه المزية والمبالغة التي لا تزال تسمع بها وأنها في الإثبات دون المثبت ، فإن لها في كل واحد من هذه الأجناس سببا وعلة . أما الكناية فإنّ السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم – إذا رجع إلى نفسه – أن إثبات الصفة باثبات دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها ، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا شاذ جا غفلا ، وذلك أنك لا تدعى شاهد الصفة وذليلها إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط .

وأما الاستعارة فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة أنك إذا قلت رأيت أسدا كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة حتى جعلتها كالشيء الذى يجب له الثبوت والحصول ، وكالأمر الذى نصب له دليل يقطع بوجوده ، وذلك أنه إذا كان أسدا

---

(١) دلائل الاعجاز : ٥٥ ، ٥٦ (٢) المصدر السابق : ٥٧

(٣) المصدر السابق : ٥٦ ، ٥٧

فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة ، وكالمستحيل أو الممتنع أن يعرى عنها وإذا صرحت بالتشبيه فقلت : رأيت رجلا كالأسد كنت قد أثبتها إثبات الشيء يترجح بين أن يكون وبين أن لا يكون ، ولم يكن من حديث الوجوب في شيء .

وحكم التمثيل حكم الاستعارة سواء ، فإنك إذا قلت : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فأوجبت له الصورة التي يقطع معها بالتحير والتردد كان أبلغ لا محالة من أن تجرى على الظاهر فتقول : قد جعلت تردد في أمرك فأنت كمن يقول اخرج ولا أخرج ، فيقدم رجلا ويؤخر أخرى) (١) .

واعترض الخطيب القزويني على عبد القاهر في ذلك فقال (ولقائل أن يقول قد تقدم أن الاستعارة أصلها التشبيه ، وأن الأصل في وجه الشبه أن يكون في المشبه به أتم منه في المشبه ، وأظهر فقولنا : رأيت أسدا يفيد للمرء شجاعة أتم مما يفيدها قولنا : رأيت رجلا كالأسد لأن الأول يفيد شجاعة الأسد والثاني شجاعة دون شجاعة الأسد) وأجاب عن ذلك بقوله (ويمكن أن يجاب عنه بحمل كلام الشيخ على أن السبب في كل صورة ليس هو ذلك لا أن ذلك ليس بسبب في شيء أصلا) (٢) . وإذا عرفنا أن الإمام عبد القاهر قد أورد هذا الاعتراض وأجاب عليه كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد أبو موسى (٣) ، فان إجابته هي القاطعة في بيان مراده والمغنية لنا عن النظر في إجابات الخطيب وشراحه .

قال الإمام عبد القاهر موردا الاعتراض ومجيبا (واعلم أنه قد يهجس في نفس الإنسان شيء يظن من أجله أنه ينبغي أن يكون الحكم في المزية التي تحدث بالاستعارة أنها تحدث في المثبت دون الإثبات . وذلك أن تقول : إنا إذا نظرنا إلى الاستعارة وجدناها أينما كانت أبلغ من أجل أنها تدل على قوة الشبه ، وأنه قد تناهى إلى أن صار المشبه لا يتميز عن المشبه به في المعنى الذى من أجله شبه به ، وإذا كان كذلك كانت المزية الحادثة بها حادثة في الشبه ، وإذا كانت حادثة في الشبه كانت في المثبت دون الإثبات والجواب عن ذلك أن يقال : أن الاستعارة لعمرى تقتضي قوة الشبه ، وكونه بحيث لا يتميز المشبه عن المشبه به ، ولكن ليس ذاك سبب المزية ، وذلك لأنه لو كان ذاك سبب المزية لكان ينبغي إذا جئت به صريحا فقلت : رأيت رجلا مساويا للأسد في الشجاعة ، وبحيث لولا صورته لظننت أنك رأيت أسدا . وما شاكل ذلك من ضروب المبالغة أن تجد لكلامك المزية التي تجدها لقولك : رأيت أسدا ، وليس يخفى على عاقل أن ذلك لا يكون) (٤) .

---

(١) المصدر السابق : ٥٧ ، ٥٨ (٢) الايضاح ضمن شروح التلخيص: ٤/٢٧٧

(٣) انظر التصوير البياني : ٤٣٥-٤٣٧ (٤) دلائل الاعجاز : ٣٤٤

وإجابة الإمام عبد القاهر هذه لا تنفي المبالغة عن هذه الأجناس ، ولكنها ليست هي السبب الوحيد في أبلغيتها ، وإنما تتعاضد مع ما رأى أن هذه الأجناس تحمله من التقرير ، والتوكيد ، والإثبات في تكوين أبلغية كل منها ، وهذا أمر يحسب للإمام عبد القاهر إذ أنه لم يجعل وظيفة هذه الأجناس ومزاياها في المبالغة ، وكان يجدر بمن تلاه أن يتابع هذه الفكرة ، ويبحث في أسباب أبلغيتها وألا يقتصر فيها على المبالغة أو ما كان الإمام عبد القاهر يدور فيه ، فكما أن الإمام اجتهد ، فعلينا أن نجتهد وليس ضروريا أن يوافق اجتهادنا اجتهاد الإمام عبد القاهر الذى سن لنا في كتابية الاجتهاد في اكتناه أسرار البلاغة والإعجاز ، وعدم الاكتفاء بمتابعة السابقين .

لقد راعت بلاغة هذه الأساليب الإمام عبد القاهر فرأى أن الأمر فيها لو كان يقتصر على المبالغة لكان ينبغي في أسلوب استعارة (رأيت أسدا) مثلا إذا جئت به صريحا فقلت : رأيت رجلا مساويا للأسد في الشجاعة بحيث لولا صورته لظننت أنك رأيت أسدا وما شاكل ذلك من ضروب المبالغة أن تجد لكلامك المزية التي تجدها لقولك (رأيت أسدا)، ولقد بين أن ذلك لا يخفى على عاقل لا يكون . وحيث إن عبد القاهر يرى أن كل جنس من هذه الأجناس يصور معنى سابقا عليه ، وأن ليس للفظ تأثير في المعنى إيجادا ولا زيادة ، أقام هذه الصور مقام البينات التي لا دور لها إلا تأكيد المعنى وإثباته ، إذ ليس لها كما يقول (تأثير في ذات المعنى وحقيقته ، بل في إيجاده والحكم به)(١) .

ولقد اعترض عليه البهاء السبكي في جعل هذه الصور مقام البينات ، وتعليل وجودها بالإثبات والتوكيد فقال (ما ذكره الشيخ مخالف لاتفاقهم على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة ، ولو كان كما قال لما كانت الكناية والمجاز أبلغ ، بل كان الأبلغ هو إثبات التشبيه وأما قوله إن التأكيد إنما هو لتأكيد التشبيه ففيه نظر ، لأن تأكيد التشبيه إنما يكون بما يرد على الجملة من أن واللام مثلا ، والتأكيد في الاستعارة إنما وقع في لفظ مفرد والتأكيد يكون لمعناه كما أن المبالغة في قولك رحيم لتحويل صيغته من فاعل إنما كان لزيادة الرحمة لا لتأكيد اثباتها ، وأما قوله إن الكناية ليست أبلغ من التصريح في المعنى، فيمكن الذهاب اليه وأن يقال ليس كثير الرماد يدل على كرم لا يدل عليه كثير القرى ثم كثرة القرى ليست المكنى عنه ، بل المكنى عنه الكرم ، وكثرة القرى من جملة الوسائط بين المكنى عنه والمكنى به ، وأما قوله إن التأكيد فيه للتشبيه فممنوع على نحو منع ما قبله ، وأما قوله تأكيد الإثبات في رأيت الأسد ، فكأن مراده اثبات وقوع الرؤية على الأسد ، وإلا فتأكيد الإثبات يكون في إثبات المسند للمسند إليه فكان حقه أن يمثل بجاءني أسد وأما تمثيله بقولك زيد والأسد سواء فقد يقال هذا المثال أخص من المدعى فإن زيدا أو الأسد سواء من قبيل التشابه المستدعى لاستواء الطرفين لا من قبيل التشبيه المستدعي

---

(١) المصدر السابق : ٥٧

(رجحان المشبه به فلا يلزم من ثبوت التساوى بين التشابه والاستعارة إن سلمناه ثبوت التساوى بين التشبيه والاستعارة مطلقًا كما ادعاه بل الذى يظهر أن التشابه أبلغ من الاستعارة لأن في الاستعارة أصلا وفرعا وليس ذلك في التشابه ، وأما قوله إنه إثبات الشيء ببينة فقد يقال إن هذا لا تحقيق له وينبغي أن يقال : ادعاء الشيء ببينة ، وحينئذ يتضح ، أما قولنا اثبات الشيء ببينة مع جعلنا التأكيد إنما هو للإثبات ، فليس في إخباره بكثرة الرماد إثبات كثرة الرماد المستلزم للكرم)(١) .

وعقب البهاء السبكي على ذلك بقوله (وبعد أن كتبت هذا الإشكال رأيت الإمام فخر الدين وقع عليه ، فحمدت الله تعالى ، ثم عقبه الإمام فخر الدين باعتراض ثان ، وهو أن الاستدلال بوجود اللازم على الملزوم باطل لأن الحياة لازمة للعلم ، ولا يمكن الاستدلال بوجود الحياة على وجود العلم ، وفيما قاله نظر ، وجوابه أن المراد اللازم المساوى ولا مانع من الاستدلال به بمعنى المعرف ولهذه الشبهة قال المصنف إن الانتقال في الكناية من الملزوم الى اللازم)(٢) .

وإذا كان هذا الجدل يضعنا أمام رياح الشك التي كانت تهب على ما جعلوه من بلاغة هذه الأجناس التي آمنوا ببلاغتها ، وجرى الكلام فيها مجرى الأمثال فقالوا : المجاز أبلغ من الحقيقة ، والكناية أبلغ من التصريح ، فأى بلاغة تبقى لها بعد ذلك ؟؟

إن هذه الرياح لم تكن لتهب على ما في هذه الأجناس من بلاغة ، لو وضعناها في مكانها ، ولو أخذوا كلا منها منفصلا عما تصوروه المقابل الحرفي له ، إن بلاغة هذه الأجناس كما سبق أن أشرنا يكمن في التركيب اللفظي لكل منها الذى تتفاعل فيه كل لفظة بما تحمل من معانيها الكامنة فيها — التي لا تفتقر لدليل خارجي — مع التركيب الذى يتفاعل مع السياق ليحقق الوجود اللغوى ، الذى يريده مبدع العمل الفني .

ولكنهم لأنهم تصوروا أن كل جنس من هذه الأجناس عبارة عن صورة لإخراج معنى سابق عليها ، لذلك كانت كل بلاغة لها عندهم تعتمد على رابط يربطها بذلك المعنى ، كالتوكيد والاثبات ، والتوضيح ، والمبالغة .

وحيث أنهم كانوا يشكون في هذه الأشياء فعلينا بعدهم أن نتجاوز ما كانوا يدورون فيه . وأن ننظر إلى هذه الأجناس في ظل وجودها المستقل عن أى معادل حرفي ~~وأن ننظر إلى~~ خارجي له ، وبذلك نتجاوز فكرة إقامة هذه الأجناس مقام البينات (فقول القائل فلان كريم أو شجاع لا يفتقر إلى دليل حتى يقال إنه كثير الرماد أو إنه كالأسد إذ ليس المقام مقام إنكار يستدعي البينات ، وإنما هو مقام تصديق بما يقال بناء على التسليم بحكم اللغة ، ومن لم يسلم بذلك لا يجدى معه الكلام ، ولو اقترن بألف دليل

---

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٤/٢٧٨ — ٢٨٠

(٢) المصدر السابق : ٤/٢٨٠

لأن شأنه شأن الجاهل ، باللغة ومعاني الألفاظ والكلام من حيث أنه عمل انســـــاني لا يصح إلا مع التسليم بالمضامين التي يشتمل عليها لأنها من قيم الثقافة التي لا تستقيم بغيرها اللغة ، ومعنى الألفاظ كامن فيها لا يفتقر إلى دليل من جهة العقل ، ودلالة اللفظ على المعنى ليست دلالة خارجية كدلالة الدخان على النار ، والسحاب على المطر بل هي دلالة داخلية ، يحملها اللفظ في طياته ولا تحتاج إلى بينات من الخارج . ولو أخذت الدلالة من جهة المركبات ، لانتفت الحاجة الى اللزوم والانتقال)(١) .

---

(١) فلسفة المجاز : ١٧٣

الفصـــل الثانـــــي
المبالغـة في علـم المعانـــــي

١ ـ المبالغـة في الإطنـــاب

لقد شاع في تراثنا النقدي والبلاغي فكرة " صياغة المعنى " تلك الفكـرة التي تعترض للمعنى وجودا سابقا على التلفظ به ، وسنتعرض بالدراسة لهذه الفكرة في فصل لاحق من هذا البحث حيث سنتابع تطورها ، وما يترتب عليها ، ونتعرف على دورها الرئيسي في شيوع التعليل بالمبالغة . والذى يعنينا هنا أن فكرة وجود المعنى قبل اللفظ جعلتهم يفترضون أن لهذا المعنى حدودا ثم ينظرون بعد ذلك في الألفاظ المعبرة عنه هل جاءت موجزة أو مساوية للمعنى أو أن فيها زيادة عـن المعنى المفترض سموها اطنابا أو أنها جاءت قاصرة عن أدائه . ولكن ما هو القياس الذى ساروا عليه في تحديد المعنى المفترض ؟؟

يقول السكاكي (أما الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما الا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم ، ولا بد من الاعتراف بذلك مقيسا عليه ولنسمه متعارف الأوساط وأنه في باب البلاغة لا يحمد منهم ولا يذم ، فالإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط والإطناب هو أداؤه بأكثر من عباراتهم سـواء كانت القلة أو الكثرة راجعة الى الجمل أو إلى غير الجمل)(١) . ويشرح التفتازانـي متعارف الأوساط بأنه متعارف الذين ليسوا في مرتبة البلاغة ولا في غاية الفهاهـة أى كلام في مجرى عرفهم في تأدية المعاني عند المعاملات والمحاورات)(٢) وقريب من هذا شرح ابن يعقوب المغربي له إذ يقول (وهو متعارف) أى المتعامل به في عرف ـ الأوساط من الناس وهم الذين ليسوا في غاية البلاغة ولا في غاية الفهاهة وهي العـي والعجز في الكلام ويشرح (مجرى عرفهم في تأدية المعاني) بقوله (أى عند جريانهم على عاداتهم في تأدية المعاني التي تعرض لهم الحاجة الى تأديتها في الحـوادث اليوميـــة)(٣) .

ومتعارف الأوساط هذا يرى خلل القياس عليه السكاكي نفسه وذلك حين يقـول (ثم إن الاختصار لكونه من الأمور النسبية يرجع في بيان دعواه إلى ما سبق تارة وإلى كون المقام خليقا بأبسط مما ذكر تارة أخرى)(٤) ويعلق الخطيب على هذا بقوله (وفيه نظر لأن

---

(١) مفتاح العلوم : ١٢٠   (٢) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ١٦٢/٣
(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ١٦٢/٣   (٤) مفتاح العلوم : ١٢٤

الشيء نسبيا لا يقتضي أن لا يتيسر الكلام فيه إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي ثم البناء على متعارف الأوساط والبسط الذى يكون المقصود جديرا به رد إلى جهالة فكيف يصلح للتعريف والأقرب أن يقال المقبول من طرق التعبير عن المعنى هو تأدية أصل المراد بلفظ مساو له أو ناقص عنه واف أو زائد عنه لفائدة) (١) .

ولاحتدام الجدل شراح التلخيص حول اعتراض الخطيب هل يرد على السكاكي أو لا ؟؟

ولا يهمنا الآن استعراض ذلك الجدل وإنما الذى يهمنا هو أن المسألة هي رد إلى جهالة من أساسها إذ أنها ليست إلا افتراضا لا وجود له .. وإلا فما هو المعنى للكلام الذى يؤخذ من أوساط الناس الذين حددهم الشراح بأنهم هم الذين ليسوا في غاية البلاغة ولا في غاية الفهاهة مع أن الكلام الذى نحن بصدده ليس بكلامهم . ولا يمكن لنا أن نفترض الأصل المراد الذى يقول به الخطيب عندما يقول (وإنما الأقرب أن يقال : المقبول من طرق التعبير هو تأدية أصل المراد بلفظ مساو له أو ناقص عنه واف أو زائد عنه لفائدة) لأن المراد ليس هو إلا مدلول كلام القائل برمته .

ولكن الأصل المراد الذى افترضوه والمعنى المحدود في أذهانهم هو الذى مزق أوصال الكلام الذى أخذوا بمصطلحاتهم وتقسيمهم لأجزائه يرومون توصيله وإلحاق بعضه ببعض ، فهذا حشو مفيد وذاك حشو غير مفيد ، وهذا تتميم وذاك تكميل ، وهذا تذييل ، وذاك ايغال ، وهذه زيادة المقصود منها المبالغة وتلك زيادة المقصود منها الإيضاح ، ولقد كان العمل الأدبي في غنى عن هذا التمزيق والترقيع لو أخذوه مأخذ الوحدة المتكاملة التي لا يغني بعضها عن بعض ، والتي تتفاعل جزئياتها لتخلق مستوى فنيا لا يخضع للتقطيع والتوصيل ولقد كانت المبالغة مشجبا من المشاجب التي علقوا عليها هذه الزيادات التي يرونها في الإطناب ، ولو بحثنا مدلول هذه المادة اللغوى الذى يعرضه لنا الفيروزآبادى فيقول (وطنبه تطنيبا مدّ بأطنابه وشدّه ، والذئب عوى وبالمكان أقام ... وأطنب الريح اشتدت في غبار ، والإبل : اتبع بعضها بعضا في السير والنهر بعد ذهابه والرجل أتى بالبلاغة في الوصف مدحا كان أو ذما) (٢) . لوجدنا أن من مدلولاتها الشد والتثبيت والاندفاع فهي انطلاق لقوة وليست الحاق لها أو تكميل ... ومن ثم فإنهم لو أخذوا بهذا المدلول اللغوى في الدلالة الاصطلاحية لكان الإطناب انطلاقا لقوة الكلام وامتدادا بها ... ولكنهم أخذوها بأنها الزيادة على الأصل المراد لفائدة .

وإن كان تعريف المبالغة في أول تحديد اصطلاحي لها يقول (وهي أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذى قصده ، فلا

---

(١) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٣/١٦٦ - ١٧٠

(٢) القاموس المحيط : أطنب

يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ في ما قصد) (١) . فهـــو يلتقي مع مفهوم الاطناب الذى عرضناه عند المتأخرين . ومن صور الاطناب التي جاءت عندهم للمبالغة ما يلي :

١ – الإيغـــال :

وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاما من غير أن يكون للقافيــة في ما ذكره صنع ثم يأتي بها لحاجة الشعر فيزيد بمعناه في تجويد ما ذكــره من المعنى في البيت كما قال امرؤ القيس :

كأن عيونَ الوَحشِ حول خِبائِنا　　　وأَرحُلِنا الجَزعَ الذى لم يُثَقَّــــبِ

فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملا قبل القافية ، وذلك أن عيـون الوحش شبيهة به ثم لما جاء بالقافية بها في الوصف وكده وهو قوله " الذى لم يثقب " فإن عيون الوحش غير مثقبة وهي بالجزع الذى لم يثقب أدخل في التشبيه . (٢)
وهذا هو تعريف قدامة بن جعفر له وقد أورد رأيا للأصمعي في ذلك عرضـــه بقوله : (ومما يدل على أن المعاني قد كانت في نفوس الناس قديما أن أبــــا العباس محمد بن يزيد النحوى . قال حدثني التوزى قال قلت للأصمعي : من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا أو ينقضي كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت نحو من ؟ قال : نحو ذى الرمة حيث يقول :

قف العيس في أطلالِ ميه فاسأل　　　رسـوما كأخـلاقِ الرداءِ المسلسـلِ

فتم كلامه قبل المسلسل ثم قال المسلسل فزاد شيئا ثم قال :

أظن الذى يجدى عليك سؤالُها　　　دموعا كتبديـد الجُمَـانِ المَفصَـلِ

فتم كلامه ثم احتاج إلى القافية فقال " المفصـل " فزاد شيئا ، قال قلـت : ونحو من ؟ قال الأعشى حيث قال :

كناطح صخرةٍ يومًا ليَفلِقهـــا　　　فلم يَضِرهَا وأَوهى قرنَه الوَعِــــلُ

فتم مثله إلى قوله " قرنه " ثم احتاج إلى القافية فقال " الوعل " مفضلا على كل مـا ينطح ، قال : كيف ؟ قال : لأنه ينحت من قلة الجبل على قرنه فلا يضره) (٣) .

ويستمر مفهوم النقاد للإيغال على هذا الفهم ، الا أن أبا هـــلال العسكرى يعمم التعريف ليشمل النثر فيقول (وهو أن تستوفي معنى الكلام قبـل البلوغ الى مقطعه ، ثم تأتي بالمقطع فتزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحـــا

---

(١) نقد الشعر : ١٤٦　　(٢) نقد الشعر : ١٦٨
(٣) نقد الشعر : ١٦٩ ، ١٧٠

وتوكيدا وحسنا ، وأصل الكلمة من قولهم : أوغل في الأمر اذا أبعد الذهاب فيه)(١) ، ومثّل على وجوده في النثر بقول بعض الكتاب : (بعنو الطرف من الوزير دليل على تغير الحال عنده ، ولا صبر على الجفاء ممن عود الله منه البر ، وقد استدللت بإزالة الوزير إياى عن المحل الذى كان يحلنيه لتطوله على ما سوّت له ظنا بنفسي ، وما أخاف عتبا لأني لم أجن ذنبا ، فإن رأى الوزير أن يقومني لنفسي ، ويدلني على ما يريد مني فعل) وعلق على ذلك بقوله (فتم كلامه عند قوله يقومنى) ثم جاء بالمقطع وهو قوله " لنفسي " فزاد معنى)(٢) . وبعد أن يورد عددا من الأمثلة يقول : (ويدخل أكثر هذا الباب في التتميم وإنما يسمى إيغالا إذا وقع في الفواصل والمقاطع)(٣) وعلى هذا يسير الإمام العلوى عندما يعرفه بقوله (وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن الإتيان في مقطع البيت وعجزه أو في الفقرة الواحدة ينعت لما قبله مفيد للتأكيد والزيادة فيه)(٤) .

ويسير فهم الإيغال عند البلاغيين المتأخرين على هذا النحو فالخطيب يعرفه بقوله (وإما بالايغال ـ أي الزيادة في الإطناب ـ واختلف في معناه فقيل هو ختم البيت بما يفيد نكته يتم المعنى بدونها كزيادة المبالغة في قول الخنساء :

وإنّ صَخراً لتأْتَمّ الهداةُ بِه ... كأنَّهُ عَلَمٌ في رَأسِهِ نَارُ

وكتحقيق التشبيه في قول امرىء القيس :

كأن عيون الوحشِ حَولَ خبائنا ... وأرحلِنا الجَزْعَ الذى لم يُثَقَّبِ(٥)

وتحقيق التشبيه شرحه ابن يعقوب المغربي بما يفيد أنه زيادة في تحقيق التساوى على المبالغة المفهومة من التشبيه حيث يقول (وأما تحقيق التشبيه فيرجع الى زيادة ما يحقق التساوى بين المشبه والمشبه به حتى كأنهما شيء واحد لظهور الوجه فيهما بتمامه بسبب ذلك المزيد فصار من ظهوره فيهما كأنه حقيقتهما بما سواه عوارض من غير اشعار بكون المشبه به غاية في الوجه لعدم قصد تعظيم الوجه في المشبه به ليجر ذلك إلى عظمته في المشبه)(٦) وعن عدم اختصاصه بالنظم يقول الخطيب وقيل لا يختص بالنظم ومثل بقوله تعالى (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون)(٧) (٨) . ووافقه الشراح على ذلك .

---

(١) الصناعتين : ٣٩٥ (٢) المصدر السابق : ٣٩٥ ، ٣٩٦
(٣) المصدر السابق : ٣٩٦ (٤) الطراز : ٣/١٣٠
(٥) الايضاح ضمن شروح التلخيص ٣/٢٢٠-٢٢٢
(٦) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ٣/٢٢٢ (٧) سورة يس : ٢١
(٨) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٣/٢٢٤

وممن حصره في الشعر ابن رشيق حيث يقول (وهو ضرب من المبالغة ... إلا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها ، والحاتمي وأصحابه يسمونه التبليغ ، وهو تفعيل من بلوغ الغاية ، وذلك يشهد بصحة ما قلته ويدل على ما رتبته)(١) .

ولقد كان مدلول الكلام الذى تحمله هذه الجزئيات مع غيرها في السياة شبحا يخيف هؤلاء المعزقين لأوصال الكلام ، فهم يخشون أن يفهم منها معنى لا يمكنهم الحكم بزيادته فتراهم يوردون ما يتوقعون أن يرد عليهم ويجيبون عليه بحجج أقل ما يقال فيها أنها اعفاء لبعض جزئيات الكلام من دلالتها الفعلية ، وإلحاقها بالجزء الذى يظنون أن الكلام تم عنده فمن ذلك الاعتراض الذى أورده ابن يعقوب المغربي على كون الإيغال من الإطناب وذلك حيث يقول (وههنا أمران لا بد من التنبيه عليهما أحدهما أن زيادة قوله (الذى لم يثقب) وقوله (في رأسه نار) لإفادة معنى كل منهما على أنه وصف لما قبله كسائر النعوت التي تزاد معانيها ، وليس معنى كل منهما مستفادا مما قبله ، فإن كان الإتيان بالنعت عند الحاجة اليه مساواة فهذان منه وإلا لزم كون النعت إطنابا إن كان لفائدة أو تطويلا إن لم يكن بل ويلزم كون سائر الفضلات كذلك . والآخر أنه على تقدير كونهما ليس من المساواة فمفادهما ينبغي أن يبين وجه كونه من المعاني لا البديع فإن تحقيق التشبيه مثلا إنما يتبادر منه زيادة الحسن في معنى الكلام وطرافته فهو بالبديع أجدر ويقال مثله في المبالغة في التشبيه)(٢) ويجيب عن الاعتراض الأول بقوله (إن النعت وشبهه من سائر الفصلات أن أتى للمعنى الذى وضع له فقط ويكون مدرجا للأوساط من الناس كان مساواة وأن أتى به لمعنى دقيق يناسب المقام لا يدركه الا الخواص ولا يستشعره الا أهل الرعاية لمقتضيات الأحوال كالمبالغة في التشبيه المناسبة في قوله في رأسه نار كان إطنابا ولا نسلم أن ما أتى به للإطناب يجب أن يكون مستفادا مما قبله بل إذا أتى بالشيء لمعناه وفيه دقة لمقام مناسبة لا يأتي به لأجلها الأوساط من الناس وإنما يتفطن له البلغاء أهل الفطنة وقُصِدَ الإتيان به لذلك كان إطنابا ولو أوجبنا في الإطناب أن يكون معناه مدلولا لما قبله خرج كثير مما أوردوه في هذا الباب عن معنى الإطناب)(٣) . والإتيان بالشيء بمعناه وفيه دقة لمقام مناسبة لا يتنبه لها إلا البلغاء وأهل الفطنة وقصد الإتيان بها ينافي معنى الايغال الذى لا يأتي الا لنكتة يتم المعنى بدونها .

ورد على الاعتراض الثاني بقوله (والجواب عن الثاني أن مناسبة المبالغة

---

(١) العمدة : ٢/٥٧ (٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٣/ ٢٢٣ ، ٢٢٤

(٣) المصدر السابق : ٣/٢٢٤

للمقام ظاهرة لأنها زيادة في مدح المرثي ، وذلك مناسبة لرثائه وزيادة التوجع عليه ، وأما تحقيق التشبيه فحسن الكلام به وظرافته يناسب مقام المفاخرة والإرباء على الأتراب في الشعر والنثر ويناسب مقام إمالة النفوس لمدح الشاعر أو الناثر على شعره ونثره . فمن هذا الوجه وما يشبهه يكون من المعاني وبه يعلم أن البديعيات إذا قصد بها مناسبة الأحوال التي أوردت لأجلها عادت معاني والمعاني إذا ذهل عن تلك المناسبات فيها وأتى بها لظرافتها فقط كانت بديعيات) (١) .

وما دام يصر على إلحاقها بالمعاني وفصلها عن البديع الذى جرده المتأخرون من الدلالة الذاتية وجعلوه حلية وزينة كما هو واضح في هذا الاعتراض والرد عليه مثلا . فمن أين تأتي له الحكم بزيادة هذا المعنى ؟؟ ذلك الحكم الذى توقف عنه البهاء السبكي في الحكم به على بيت الخنساء وبيت امرىء القيس وذلك حيث يقول عن الأول (قلت وفيه نظر لأن الإطناب تأدية المراد بزيادة لفظ والمراد من التشبيه بعلم فوقه نار غير المراد من التشبيه بالعلم فقط فلم يحصل بقولها فوقه نار إطناب ولو كان هذا اطنابا لكان ذكر الصفة المخرجة في قولك أكرم رجلا عالما إطنابا إلا أن يقال لم يرد إلا مطلق الهداية وفيه بعد ..) (٢) ويقول عن الثاني : (قلت وفيه النظر السابق فإن المعنى لا يتم بدونه لأن الذى لم يثقب لم يتم المعنى بدونها لأنها مقصودة في التشبيه أو يقال أريد بقوله الجزع غير المثقب فيكون قسما من الإيضاح بعد الإبهام لا قسيما ثم نقول ليس إيضاحا بعد إبهام لأن الايضاح بعد الابهام أن يقصد الابهام أو لا يقصد ثم يقصد الإيضاح لغرض الإبراز في صورتين وهذا أريد بالجزع فيه غير المثقب ثم اقتصر عليه فكان إيجازا فلما قال لم يثقب صار مساواة) (٣) وما جدلهم في ذلك إلا لأن القياس الذى قاسوا عليه هذه الحدود الثلاثة المساواة والايجاز والإطناب غير واضح وغير محدد ؟ ثم إن دلالات الكلام التي تشع من جميع جزئيات السياق تأبى أن تنحصر في جزئية وتكون البقية الباقية إلحاقا لها . فتارة يجذبهم هذا الاشعاع الى نفي الايغال أو الإطناب وتارة يجذبهم تحديدهم المساواة بأنها (متعارف أوساط الناس الذين لا يطلب منهم رعاية مقتضيات الأحوال من اللطائف والاعتبارات (٤)) إلى الحكم في الكلام الذى آمنوا باعجازه بأن فيه إطنابا وإيغالا ففي قوله تعالى (وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا

---

(١) المصدر السابق : ٣ / ٢٢٤ (٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٣ / ٢٢١

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٣ / ٢٢٣ ، ٢٢٤

(٤) شروح التلخيص ٣ / ١٦٢

المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون)(١) قالوا (المقصود حث السامعين على الاتباع ففي وصفهم بالثاني زيادة مبالغة على اتباع الناس لهم من ذكر كونهم مرسلين)(٢) ويقول ابن يعقوب المغربي فيها (فقوله " وهم مهتدون " مما يتم المعنى بدونه للعلم والقطع بأن الرسل المأمور باتباعهم مهتدون ولكن فيه زيادة حث على الاتباع وزيادة ترغيب في الرسل من جهة التصريح بوصف هداهم فان التصريح بالوصف المقتضى للاتباع فيه مزيد التأثير على ذكره ضمنا وزيادة الحث على الاتباع لا تخفى مناسبته بل نقول إن قوله اتبعوا من لا يسألكم أجرا من هذا المعنى للعلم بأن الرسول لا يسأل أجرا فيكون إطنابا لنكتة الحث المذكور) فيالها من معرفة بأسرار لغة وإعجاز القرآن الكريم تفصل قوله تعالى (وهم مهتدون) عن سياق الآية ، بل تفصل الآية بكاملها وتجعل قوله تعالى (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) من قبيل الإطناب ؟؟

وإذا كان السبكي قد أخرج بيت الخنساء من الإيغال كما سبق أن رأينا ، فإن دلالات الكلام قد أبت عليه إلا أن يؤمن بها ، وحقا ما قال فإن " فوقه نار " تعطي للكلام دلالة أقل ما يقال فيها إيحاؤها بدلالة الخير والكرم التي لا تنفك الخنساء عن وصف أخيها بها ، ومعروفة عادات العرب في الكرم حيث يشبون النار في الأماكن المرتفعة ليراها السائرون ويأتون لمواطن القرى .. فالنار مرتبطة بالكرم ... ثم إن المتأمل لشعر الخنساء يرى فيه الإلحاح على وصف أخيها بالإشراق والضياء .. ولربما كان ذلك لقداسة النور عند العرب الذي ينبعث من معظم مقدساتهم التي كانوا يقدسونها (النار ـ الشمس ـ القمر) فهي تقول فيه :

جَهْمُ المُحيا تضيءُ الليلَ صورتُه آباؤه من طوال السَمْك أحرار(٣)

وتقول أيضا :

جَمٌّ فواضله ، تندى أنامله كالبدر يجلو ولا يخفى على الساري(٤)

ومما يدل على ربطها وجه أخيها بالشمس لما يرون فيها من قداسة قولها :

أبيضُ أبلجُ وجهُهُ كالشمسِ في خير البَشَر(٥)

ثم إن صخرا أصبح عندها رمزا للفضائل التي أشرقت بها الدنيا في

---

(١) سورة يس : ٢٠ ، ٢١ (٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٣/ ٢٢٤
(٣) ديوان الخنساء : ٥٠ (٤) المصدر السابق : ٧٥
(٥) المصدر السابق : ٦٣

هياته ثم لما ماتت عادت الدنيا عندها مظلمة :

واذكره إذا ما الأرض أمست هجولا لم تلمع بالوميض

وبعد هذا يحق لنا أن نقول: إنَ صخرا لا يستمد من العَلَم وضوحه فقط بل يستمد أيضا علوه .. وقداسته .. وخيره .. وإذا كان الأمر كذلك كانت (فوق رأسه نار) ، ذات دلالة عميقة في البيت يفترض فيها أن تعرج بالناقد على البحث عن دلالة النار عند العرب ، وارتباطها بالضياء .. والبحث عن السر في وصف العظماء بالإشراق وربطهم بالكواكب والشمس والقمر بدلا من أن نعفي الكلمة من دلالتها ونقول : إن المعنى تم بدونها أو أن المعنى الذى اضافته لا يقصد به إلا المبالغة في إيضاح القصد من التشبيه فهم يعتبرون تشبيهه بالعلم يكفي لوضوح العلم والاهتداء إليه ثم جاءت " فوق رأسه نار " فبالغت في ذلك أشد مبالغة . ولكن القوم كان يحجمهم عن البحث في مدلول الكلام فكرة المعنى المقصود ، أو المعنى الأصلي المفترض، فإذا تم ما افترضوه كان باقي الكلام إطنابا ، وانساق القوم وراء هذا الافتراض ، ومزقوا أوصال الكلام ووضعوا مصطلحات لتسميتها حسب درجتها في إفادة المعنى المقصود ... وليتهم اقتصروا في هذا التمزيق على كلام البشر ، ولم يتجاوزوا ذلك إلى الكتاب الكريم ... إن افتراضهم للمعنى جعلهم يؤمنون بصحة تقسيماتهم ولم يبالوا بتطبيقها على الآيات ، بل هم يجدون ذلك فخرا للقرآن لأن ذلك موجود في كلام العرب ، والقرآن نزل بلغة العرب وعليه فإنّ تلك التسميات توجد في القرآن . فمن ذلك حكم بعضهم على قوله تعالى " وهم مهتدون " في قوله تعالى (وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى ، قال يا قوم اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون)(١) بالإيغال بل ان بعضهم جعل الآية الثانية بكاملها وهي قوله تعالى (اتبعوا من لم يسألكم أجرا وهم مهتدون) من قبيل الإطناب وهؤلاء يكفينا في الرد عليهم خمس عشرة آية في كتاب الله تنفي عن الرسل سؤالهم الأجر من أحد إلا من الله سبحانه وتعالى منها قوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى)(٢) . وقوله تعالى (أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون)(٣) وقوله تعالى على لسان رسل عدة في سورة الشعراء (وما أسألكم عليه من أجر إنْ أجرىَ إلا على رب العالمين)(٤) ، أما قوله تعالى (وهم مهتدون) الذى عده بعضهم كما أسلفنا من قبيل الإيغال ، فإنا نقول لهم :

---

(١) سورة يس : ٢٠ ، ٢١ (٢) سورة الشورى : ٢٣

(٣) سورة الطور : ٤٠

(٤) سورة الشعراء الآيات : ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠

: من أين لكم الحكم بتمام المعنى قبل هذه الفقرة من الآية ؟؟ وهل كنتم على علم بأن المعنى يقتصر على جزئيات من الآية تتم دون هذه الفقرة ؟؟ ومهما كانت الإجابة فإنها لا تعدو أن تكون قائمة على فرض لا يمكن أن يوجد الدليل على صحته .

وإذا كانت الآية قد وصفت الرسل بالاهتداء فإن الهداية هي محور رسالة الرسل قال تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق)(١) وقال تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان)(٢) . وقال تعالى (آلم ، اللهُ لا إله إلا هوَ الحيُّ القيوم ، نزَّل عليك الكتاب بالحقِ مصدقًا لما بينَ يديه وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبلُ هدىً للناس وأنزلَ الفرقانَ إنّ الذين كفروا بآياتِ اللهِ لهم عذابٌ شديدٌ والله عزيزٌ ذو انتقام)(٣) . ولقد كان الصراع بين الحق والباطل في بعض مظاهره صراع حول الطريق الذى يظن أنه الهداية قال تعالى (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) وقال تعالى (ومن يَعْشُ عن ذكرِ الرحمن نُقَيِّضْ له شيطانًا فهو له قرين ، وإنهم لَيَصُدّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون)(٤) ، لذلك جاءت الآيات تبين اختصاصه سبحانه وتعالى للهداية التي سمى دلالة الرسل وأوليائه عليها وتبيينهم طريقها هداية مع أنه سبحانه وتعالى يقول (إنك لا تهدى من أحببت ولكنَّ الله يهدى من يشاء)(٥) . ويقول أيضا (من يهد الله فهو المهتدِ ومن يضلِلْ فلن تجد له وليا مرشدا)(٦) . يقول عن رسوله صلى الله عليه وسلم (وإنّك لتهدى إلى صراط مستقيم)(٧) ويقول (وممن خلقنا أمةً يهدون بالحق وبه يعدلون) وجاءت الآيات أيضا تنفي الهدى عن الضالين الذين يحسبون أنهم مهتدون قال تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)(٨) . وقال جل وعز (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين)(٩) . وقال سبحانه (ويومَ يَحْشُرُهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كَذَّبوا بلقاءِ اللهِ وما كانوا مهتدين)(١٠) . وجاءت كذلك تصف لرسله وعباده وأولياءه بالهداية والذين ظن الكافرون والذين في قلوبهم مرض أنهم ضالون

---

(١) سورة الفتح ٢٨ وسورة والصف : ٩
(٢) سورة البقرة : ١٨٥
(٣) سورة آل عمران : ١ — ٤
(٤) سورة الاعراف : ٣٠
(٥) سورة الزخرف : ٣٦ ، ٣٧
(٦) سورة القصص : ٥٦
(٧) سورة الكهف : ١٧
(٨) سورة الشورى : ٥٢
(٩) سورة البقره : ١٦
(١٠) سورة الأنعام : ١٢٠

ومن هذه الآيات قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بِظُلمٍ أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون)(١) . وقوله تعالى (أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون)(٢) ومثل هذه الآية التي نحن بصددها والتي جاءت في موقف جدل بين رجل مؤمن وقوم مكذبين معاندين ... رجل اعتقد أن الرسل مهتدون فأتبعهم وحاج قومه بذلك ، أولئك القوم الذين كذبوا الرسل وتطيروا بهم .

٢ — التتميم :

وهو صورة من صور الزيادات التي تصوروها على المعنى المراد ، ولملك تلاحظ في هذه التسمية الدلالة على اقتطاع الجزئية التي ينطبق عليها هذا المصطلح عندهم ، ثم إلحاقها بعد إيجاد شرعية لها في الكلام باسم التتميم ... ولقد كان التتميم عند بعضهم يهدف الى المبالغة في الكلام في بعض الأحيان ... وسنبين ذلك إلا لأنه في نظرهم صلة ملحقة بالكلام تصوروا انفصاله عن معنى الكلام ولذلك أخذوا يوجدون الشرعية لوجوده تلك الشرعية التي تتخذ مبررا من المبالغة ... أو الاحتراس ... أو الصيانة عن الخطأ كما سنرى .

وقد كانت بداية الدلالة الاصطلاحية له عند قدامة بن جعفر الذى عرفه بقوله (وهو أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل معها جودته شيئا إلا أتى به)(٣) . وذكر له عدة أمثلة تختلط بالحشو والتكميل عند بعضهم .

وأما أبو هلال العسكرى فقد ذكره مع التتميم وعرفهما تعريفا واحدا بقوله (وهو أن توفي المعنى حظه من الجودة ، وتعطيه نصيبه من الصحة ، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده أو لفظا يكون فيه توكيده إلا تذكره)(٤)

أما ابن رشيق فقد قال عنه (وهو التمام أيضا ، وبعضهم يسمى ضربا منه احتراسا واحتياطا ، ومعنى التتميم : أن يحاول الشاعر معنى ، فلا يدع شيئا يتم به حسنه إلا أورده وأتى به)(٥) . ثم ذكر أسباب الإتيان به وأنه يأتي (إما مبالغة وإما احتياطا أو احتراسا من التقصير وذكر من التتميم الذى جاء للمبالغة قول زهير :

---

(١) سورة الأنعام : ٨٢ (٢) سورة النبوه : ١٥٧
(٣) نقد الشعر : ١٤٤ (٤) الصناعتين : ٤٠٤
(٥) العمدة : ٢/٥٠

مَنْ يَلْقَ يومًا على علاتِهِ هَرِمـــا يلقَ السماحةَ منه والندى خُلقَـــا

وعلق عليه بقوله (ـ على علاته ـ مبالغة وتتميم عجيب) .

ثم قال والأصل في هذا قول الله عز وجل (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) (١) قوله (على حبه) هو التتميم والمبالغة في قول من قال إن الهاء ضمير الطعام ، وإن كان كناية عن الله تعالى خرج المعنى عن هذا الباب) (٢) .

أما الإمام العلوى فيقول عنه (وهو تفعيل من قولهم : تتمه إذا أكمله ، وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن تقييد بفضلة لقصد المبالغة ، أو للصيانة عن احتمال الخطأ أو لتقويم الوزن فهذا تقرير معناه في مراد علماء البلاغة ، ثم يرد على أوجه ثلاثة إما للمبالغة ، وإما للصيانة ، وإما لاقامة الزنـه على حد ما ذكرناه في شرح ماهيته ويقول عن القصد الأول (أن يكون واردا على جهة المبالغة بأن تكون الفائدة في تلك الفضلة أينما هي المبالغة لا غير ومثاله قول زهير :

من يلق يوما على علاته هرمـــا يلق السماحة منه والندى خلقـــا

فقوله (على علاته) تتميم للمبالغة ، فوقعت في غاية الحسن والرشاقة كما ترى ، والمراد بقوله ـ على علاته ـ أى على حالاته وقوله يمدح هرما أيضا :

. ان الكريم على علاته هـــرم .

فهذه اللفظ حصل من أجلها مبالغة في المدح لا تخفى) (٣) ، وقد فرق بينه وبين التكميل الذى عرفه بقوله (وهو افعال ، من أكمل الشيء إذا حصله على حالة لا زيادة عليها في تمامه ، وهو في مصطلح علماء البيان مقول على أن تذكر شيئا من أفانين الكلام ، فترى في إفادته المدح كأنه ناقص لكونه موهما بعيب من جهة دلالة مفهومه فتأتي بجملة فتكمله بها تكون رافعة لذلك العيب المتوهم) (٤) . وضرب له أمثلة منها قول كعب بن سعد الغنوى:

حليم إذا ما الحلم زيـن أهلـه مع الحلم في عين العدو مَهيـبُ

وقال عن التفرقة بينه وبين التتميم : (والتفرقة بين الإكمال والتتميم ظاهرة مع كونهما مشتركين في أنهما إنما زيدا من أجل رفع الوهم عن تخيل ما يحط من المدح ويسقطه ، وحاصلها من جهة اللفظ ومن جهة المعنى : أما من جهة اللفظ فهو أن التتميم إنما يقال في شيء نقص ثم تمم بغيره ، بخلاف

---

(١) سورة الانسان : ٨ (٢) العمدة : ٢/٥٠ ، ٥١

(٣) الطراز : ٣/١٠٤ (٤) المصدر السابق : ٣/١٠٨ ، ١٠٩

الإكمال ، فإنه تام لا ينقص منه شيء خلا أنه أكمل بغيره ، فصار الأول بالزيادة تاما وصار الثاني بالزيادة كاملا ، وأما من جهة المعنى فهو أن التتميم إنما يذكر من أجل رفع احتمال متوهم ، فلهذا افترقا ، فالإتمام يرفع الخطأ مما ليس ذما ، والإكمال يرفع الذم المتوهم إذا لم يذكر ، فهذا تقرير ما يمكن من التفرقة بينهما) (١) .

أما القزويني فقد فرق بين التتميم والتكميل وعرف التتميم بقوله : (وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله تفيد نكتة كالمبالغة في قوله تعالى " ويطعمون الطعام على حبه " (٢) ، والضمير للطعام أى مع اشتهائه والحاجة إليه ونحوه " وآتى المال على حبه " (٣) وكذا " لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون " (٤) وعن الفضيل بن عياض على حب الله فلا يكون مما نحن فيه وفي قول الشاعر :

إني على ما ترين من كبري ... أعرف من أين تؤكل الكتف

وفي قول زهير :

من يلق يوما على علاته هرما ... يلق السماحة منه والندى خلقا) (٥)

وقال عن التكميل (ويسمى بالاحتراس أيضا ، وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه ومثل له بقول طرفه :

فسقى ديارك غير مفسدها ... صوب الربيع وديمة تهمى

وقول الآخر :

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى ... في الحسن عند موفق لقضى لها

وقول ابن المعتز :

صببنا عليها ظالمين سياطنا ... فطارت بها أيد سراع وأرجل

وبقوله تعالى " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ") (٦ ، ٧) .

ولا يهمنا الآن هذا التفريق بينهما وكون الأمثلة يتناوبها الوصفان في مسيرة تراثنا النقدى والبلاغي وإنما الذى يهمنا الآن هل ما ارتأوه من تمام أصل المعنى دون هذه الزيادة التي تسمى بالتكميل حينا وبالتتميم حينا آخر ، أمر مسلم لهم ؟ ؟

ولننظر الآن لغرى كيف ناقش القوم القضية ، وهل كان لهم رأى استقروا

---

(١) المصدر السابق : ٣/١١٠ ، ١١١ (٢) سورة الانسان : ٨
(٣) سورة البقرة : ١٧٧ (٤) سورة آل عمران : ٩٣
(٥) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٣/٢٣٥ ، ٢٣٦
(٦ ، ٧) سورة المائدة : ٤٥ ، الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٢٣١ ، ٢٣٣

والمتأمل لنقاشهم واعتراضاتهم يرى فصلهم بين شيئين يجب أن يكونا شيئا واحدا إذ فصلوا بين قصد المتكلم ومراده من الكلام ، ونلحظ ذلك في المناقشات التي دارت حول قول الخطيب السابق ، فالفضلة يبين لنا أمين يعقوب المغربي أن المقصود بها هنا الفضلة النحوية التي لا تكون ركنا في الكلام وذلك حيث يقول شارحا لها (وهو ما ليس أحد المسندين من الفضلات المعلومة كالمفعول والحال والمجرور والتمييز ، وليس المراد ما يتم أصل المعنى بدونه حتى تدخل الجملة الزائدة على أصل المراد كما قيل)(١) ويعلل بأن ذلك ليس المراد لسببين أحدهما : أن كون الشيء مما يتم أصل المعنى بدونه ومعنى متعارف الأوساط لا يختص اشتراطه بالتتميم فمتى كان هو المراد بالفضلة كانت مستدركة لأن كلام الإطناب كله أتي فيه بفضله بهذا الاعتبار)(٢) . وأما السبب الثاني فقد جاء توجيها وتبريرا لصنيع الخطيب لأنه جعل من التتميم قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) إذ يقول دفاعا عنه (فقوله مما تحبون ليس فضلة بهذا الاعتبار . لأن الإنفاق مما يحبون الذي هو المقصود بالحصر لا يتم أصل المراد بدونه إذ لا يصح أن يقال حيث أريد هذا المعنى حتى تنفقوا فقط دون مما تحبون فتعين أن مراده بالفضلة بعض هذه الفضلات ولا شك أن مما تحبون بعضها لأنه مجرور)(٣) ولقد شعر ابن يعقوب بالمأزق الذي وقع فيه وذلك لأنه إذا كان موافقا كما أسلفنا على أن التتميم هو من ضمن ما يتم أصل المعنى بدونه كبقية أقسام الإطناب فكيف تكون هذه الآية منه بعد أن بين لنا أن (مما تحبون) لا يتم أصل المراد بدونه ؟؟ ولذلك قال (ولكن هذا الوجه لا يخلو عن بحث لأنه إذا لم يجعل مما تحبون مما يتم أصل المعنى بدونه لم يكن إطنابا أصلا فيكون التمثيل به فاسدا من أصله فلا يستشهد به)(٤) .

ولكن صاحبنا عز عليه أن يخطئ صاحبه ، ويزعزع ثقته في أقسام الكلام التي افترضوها وهي الإيجاز ، والإطناب ، والمساواة ، فهو إذ يبين أن الإطناب لا يصح في هذه الآية إلا عن طريق الإدعاء بأن أصل المعنى حتى تنفقوا كما يتضح من قوله (فيجب حيث جعل اطنابا أن يدعى أن أصل المعنى تنفقوا أي يقع منكم اتفاق)(٥) . فهو مع هذا يتلمس وجها تصح معه زيادة " مما تحبون " غير مبال بمقصود الكلام واحتياجه إليها حيث يقول (وزيادة مما تحبون ولو كان باعتبار القصد محتاجا إليه لا تكون من المساواة لأن ما زيد لأجله من النكتة

---

(١) مواهب الفتاح : ٣/٢٣٥ (٢) المصدر السابق : ٣/٢٣٥
(٣) المصدر السابق : ٣/٢٣٥ (٤) المصدر السابق : ٣/٢٣٥
(٥) المصدر السابق : ٣/٢٣٥

لا يدركها الأوساط وقد تقدم أن ذلك هو مناط الإطناب ، وإنما قلنا إن المقصود به أمر لا يدركه ويراعيه إلا البلغاء لأن فيه الاشارة إلى أن نيل البر لا يكون الا بغلبة النفس ، وتحميلها المشاق بالإنفاق من المحبوب المشتهى بخلاف مطلق الإنفاق ولو كان فيه أجر لا يبلغ لهذا المعنى (١) وبعد ذلك يقرر هذه الحقيقة القائمة على فصل المعنى الأصلي عن مقصود الكلام ومراد المتكلم حيث يقول : (وبه يعلم أن كون الشيء مقصودا في الكلام بحيث لا يتم المراد من حيث أنه مراد للمتكلم به لا ينافي كونه اطنابا) (٢) ولقد كان الفصل بينهما أمرا واضحا في مسألة الاطناب وذلك حيث تبين لنا أن عندهم في الإطناب مستويين للكلام . المستوى الأول هو المعنى الأصلي وهو متعارف الأوساط أو القصد الذى يرومونه هم من الكلام . والمستوى الثاني وهو النكتة التي جاء الإطناب لأجلها وهي الأمر الذى لا يدركه ولا يراعيه إلا البلغاء .

ولم يكن البهاء السبكي بأسعد حظا من ابن يعقوب المغربي في حل هذا الاشكال القائم على تقسيم الكلام البليغ وتمزيقه بل إن هذا الأخير يظهر لديه عدم استقرار هذه المصطلحات والتسميات فبعد أن شرح قول الخطيب بقوله (التتميم أن يؤتى في كلام لا يوهم غير المراد بفضله تفيد نكتة كالمبالغة في نحو قوله سبحانه وتعالى " ويطعمون الطعام على حبه " في وجه أى مع حبه والضمير للطعام أى مع اشتهائه وكذلك " وآتى المال على حبه " وقيل المراد على حب الله فلا يكون مما نحن فيه لأن الإطعام على حب الله ليس أبلغ من الإطعام لا بهذا القيد (٣) ثم يضيف قائلا (قلت فيه نظر ان أحدهما أن يقال إن على حبه يفيد فائدة زائدة وهي الإطعام مع الحب فإما أن يقال ليس هذا مبالغة بل تضمن فائدة جديدة لأن مطلق الإطعام له يفده بهذا القيد الا أن يجاب بأن إفادته إفادة جديدة لا ينافي أنه اطناب لما قبله . وأما أن يقال مطلق الإطعام يحتمل أن يكون مع حبه أولا فهو يوهم أن لا يكون مع الحب وهذا احتمال مساو والوهم يحصل بالمساوى بل بالمرجوح وحينئذ فيكون من قسم التكميل وليت شعرى أى فرق في اللغة بين التكميل والتتميم . والثاني أن هذا قريب من الإيغال أو هو هو على أنه يمكن أن يقال فرق بين التكميل والتتميم لغة فالتكميل استيعاب الأجزاء التي لا توجد الماهيه المركبة إلا بها ، والتتميم قد يكون بما وراء الأجزاء من زيادات يتأكد بها ذلك الشيء الكامل ويستأنس لذلك بقوله

---

(١) المصدر السابق : ٣/٢٣٥ ، ٢٣٦

(٢) المصدر السابق : ٣/٢٣٦

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٣/٢٣٥ ، ٢٣٦

تعالى " تلك عشرة كاملة "(١) أي لم تنقص اجزاؤها وقوله " وأتموا الحج والعمرة لله "(٢) روى إتمامها أن تحرم من دويرة أهلك وهو وصف فيه زيادة على الأجزاء فإن ماهيتي الحج والعمرة توجدان دونه وقد جمع بينهما في قوله تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي "(٣) لما كانت أركان الدين وجد منها الجزء الأخير إذ ذاك استعمل فيه لفظ الكمال ، ولما كانت نعم الله حاصلة للمؤمنين قبل ذلك اليوم غير ناقصة استعمل فيها الإتمام لأنه زيادة على نعم الله التي كانت قبل ذلك كاملة فإن تم هذا ظهر وجه تسمية الأول بالتكميل لأنه يدفع إيهام غير المراد وذلك كالجزء من المراد لأن الكلام إذا أوهم خلاف المراد كان كالذى دلالته ناقصة بخلاف التتميم)(٤). وهذان النظران يجلوان ويؤكدان أمورا عدة :

الأول : أن هناك مفهوما للمبالغة يجعلها غير أصيلة ، وفائدتها زائدة ولا دخل لها في الأصل المراد ، ويدل على ذلك أيضا اتفاقهم على أن " على حبه " ليس فيه مبالغة إذا كان الضمير يعود الى لفظ الجلالة " الله "

الثاني : أن هناك فصلا بين جزئيات الكلام فهناك فائدة للجزئية الأولى " ويطعمون الطعام " وهناك فائدة أخرى للجزئية الثانية " على حبه " وقد كانوا في غنى عن هذا النقاش لو أخذوا هذه الآية في سياق الآيات بل في سياق الآية نفسها على الأقل .

الثالث : الشك في مصطلحاتهم ، وإيراد الاعتراضات عليها مما يبين لنا زعزعة تلك المصطلحات التي ناقشوها ، ذلك الأمر الذى نأخذ منه أن علينا أن نناقش أيضا ونخالف فيما بدا لنا أنه وجه الحق .

ولقد انساق القوم وراء مصطلحاتهم التي فرضوها بناء على أن لكل كلام معنى أصليا بغض النظر عن دلالة منطوقه لأن هذه الدلالة قد تقل عن المعنى فتسمى إيجازا أو تساويه فتكون مساواة أو تزيد عنه فتكون إطنابا وتطويلا . . . وما أسهل الغرض وما صعب تحقيقه ، وعندما جاءوا عند التحقيق في مناقشة وتطبيق هذه المصطلحات الفرعية على الكلام اضطرهم ذلك الى المحاورة ومحاولة سد الثغرات كما سبق أن رأينا بكل ما يملكون من قوة في الجدل . ولم يبال بعضهم في سبيل الانسياق وراء هذا الافتراض أن يحدد في كلام الله تعالى الكلام الأصلي الذى يكفي في نظره بناء على فرضه فهذا الدسوقي يقول في

---

(١) سورة البقرة : ١٩٦ (٢) سورة المائدة : ٣

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٣/٢٣٦ ، ٢٣٧

في قوله تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) (١) والحاصل أن القصد من الآية مجرد مدح الأبرار بالسخاء والكرم ولا شك أن هذا يكفي فيه مجرد الإخبار عنهم لأنهم يطعمون الطعام سواء كانوا يحبونه أو لا ولا يتوقف ذلك على بيان كون الطعام محبوبا لهم وحينئذ فقوله (على حبه) إطناب نكتته إفادة المبالغة في المدح) (٢) . وأبسط ما نقوله هنا إن حصر الآية في هذا القصد دعوى تدل الآية على كذبها إذ أن القصد من الآية يجب أن نأخذه من عمومها كما سنبين ذلك ان شاء الله . ثم إن هذا القصد الذى حدده والكفاية التي رأى أنها كافية نقضها بقوله في شرح ما إذا كان الضمير لله (أى لأجل حب الله لا لرياء ولا سمعة وإن كان حبهم للطعام حاصلا على ذلك الوجه لأن الشأن حبه لكنه غير ملحوظ) (٣) إذ وافقهم على أن الجار والمجرور على هذا الوجه لتأدية الأصل المراد وهو هنا عند الدسوقي (مدحهم بالسخاء والكرم لأن الإنسان لا يمدح شرعا إلا على فعل لأجل الله ، وإذا كان الجار والمجرور على هذا الوجه لتأدية أصل المراد كان مساواة) (٤) وإذا كان المعنى الأصلي عنده على كلا الوجهين واحد لم يتغير .. فلماذا يعتبر الجار والمجرور في الوجه الثاني من الأصل المراد ؟؟ ولقد أحس الدسوقي بهذا الإشكال فعرض لنا رأيا يقول: (وقد يقال هذا يقتضي أن إطعام الطعام إذا لم يقصد به وجه الله بأن كان جبلة وغفل عن قصد الرياء وقصد وجه الله لا يكون ممدوحا شرعا مع أنه ممدوح شرعا لأنه يثاب على ذلك لأن نية التقرب لا تشترط في حصول الثواب إلا في الترك لا في الفعل وحينئذ فما قال الشارح لا يتم) (٥) أى ما قاله السعد من أنه إن جعل الضمير لله أي يطعمونه على حب الله فهو لتأدية أصل المراد (٦) ، وإلى مثل هذا أشار ابن يعقوب المغربي بقوله (هذا إذا روعي المدح الكائن بالنظر الى أهل الدنيا بل يقال فيه نكتة مطلقا لأن إطعامه حيث وجدت الغفلة بأن لم يقصد الرياء ولا محبة الله تعالى مما يمدح به شرعا من أن الكرم الطبيعي مما يترتب عليه الثواب ولو بلا نية فتأمله) (٧) . فانظر الى أى حد طغى الجدل القائم على فكرة المعنى الأصلي في تجريد الكلام من دلالاته .

ولقد كان ابن أبي الاصبع المصرى على حق عندما أبرز لهذه الفضلة مكانها في المعنى وأن المعنى لا يتم بدونها وذلك عندما قال معرفا للتتميم

---

(١) سورة الانسان : ٨

(٢) حاشية الدسوقي على شرح السعد ٣/٢٣٧

(٣) المصدر السابق : ٣/٢٢٧

(٤) المصدر السابق : ٣/٢٣٧

(٥) المصدر السابق : ٣/٢٢٧

(٦) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ٣/...

(٧) مواهب الفتاح : ٣/٢٣٧

بأنه (أن تأتي في الكلام كلمة إذا طرحت من الكلام نقص معناه في ذاته ، أو في صفاته ، ولفظه تام ، وإن كان في الموزون نقص وزنه مع نقص معناه ، فيكون الإتيان بها لتتميم الوزن والمعنى معاً)[١] ولكنه جعل نقص المعنى دون التتميم في مقابلة تمام المعنى بغير التكميل فقال (ولا يخلو إما أن يرد على معنى تام في ذاته أو في صفاته أولا ، فان كان الأول فهو التكميل ، وإن كان الثاني فهو التتميم . ثم قال (وقد غلط أكثر المؤلفين في هذا الموضع ولم يفرقوا بين التتميم والتكميل فمثال قوله تعالى " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبة "[٢] فقوله من " ذكر أو أنثى " فتتميم ؛ وقوله تعالى (وهو مؤمن) تتميم ثان . وبهذين التتميمين تم معنى الكلام ، وجرى على الصحة ، وإلا فهو بدونهما ناقص)[٣] والتتميم عنده ثلاثة أقسام هي : تتميم النقص ، وتتميم الاحتياط وتتميم المبالغة . وعموم التتميم عنده للنقص ، ولكنه كما ترى جعل منه قسما لتتميم النقص ، والذى يغلب على الظن أنه يريد بذلك القسم مالا تظهر فيه وظيفة التتميم في الاحتياط أو المبالغة ، لأنه عرف التتميم كما سبق أن ذكرنا بأنه الكلمة التي إذا طرحت نقص معناه في ذاته أو في صفاته وجعل هذا النقص فرقا بينه وبين التكميل . وذكر أيضا قسم المبالغة وجعله متمما للنقص وذلك حيث يقول في قوله تعالى " له من كل الثمرات " من قوله تعالى (أيود أحدكم أن تكونَ له جنةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تَجرِي من تَحتِها الأنهارُ له فيها من كل الثمراتِ ، وأصابَه الكِبَرُ ، وله ذريةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصابَها إعْصَارٌ فيه نارٌ فاحترقتْ)[٤] (... ثم علم عز وجل أن الجنة لو جمعت إلى النخيل والأعناب كل الثمرات كان وصفها أتم ، ونفعها أعظم . والأسف على فسادها أشد : فقال متمما هذا النقص تتميم مبالغة " له فيها من كل الثمرات " وأما قوله تعالى " ويطعمون الطعام على حبه " فلقد آثر أن يسير فيه على طريق الخطيب في تتميم المعنى بدون الجار والمجرور فيما إذا كان الضمير للطعام ، ولذلك جعلها من باب التكميل الذى يرد على المعنى التام في ذاته وصفاته .. وأخرجها من باب التتميم لأن التتميم عنده إذا سقط لم يتم المعنى ... فبذلك وافقه على تمام المعنى في الآية دون الجار والمجرور ووافق نفسه بالمخالفة في الاصطلاح فجعل الآية من باب التكميل . ولقد كانت نظرته الى التتميم بأنه من تمام المعنى داعية له إلى أن يجعل الجار والمجرور فيما إذا كان الضمير لله سبحانه وتعالى من

---

(١) بديع القرآن : ٤٥ ، ٤٦ (٢) سورة النحل : ٩٧
(٣) بديع القرآن : ٤٦ (٤) سورة البقرة : ٢٦٦

التتميم فيوافق بذلك الخطيب الذى أخرجه في هذه الحالة من هذا البـــاب لأن التتميم عند الخطيب هو ما يتم المعنى بدونه كما سبق بيانه .

يقول ابن أبي الاصبع (ومن التكميل من هذا الباب قوله تعالـــى " ويطعمون الطعام على حبه " فان قوله سبحانه " على حبه " تكميل لحسن هـذا المعنى إن كان الضمير فيه " حبه " عائدا على الطعام ، وإن كان عائدا على الله سبحانه فهو تتميم احتياط)(١) .

وبعد استعراض هذا الجدول الذى يقسم الكلام الى جزئيات نقول : إنه يجب أن تؤخذ الآية بعموم ألفاظها ، وأن يكون المعنى هو مدلول ألفاظهـــا جميعا لا معنى مفترض تؤديه بعض الألفاظ ويخرج باقيها إلى أبواب مصطلحاتهم التي يصطرعون حولها ، وحول إدخال الكلام في هذا المصطلح أو ذاك .

وقبل أن نناقش أصالة " على حبه " نرجح أن يكون الضمير راجعا الـى الطعام وقد قال بذلك ابن عباس ومجاهد واختاره أبو حيان(٢)، وعرض لنـــا الألوسي رأيا يرجح ذلك على رأى الفضيل بن عياض وأبي سليمان الدارانـــي اللذين يريان أن الضمير لله حيث قال (وزيفه بعضهم وقال الأول هو الوجـه ويجاوبه القرآن على أن في قوله تعالى لوجه الله بعد غنيـة عن قوله سبحانـــه لوجه الله ، وفيه نظر بل لعله الأنسب بذاك)(٣) .

ثم إن هذا الوجه المختار يرجحه من القرآن الكريم في قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)(٤) وقوله تعالى (... ولكنَ البرَ من آمـــن باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيين وآتى المالَ على حُبِه ذوى القُربَـــى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرقاب ...)(٥) وقوله تعالـــى : "إن الإنسان لربِّه لَكَنُود ، وإنَّه على ذلك لشهيد وإنَّه لِحُبِّ الخير لَشديدٌ)(٦) .

وأما أصالة هذه الفضلة النحوية (الجار والمجرور) فهو أمر يحتمه علينا أمور عدة :

١ — لا دليل على تمام المعنى من غير الجار والمجرور لأن هذه الآية يذكـر لنا الله سبحانه وتعالى فيها صفة للأبرار هي صفة البذل والعطـــاء والإنفاق ولقد جاءت هذه الصفة في هذه الآية موافقة لشرط بلوغ الـبر في هذه الصفة الذى ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى " لـــن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون) وقوله تعالى (... ولكن البرّ مـن

---

(١) بديع القرآن : ٤٨
(٢) البحر المحيط : ٨/٣٩٥
(٣) روح المعاني : ٢٩/١٥٥
(٤) سورة آل عمران : آية ٩٢
(٥) سورة البقرة : آية ١٧٧
(٦) سورة العاديات : ٦ — ٨

آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابنَ السبيل والسائلينَ وفي الرقاب)

٢ ـ أن سياق الآية في السورة يبين لنا أصالة هذا الجار والمجرور فالآيات من بدايتها تتحدث عن خلق الانسان واختياره لسبيل الشكر أو الكفر وليس اختيار الشكر بالطريق السهل بل هو معاناة ومجاهدة للابتلاء الذى هو غاية خلق الموت والحياة (الذى خلق الموتَ والحياةَ لِيبْلُوَكُم أيّكُم أحسنُ عملاً) (١) ولقد كان المال مظهرا من مظاهر هذا الابتلاء قال تعالى (لَتُبْلَوُنَّ في أموالِكم وأنفسِكم ولتَسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلِكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيرًا وإن تَصْبِروا وتتقوا فإنَّ ذلك من عزم الأمور) (٢) وقال سبحانه (ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة ولكن لِيبْلُوَكُم فيما آتاكم فاستبقوا الخيراتِ إلي الله مرجِعُكُم جميعا فَيُنَبِّئُكم بما كنتم فيه تختلفون) (٣) وقال جل ذكره (وهو الذى جعلكم خلائفَ الأرض ورفع بعضَكم فوقَ بعضٍ درجات ليبلوَكم فيما آتاكم إن ربك سريعُ العقاب وإنه لغفورٌ رحيم) (٤). وإذا كانت السورة تحدثت عن خلق الإنسان ثم ربطت ذلك بالابتلاء (إنا خلقْنَا الإنسانَ من نُطْفَة أمشَاجٍ نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرا) (٥). والابتلاء في الانفاق يكمن في مغالبة النفس المجبولة على حب الخير ويتجلى ذلك في مد الطعام الى المحتاجين مع أن المطعم بحاجة إليه.

شكهم في الحكم بعدم الزيادة وذلك يظهر في اعتبارهم الجار والمجرور المراد فيما إذا كان الضمير لله، مع أنه على قياسهم الذى ساروا عليه في النظر الى جزئيات الآية يتساوى فيه الاحتمالان ومن أحس بذلك ابن يعقوب المغربي والدسوقي اذ ذكرا أن هناك وجهة نظر بالزيادة حتى ولو كان الضمير لله كما سبق بيانه.

وما دمنا لم ننسق مع البلاغيين والشراح وأبقينا "على حبه" أصيلة في معنى النص القرآني الكريم ومراده شأنها في ذلك شأن كل كلمة وكل حرف في كتاب الله.. وتأملنا اشارة هذه الفضلة النحوية الى مكابدة الإنسان ومعاناته وجهاده لرغباته وشهواته وصراعه العنيف معها ذلك الصراع الذى يقوى فيه وينتصر من غمر قلبه الإيمان فضحى برغباته وشهواته وتطهّر من صفاته الغالبة عليه كالهلع وحب

---

(١) سورة الملك : آية ٢ (٢) سورة آل عمران : ١٨٦
(٣) سورة المائدة : ٤٨ (٤) سورة الأنعام : ١٦٥
(٥) سورة الانسان : ٢

والعجلة ... ما دام الأمر كذلك فإن ما حكموا عليه بالتتميم في كلام العرب أمر غير مسلم لهم أيضا وأن لهذه الجزئيات أصالتها سواء كان ذلك في سياقها داخل البيت الواحد أم في سياق النص كله فمن ذلك بيت زهير بن أبى سلمى الذى يقول فيه :

إن تلق يومًا على علاته هَرِمًا ... تلق السماحةَ منه والندى خُلقًا

حيث ذكروا أن " على علاته " تتميم للمبالغة ، ومعنى ذلك أنها عندهم ليست من المعنى الأصلي. وليس الأمر كذلك ف" على علاته " تبين جهاد الإنسان المثال وتعاليه على دواعي الحاجات والضعف وتلك حقيقة الإنسان إذ أنه لا يبلغ درجة الحمد ولا ينال صفات الخير إلا بهذه المكابدة والمعاناة والتغلب على النوازع والشهوات وقد قررها القرآن الكريم في الآيات التي تعرضنا لها وفي غيرها أيضا ، ولكنه جعل وسيلة ذلك التغلب في الإيمان والقيام بأركان الاسلام والتحلي بآدابه قال تعالى (إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هلوعا إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخيرُ منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) (١)

ولقد لمس زهير تلك الحقيقة وأشارت اليها هذه الفضلة " على علاته " في هذا البيت ولقد كان سياق القصيدة مفصحا عنها ومعمقا لها بالرمز تارة وبالإفصاح تارة أخرى لقد كان ذلك البيت من قصيدة يقول في جزء منها (٢) :

بل اذكُرَنْ خيرَ قيسٍ كلِّها حسبا ... وخيرَها نائلا وخيرَها خُلُقا

القائدَ الخيلَ منكوبًا دوابرُها ... قد أُحكِمت حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقا (٣)

غزت سمانا فآبت ضُمَّرًا خُدُجًا ... من بعدِ ما جنَّبوها بُدَّنًا عُقُقا (٤)

حتى يؤوب بها عوجًا معطلةً ... تشكو الدوابرَ والانساءَ والصَفَقا (٥)

يطلب شأو امرأين قدما حسنا ... نالا الملوك وبذا هذه السُّوَقا (٦)

هو الجواد فإن يلحق بشأوهما ... على تكاليفه فمثلُه لَحِقا

---

(١) سورة المعارج : ١٩ — ٢٣

(٢) شعر زهير بن أبي سلمى صنعته الأعلم الشنتمري ٧٢ — ٧٧

(٣) " الدوابر " أواخر الحوافر . ومعنى أحكمت جعل له حكمات . والحكمة التي تكون فن الأنف من المرسن . و " القدّ " : ما قطع من الجلد و " الأبق " شبه الكتان ... وأراد حكمات القد وحكمات الأبق .. دليل المعنى : أحكمت هذه الخيل في الصنعة وشدة الخلق كما أحكمت هذه الحكمات من القد والأبق .

(٤) " الخدج " التي تلقى أولادها لغير تمام . " البدّن " جمع بادن وهي الضخمة السمينة و " العقق " جمع عقوق . وهي التي استبان حملها . (المصدر السابق ٧٣) .

(٥) " المعطلة" التي لا أرسان لها ، لأنها لا تحتاج اليها لشدة جهدها واعيائها و " العوج " جمع أعوج وعوجاء . وهي التي هزلت فاعوجت و " الأنساء " جمع نسا وهو عرق في الفخذ . — " الصفق " : جمع صفاق البطن وهو جلد دون الجلد الأعلى (المصدر السابق : ٧٣ ، ٧٤) .

(٦) " الشأو " الطلق من الجرى ، والشأو أيضا : الغاية (المصدر السابق ٧٤)

أو يسبقا على ما كان مَن مَهَـل — فمثلُ ما قدما من صالح سَـبَقا (١)

أغرّ أبيضُ فيا ضٌ يفكّكُ عـــن — أيدي العُنـاةِ وعن اعناقِها الرّبقا (٢)

وذاك أحزمُهم رأياً إذا نبـأ — من الحوادث غادى الناس أو طرقا

فضل الجيادِ على الخيلِ البطاءِ فلا — يُعطِى بذلك ممنونا ولا نَزِقَـا (٣)

إن تلق يوما على علاتـه هرِمـا — تلق السماحةَ منه والندى خُلقـا (٤)

وليس مانعَ ذى قربى وذِي رَحِـمٍ — يوما ولا مُعدِمٍ من خابطٍ ورقَـا (٥)

ليث بعثر يصطاد الرجال اذا — ما كذّب الليث عن أقرانه صدقـا (٦)

يطعنهمُ ما ارتموا حتى إذا اطعموا — ضاربَ حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

هذا وليس كمن يعيا بخطّتـه — وسطَ النّدي إذا ما ناطقٌ نطقا

لو نال حـيٌ من الدنيا بمنزلـةٍ — وَسْطَ السماءِ لنالتْ كفه الأُفُقَـا

إن زهيرا يريد أن يقيم لممدوحه وجودا شعريا مثاليا وهو يعرف أن بلوغ هذه الدرجة لا يتم إلا بالتعالي على عناصر الضعف في الإنسان ومقاومتها والتغلب عليها حتى يتعالى على من حوله وينتسب الى من وصلوا إلى هذه الدرجة .

---

(١) " المهل " التقدم يقال : أخذ فلان المهلة والمهل على فلان اذا تقدمه (المصدر السابق ٧٥) .

(٢) " العناة " جمع عان وهو الأسير وأصل العنو : الذل و " الرّبق " : جمع ربقه وهو حبل طويل فيه حلق تجعل فيه رؤوس البهم لئلا ترضع امهاتها فاستعاروها ههنا للأغلال (المصدر السابق ٧٥) .

(٣) " الممنون " المقطوع و " النزق " الذى يبطىء بعد الجرى ، والذى يعطي ما عنده ثم يكف ، يقول : هو في الناس بمنزلة الجواد من الخيل الذى يعطيك ما عنده من الجرى دون أن يقطع أو يبطىء بعد السرعة .. ويكون الممنون أيضا من المن أى بما يكون منه فيكدره (المصدر السابق ٧٥ ، ٧٦) .

(٤) وقوله " على علاته " يقول : ان نلقه على قلة مال أو عدم ، تجده سمحا كريما ، فكيف به وهو على غير تلك الحال . (المصدر السابق ٧٦) .

(٥) الخابط : طالب المعروف ، والورق ههنا : المعروف وهذا مثل وأصله أن الرجل يضرب الشجر ليحت ورقه فيعلفه الماشية فسمى كل من طلب بغير يد ولا معروف خابطا (المصدر السابق ٧٦ ، ٧٧) .

(٦) بعثر : اسم موضع (المصدر السابق : ٧٧) .

لقد بدأ قبل هذا البيت في إقامة هذا الوجود المثالي الذى ينـــال أعز ما في القوم من أخلاق وذلك إذ يقول :

واذكرن خير قيـس كلها حسـبا وخيرها نائلا وخيرها خلقـــا

ثم ذكر لنا عنصرا من عناصر المجد عند العرب ذلك هو الفروســـية فقال عنه " القائد الخيل " ثم انساق في وصف هذه الخيل انسياق الشاعر المبدع الذى تتساق الأشياء عنده في جو القصيـدة في أفق شعرى موحد فخيله كما ترى ليست شيئا منفصلا عن وجود الممدوح ، بل هي ليست شيئا منفصلا عن ذات ـ الشاعر .. لقد كانت الخيل رمزا للإنسان الذى يجاهد ويعاني ويكابد ... لقد كانت خيلا تحيط بها المصائب والنكبات تتجلى مظاهرها في الدوابر المنكوبة وحكمات القدّ والحبل .. والنقصان بعد السمن ... تفزو سمانا عقفا فتؤوب ضمرا قد ألقت حملها شاكية نكبة حوافرها وزجرها وظمأها وآثار الصفق ... لقد كانت رمزا أفرغ الشاعر في تجسيد معاناتها ومجاهدتها ما يلاقيه المجاهد فـي سبيل المثال وما يحيط به من مصائب ونكبات يكون محكمه وقيمته في التغلب عليها وتجاوزها إنها العلات تتجسد أمامنا في هذا الرمز الذى سينتقل منه إلـــى الإنسان ذلك الإنسان البطل الذى :

يطلب ثلّو امرأين قد ما حسـنا نالا الملوك وبذا هذه السوقـــا

ولقد أفصح زهير عن رمزية الخيل للإنسان بقوله :

هو الجواد فإن يلحق بشأوهـــا على تكاليفـه فمثلـه لحقـــــا

الوصول الى المثال جهاد ومغالبة ومكابدة والخيل رمز الجهاد والقوة ولقد أرانا الشاعر معاناتها ومكابدتها وممدوحه يريد الوصول أو يريد له الوصول إلى المثال .. وبعد أن أصبحت الخيل رمزا أصبح الممدوح الانسان فردا من أفراد ذلك الرمز ولذلك يقول "هو الجواد" ، ثم تأتي لفظة " على تكاليفـــه " لتكشف المعاناة والمجاهدة التي جسدها لنا الشاعر قبل ذلك من خلال رمـــز الخيل .. ومن هنا تبدو أصالتها وأداءها للحقيقة التي ذكرناها حقيقـــة المعاناة والمكابدة في نيل الفضل والشرف تلك الحقيقة التي يحجبها القـــول بالتتميم الذى تنحي معه هذه الكلمة جانبا عن المعنى الأصلي المحـــروم .

ثم يعرض بعد ذلك صفات الإنسان الخيّرة التي بلغ بها الخير والـــتي يقاوم بها ما في نفسه وما في الآخرين من شهوات وحاجات وعلل " فهو " أغـر " " أبيض " وإذا كانت تلك الصفتين من الصفات مشتركة بين الانسان والخيل فالأمر قائم على رمزية الخيل وارتفاعها بفعل الوجود الشعرى إلى أن يكتسب الإنســان صفاتها وتكتسب هي صفاته ، وعلى ذلك فلا غرو في إشارة هاتين الصفتين إلـــى

أصالتها في الفرس لأن الإنسان أضحى يستمد من الرمز صفاته الخلقيـــــة والخلقية يستمد منها الصفات الباهرة بين السواد والتي يزداد وضوحها كلما اشتد لون السواد حولها وذلك لأن هذه صفات خَلْقِية تنبعث وتشرق من خلال سواد وتلك صفات خلقية تنبعث من خلال تكاليف ومواجهة صعاب وعلات أضحى بطل زهير لا يقاومها في نفسه فقط بل في ذواتِ من يحتاجون ويعيون عـــن المواجهة . .

أغرّ أبيض فيـاض يفكـك عـــن أيـدى العنـاة وعن أعناقها الرّبقا

ويظل مالكا للرأى الصواب الحازم مهما تزاحمت العلل وغادت الناس :

وذاك أحزمهم لأيا اذا نبـــأ من الحوادث غادى الناس أو طرقـا

ثم يعود إلى الإفصاح عن رمزية الخيل لمكابدة الإنسان ومعاناتـــه ومواجهة الصعاب بقوله :

فضل الجياد على الخيل البطاء فلا يعطى بذلك ممنونا ولا نزقـــا

وذلك لأن الوجود الشعرى لهما يتجه نحو غاية واحدة أضحى كلاهما يتحرك في أفقه . وأضحى بطل زهير هو الصخرة التي تتحطم عليها مصاعـــب الآخرين وعللهم وآلامهم :

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون الى أبوابه طرقـــا

ثم نأتي الآن الى بيت القصيد في هذا التحليل وهو قوله :

ان تلق يوما على علاته هرمـــا تلق السماحة منه والندى خلقـــا

إننا لم نأت إلى هذا المكان إلا وقد عرفنا دور العلّات في النـــص ، عرفناها تحيط بالخيل رمز " الإنسان " من كل جانب عرفناها في الخيل تعانيها وتشكوها . . ثم عرفناها بعد ذلك في التكاليف المحيطة بالإنسان الذى يريـد أن يبلغ شأو ذينك الأمرأين اللذين جعلهما زهير نموذجا له يحتذيه . وعرفناها أيضا قلقا نفسيا في الإنسان بعد أن يصل الى ذلك الشأو هل هو السابق أولا أو يسبقاه على ما كان من مهـــل فمثلُ ما قدما من صالح ســـبقا

إن العلات هنا كائن لغوى شعرى قد استوى نحوه وعرفنا جذوره وأن لا غنى للسياق عنه ، فبتجاوز العلات تُبْلَغُ الغاية ، وبقهر العلات ومقاومتها والتغلب عليها يبلغ الإنسان درجة الخير والفضل والشرف لأن ذلك هو محـــكّ الإنســـان وإبراز قيمته كإنسان ومجال ابتلائه واختبار صبره . . لقد أصبح تجاوز العـــلات هو مناط وجود السماحة والندى . . وبعد أن عرفنا حقيقة هذه العلات ورمزيتها لكل ما يحيط بالإنسان من مصاعب وشهوات وحاجات في سبيل بلوغه درجـــات

[illegible]

الفضل والشرف والسمعة الحسنة ، تلك الحقيقة التي لمسها زهير ، وقررهـــا القرآن الكريم ، وأكد عليها كما سبق، فعرّف أيضا أصالة كل جملة اعتراضيــة يشير إلى هذه لحقيقة في حياة الإنسان . وأن الإشارة إلى هذه المعانـــاة والمكابدة في سبيل بلوغ غايات الخير " أمر أصيل " يستمد أصالته من هذه الحقيقة الكبرى في حياة الإنسان ، فمن هنا نحكم بأصالة " على علاته " في قول زهـــير الآخـــر :

إنّ البخيلَ ملومٌ حيث كان ولكـنّ ... الجـوادَ على علاتِه هَـــرِمُ

و " على ما ترين من كبرى " الذى يشير إلى احدى هذه العلات في قول الآخر :

إني على ما ترين من كـــبرى ... أعرفُ من أين تؤكـل الكتــفُ

٢ ـ المبالغة في القصر

ومن أساليب المعاني التي قيل فيها بالمبالغة أسلوب القصر في معظم أقسامه وذلك لأن القصر ينقسم الى قسمين : قصر صفة على موصوف مثل " لا إله إلا الله " وقصر موصوف على صفة مثل قوله تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين)(١) .

ولقد كان بحثهم للقصر قائما على مقارنة مدلول الألفاظ بحقيقة الأمر في الواقع الخارجي ولذلك قسم القصر الى نوعين : حقيقي وإضافي . والقصر الحقيقي عندهم هو ما صح فيه قصر الصفة على الموصوف أو الموصوف على الصفة في الواقع الخارجي ويعبرون عن ذلك بتخصيص الشيء بالشيء بحسب الحقيقة وفي نفس الأمر بأن لا يتجاوزه الى غيره(٢) . ويمثلون له في قصر الصفة على الموصوف بـ (لا إله إلا الله) وبـ (ما نبي خاتم إلا محمد صلى الله عليه وسلم) وهذا سلموا بحقيقته لأنه حقيقة مطلقة . . ولكنهم جاءوا الى الفرع الثاني من الحقيقي وهو قصر الموصوف على الصفة ومثلوا له بـ : ما زيد إلا كاتب وشرطوا صدقه على الحقيقة الخارجية بارادة أنه لا يتصف بصفة غير الكتابة ولما وجدوا أن الخارج لا يسعفهم في إثبات صدق ذلك حكموا بندرته واستحالته فقال الخطيب في الإيضاح (وهذا لا يكاد يوجد في الكلام لأنه ما من متصور إلا وتكون له صفات تتعذر الإحاطة بها أو تتعسر(٣) ، وقال في التلخيص (وهو لا يكاد يوجد لتعذر الإحاطة بصفات الشيء)(٤) وعلق السعد على ذلك بقوله (حتى يمكن إثبات شيء منها ونفي ما عداها بالكلية بل هذا محال لأن للصفة المنفية نقيضا وهو من الصفات التي لا يمكن نفيها ضرورة ارتفاع النقيضين)(٥) . ويقول ابن يعقوب المغربي : (فإذا تعذر في العادة إحاطة المخلوق بصفات الشيء لم يتأت للمحترز عن نقيصة الكذب أن يأتي به قاصدا لمعناه الحقيقي وإنما تعذرت الإحاطة بالأوصاف لما علم أن العاقل لا يحيط بأوصاف نفسه لا سيما الباطنية والاعتبارية فكيف بأوصاف غيره)(٦)

وأما القصر الإضافي عندهم فهو ما يكون فيه القصر (بحسب الإضافة إلى شيء آخر بأن لا يتجاوزه إلى ذلك الشيء وإن أمكن أن يتجاوزه الى شيء آخر)(٧) ومثاله في

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٤ (٢) مختصر السعد على تلخيص المفتاح ٢/١٦٧
(٣) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٢/١٧٢ (٤) شروح التلخيص : ٢/١٧٢
(٥) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص: ٢/١٧٢ ، ١٧٣
(٦) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ٤/١٧٢
(٧) مختصر السعد : ٢/١٦٧

قصر الصفة على الموصوف (ما في الدار إلا زيد) إذا اعتقد المخاطب أن في الدار زيدا وعمرا وأردت أن تحصر الوجود في زيد دون عمرو ولو كان فيها غير عمرو أيضا . وفي قصر الموصوف على الصفة (ما زيد إلا كاتب) إذا أردت أن تحصر الكتابة بالنسبة الى الشعر دون باقي الصفات الموجودة فيه .

وتدخل المبالغة في معظم هذه الأقسام فقد قال الخطيب (وقد يقصد به المبالغة لعدم الاعتداد بغير المذكور فينزل منزلة المعدوم)(١) وأرجع السعد الضمير إلى الثاني وهو قصر الصفة على الموصوف قصرا حقيقيا وشرح ذلك بقوله (كما يقصد بقولنا ما في (الدار إلا زيد) أن جميع من في الدار ممن عدا زيدا في حكم العدم فيكون قصرا حقيقيا ادعائيا وأما في القصر الغير حقيقي فلا يجعل غير المذكور بمنزلة العدم بل يكون المراد أن الحصول في الدار مقصور على زيد بمعنى أنه ليس حاصلا لعمرو وإن كان حاصلا لبكر وخالد)(٢) . ويشرح ابن يعقوب المغربي ذلك بقوله (" وقد يقصد به " أى بالثاني وهو قصر الصفة على الموصوف (المبالغة) في كمال الصفة في ذلك الموصوف فتنفي عن غيره على العموم وتثبت له فقط دون ذلك الغير ولو كانت في نفس الأمر للغير أيضا وإنما يفعل ذلك (لعدم الاعتداد) في تلك الصفة (بغير المذكور) أى بغير ذلك المذكور لتلك الصفة وهذا كما إذا وجد علماء في البلد وأريد المبالغة في كمال صفة العلم في زيد فينزل غير زيد بمنزلة من انتفت عنه صفة العلم لعدم كمالها فيه فيقال (لا عالم في البلد إلا زيد) حصرا للعلم فيه ونفيا له عن غيره لعدم الاعتداد بالعلم في ذلك الغير ويسمى هذا قصرا حقيقيا بالإدعاء وذلك لأن نفي العلم عن غير زيد الذى تضمنه هذا الحصر ليس كذلك في نفس الأمر وانما نسب ذلك النفي الى الغير لكونه بمنزلة المتصف بالنفي لضعف الإثبات فيه ونسبة الشيء لغير من هو له مجاز تركيبي) وقد ذكر أيضا (أن القصر الإدعائي بالمبالغة لا يختص بقصر الصفة على الموصوف ولا بالحقيقي بل يجرى في قصر الموصوف على الصفة وفي الإضافي مطلقا فإذا كانت صفات في شخص وكان مشهورا بواحدة لكمالها وأريد أن يبين أن غير تلك الصفة في ذلك الموصوف ضعيف بالنسبة إليها حتى كأنه لم يتصف إلا بتلك الصفة حصر الموصوف فيها فيقال مثلا : (ما حاتم إلا جواد) أى لا ينصف بغير الجود من الصفات مبالغة في كمال الجود فيه فكأن غيره فيه عدم وتقول مثلا عن قصر الصفة على الموصوف الاضافي مبالغة (ما عالم إلا زيد) أى لا عمرو ولو كان عمرو عالما أيضا ولكن تنزل علمه كالعدم بالنسبة لعلم زيد وفي أقصر الموصوف الإضافي مبالغة (ما زيد إلا كاتب) أى لا شاعر ولو كان شاعرا وكاتبا معا تنزيلا لشعره منزلة العدم بالنظر لكتابته)(٣) .

---

(١) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٢ / ١٧٤

(٢) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص : ٢ / ١٧٤

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ٢ / ١٧٤ ، ١٧٥

ولما كانت هذه التقسيمات تستمد تنوعها من الواقع الخارجي ومن إرادة المتكلم مغفلة حقيقة الوجود اللغوى وإثبات ونفي اللغة ذاتها المستمد من النص والسياق وجدت أسلوب القصر يوصف به الإدعاء الذى وضعوه كما ترى هنا مرادفا للمبالغة ... ولو اقتصروا في المبالغة في كمال الصفة لهان الأمر . ولقبلناها لأن الدلالة على التناهي وبلوغ الغاية في كمال الوصف مفهوم صحيح للمبالغة ، ولكنهم قرنوا ذلك بحصر المخصص في المخصص له ونفيه عما عداه تنزيلا لما عداه منزلة العدم ، ولما لم يصدق ذلك على الواقع الخارجي الذى افترضوا أن اللغة مرآة له قرنوا هذه المبالغة بالإدعاء وبهذا النظر كان الحقيقي من القصر عندهم أحد أمرين :

١ — ما كان فيه حصر الصفة في الموصوف ونفيها عما عداه من الحقائق المطلقة المسلمة : مثل : لا اله إلا الله — ما خاتم الأنبياء الا محمد صلى الله عليه وسلم .

٢ — ما ثبت في الواقع الخارجي حقيقته وكينونته المحصورة وذلك كقولك (ما في الدار الا زيد) وحتى هذا المثال الذى يحكي حقيقة خارجية واقعة وذلك حيث لم يكن في الدار إلا زيد لم يسلم من إمكانية ادخاله عند في باب الإدعاء يقول المغربي في ذلك (فان لفظ الدار إذا أريد بدار معينة صح أن تحصر هذه الصفة وهو الكون فيها في زيد بحيث لا يكون فيها غيره أصلا وإنما قلنا معينة لأنه لو أريد مطلق الدار لم يتأت عادة حصر الكون في مطلق الدار في زيد إذ لا بد من كون غير زيد في دار ما . وورد على هذا المثال أن الكون في الدار المعينة لا ينحصر في زيد لأن الهواء الذى لا يخلو منه فراغ عادة كائن في الدار فان أريد نفي الكون عن نوع زيد بأن يكون التقدير ما في الدار إنسان أو أحد إلا زيدا ليقع الاستثناء متصلا قرب الجنس لزم صحة هذا في قصر الموصوف على الصفة الذى جعل متعذرا أو محالا إذ يصح قولك ما هذا الثوب الا أبيض بتقدير أنه لا يتصف بشيء من الألوان غير البياض فالأول التمثيل بنحو ما تقدم وهو قولنا (ما خاتم الأنبياء إلا محمد صلى الله عليه وسلم) (١) .

وحتى عند عبد القاهر الجرجاني أيضا كانت إفادة طريقي الحصر " انما " و " التعريف " للمبالغة — وهما الطريقان اللذان نصل على افادتهما المبالغة كما سبق أن أشرنا — عن طريق الادعاء فإنما تفيد المبالغة إذا ادعى في القصر أمر ظاهر معلوم للجميع كقول الشاعر :

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللـ ـه تجلّت عن وجهه الظلماء (٢)

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ١/١٧٣ ، ١٧٤

(٢) دلائل الاعجاز : ٢٥٥

والتعريف يفيد المبالغة عنده إذا قصرت جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة وذلك كقولك : زيد هو الجواد ، وعمرو هو الشجاع : تريد أنه الكامل إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه ، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال)[١] .

---

(١) المصدر السابق : ١٣٨

الفصـــل الثالـــــث

المبالغة في علـم البديـــع

١ ـ مبحث المبالغة والبديع عند المتأخريـــن

ان استعراض نشأت البديع ، وتطور مصطلحه ، وتقسيماته أمر لا يعني هـــذا البحث الذى انحصر في تناول المبالغة ، وتاريخها ، وطوفانها فيما هكم عليه بها مـن الألوان الأسلوبية للكلام ، ولقد كفانا مؤونة ذلك بعض الأبحاث التي تتبعته في نشأتـــه وتطوره (١) . والذى يعنينا هنا أن نشير إلى النظرة التي استقرت في البلاغة العربيـــة ازاء البديع ، تلك النظرة التي جعلته يأتي في مرحلة تالية للوفاء بالمعنى بالمراد والتي تتضح من خلال تعريف الخطيب القزويني له إذ عرفه بقوله (وهو علم يعرف به وجــوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة) (٢) ، وجعل البديـع في هذه الدرجة المرحلية ، وقصر وظيفته على التحلية والتحسين أمر فيه الكثير من العبث بطاقات الكلام وإشعاعاته ، ذلك العبث النظرى الذى طاف بالبلاغة العربية التي حصرت معنى الكلام في معنى موهوم تصوروا أنه هو المعنى الأصلي وقصروا الوظيفة الأساسـية للكلام في الإشارة اليه ، وما يأتي بعد ذلك ما هو الا توكيد أو تقرير أو توضيح أو مبالغة أو تحسين وتحلية . ولقد لفت ذلك نظر الدكتور أحمد موسى فقال بعد أن عرض للبديع وأساليبه (وبما عرضناه عليك من أساليب البديع يتجلى لك أن هذا الكلام كله نظـــرى لا يستند على دعائم عملية تكنفه وتؤازره ، فالمقسم ، أو المزاوج ، أو المطابق ، أو المعلل أو المبالغ مثلا لم يلاحظ قبلية أو بعديه كما لم يلاحظ المؤكد أو الموجز أو المطنب أنه راعى ذلك بعد رعاية ما يقتضيه علم الإعراب ـ وإن كان لا بد من صحة التراكيب ـ وإنما يرمي الى غرض كما يرمي الذى فصل أو وصل ، ويقصد الى هدف كما يصنع الذى شبه أو تجوز ، أو كنى ، دون هذه المراعاة الاعتبارية النظرية التي خبوا في بيانها ووضعوا فلم يأتـــوا بشيء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) (٣) ولقد أشاد بالبهاء السبكي عندما أنكـــر هذه المرحلية النظرية فقال (والحق الذى لا ينازع فيه منصف أن البديع لا يشترط فيـه التطبيق ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال . ومـن الإيراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين ، وأول برهان على ذلك

---

(١) ممن تناول ذلك : د . احمد موسى في كتابه : الصبغ البديعي في اللغة العربية
د . رجاء عيد في كتابيه : المذهب البديعي في نقد الشعر، وفلسفة البلاغة بين التقنية والتطور .

(٢) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٢٨٢/٤ ، ٢٨٣ ـ (٣) الصبغ البديعي ١٥٠

أنك لا تجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون إلى بيان اشتمال شيء منها على التطبيق ولا تجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه والاستعارة والكناية التي هي طرق علم البيان هذا هو الإنصاف وإن كان مخالفا لكلام الأكثرين (١).

وهذا هو ما دعا الدكتور علي العماري أن يقول (وإذا كان بعض الباحثين يرى أن المحسنات البديعية ليست أمورا عرضية في الكلام كما جرى عليه الأوائل ، بل هي أمور ذاتية ، فان أحق الألوان البديعية أن يلحق بعلم البيان هو هذا النوع لما فيه من جمال التعبير ، وروعة المعنى .

ولا يعكر علينا أن تعريف علم البيان ـ كما درجت عليه البلاغة السكاكية ـ لا يشملها ، فمن اليسير أن نستأذن سدنة هذه البلاغة أن يسمحوا للمبالغة ، ولغيرها من الألوان البديعية التي تكون أصلا في بلاغة الكلام أن يسمحوا لها بالانتساب الى علم البيان (٢) ولا شك أن هذا شعور بالحيف الذى لقيه البديع في البلاغة العربية ، ولكن هل الحاقه بالبيان على أساس أن البيان ما هو إلا طرق مختلفة في وضوح الدلالة لإيراد المعنى الواحد يخرجه من هذا الحيف ؟؟!

ولقد استقرت المبالغة في تأليف المتأخرين من علماء البلاغة عنوانا عاما على ما رأوا من ألوانها عند المتقدمين ، وأدرجت تحتها ألقاب تجمع كل الأوصاف التي وردت على ألسنة المتقدمين ، وجعلت المبالغة مبحثا من مباحث علم البديع ، وان كان بعض ألوانها ذكر في علم البيان وبعضها ذكر في علم المعاني (٣).

وقد قسموا المبالغة الى درجات مراعين في ذلك تحقق الوجود اللغوى في الواقع الخارجي تحقيقا يمكنهم من أخذ الواقع الخارجي معيارا يحتكمون اليه في الحكم على العمل الأدبي . إما بالصحة أو الكذب وإما بالامكان أو التعذر . . . ولذلك قسموا المبالغة إلى درجات في ضوء هذا المعيار هي :

١ ـ إن كان المدعي ممكنا عقلا وعادة فتبليغ كقوله :

فعادى عداء بين ثور ونعجة ... وراكا فلم ينضج بما فيفسل

٢ ـ وإن كان ممكنا عقلا لا عادة فإغراق كقولهُ :

ونكرم جارنا ما دام فينا ... ونتبعه الكرامة حيث مالا

٣ ـ وبعد هذين القسمين يبقى قسم واحد فقط ، وإن كانت القسمة العقلية تقتضي رابعا ولكنه ممتنع ولذلك قال سعد الدين التفتازاني (وإن لم يكن ممكنا لا عقلا

---

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٤/٢٨٤ والصبغ البديعي : ٥٠١ ، ٥٠٢

(٢) المعاني بين القصد والإفراط ـ مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي : ٢٢٩

(٣) المرجع السابق : ٢٢٨

ولا عادة لا متناع أن يكون ممكنا عادة ممتنعا عقلا إذ كل ممكن عادة ممكن عقلا ولا ينعكس فضلو كقوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التي لم تخلق (١)

وعلق البهاء السبكي على البيتين الواردين في القسمين الأول والثاني فقال عن الأول : (وفيه نظر لأن هذا إخبار عن الواقع بغير مبالغة (٢)) وقال عن الثاني : (وفيه نظر لإمكان حمل ذلك على تزويده بما يصاحبه في كل جهة يميل إليها كما هي عادة الكرام (٣)) .

وهذا المعيار ليس معيارا صادقا للغة العمل الأدبي لأننا بهذا المعيار ندين معظم ما جاء بهذه اللغة التي تقوم على إعادة تشكيل الواقع الخارجي واقامة الأشياء في وجود لغوي آخر تتجدد فيه العلاقات بينها ... من واقع منظور المبدع الذاتي وبكل ما يصاحبه من مشاعر وأحاسيس ورغبة ملحة من الإنسان في اقتناصه حقائق الأشياء بنفسه . وتسجيل ذلك الفكر السيال المتدفق بكلمات اللغة التي تبقى بعد ذلك حاملة لتدفق ذلك الفكر ، ومتيحة لقارئها وسامعها بواسطة نشاطها أن يطوف معها في أجواء فكر الإنسان في حدود تقديره للكلمة ودورها ، وإيمانه بفاعليتها ونشاطها ، فإن كان مقدرا لذلك ومؤمنا به استطاعت الكلمة أن تحمله إلى قريب جدا من ذلك الأفق الذي ولدت فيه ، وإن كان الواقع هو حكمه ومعياره فقد ابتعد عن ذلك الأفق ورماه دبر أذنه وحمله على التجوز والتزيد والمبالغة والكذب كما هو واضح في تراثنا النقدي والبلاغي .

ومن منطلق الواقع الخارجي ومعياريته في الحكم على اللغة حكموا بوجود "الغلو" الذي اعتبروه أبعد أنواع المبالغة درجة عن حقيقة الواقع عقلا وعادة في القرآن الكريم .. وقد قبلوه لاقترانه في نظرهم بما يقربه إلى الصحة نحو لفظة يكاد في قوله تعالى (يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار ، نورٌ على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء (٤)) .

ولقد شعر ابن يعقوب المغربي بالحرج في القول بالتقريب الى الصحة فقال معلقا على قول صاحب التلخيص (وينبغي لما مثل بالآية أن يقول ـ بدل قوله يقربه إلى الصحة ـ لا يظهر معه الامتناع تأدبا وهو كذلك ثم إن ما ذكر من كون اضاءة الزيت محالا عقلا غير ظاهر لصحة اتصاف كل جسم بما اتصف به

---

(١) شروح التلخيص : ٤/٣٥٩ ـ ٣٦١ (٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٤/٣٦٠
(٣) المصدر السابق : ٤/٣٦١ (
(٤) الآية : ٣٥ من سورة النور وانظر شروح التلخيص : ٤/٣٦٢ .

الآخر اللهم إلا أن يراد بالاستحالة العقلية الاستحالة في عقول العامة أو يراد بالزيت الزيت بقيد كونه غير مضيء كما هو المشاهد وفي كل ذلك تحمل باعتبار إطلاقهم التفصيل لأن الظاهر عدم الاستحالة الحقيقية المتقررة على الإطلاق وإلا فإكرام الجار نائبا أبدا باعتبار عقول العامة محال، وكذا يقيد كونه غير مكرم كما هو في العرف والشهود)[١] .

واما البهاء السبكي فقد أنكر عليهم وسيلة التقريب هذه فقال (ولك أن تقول المستحيل كيف يقرب من الصحة بكاد)[٢] وعلق على أمثلة الغلو بهذه الآية وبقول الشاعر وهو ابن حميد الصقلي :

ويكاد يخرج سرعة عن ظله ... لو كان يرغب في فراق رفيق

وبقول أبي الطيب المتنبي :

عقدت سنابكها عليها عثيرا ... لو تبتغي عنقا عليه لأمكنا

بقوله (وفي جميع هذه الأمثلة وكونها من المستحيل عقلا نظر إذ العقل لا يمنع أن يضيء الزيت وأن يخرج الفرس عن ظله ، وأن تعقد حوافر الخيل غبارا ويتكاثف حتى يمكن السير عليه)[٣] .

وحول هذا المفهوم العقلي المحدود بحدود الواقع الخارجي للآية نقول : إن لغة القرآن الكريم هي كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وقد جاءت تموج بحياة الكثير من الكائنات ... وتتجاوز تصورات البشر الذين يسعون لاهثين لإدراك الحقيقة بوسائلهم المحدودة وجاء القرآن الكريم يوضحها لهم ويعرضها عليهم عرض العليم بخفايا كل شيء .. في لغة لا يمكن لنا أن نحد فهمها بحدود مدركات الذهن البشرى المحسوسة والمشاهدة .. ولذلك كان لزاما علينا ألا نجعل التحقيق في الواقع الخارجي لحقائق القرآن الكريم هو وسيلتنا في الفهم والاستبصار ، بل يجب علينا أن نسموا الى أفق لغة القرآن ، وأن ننظر الى الأشياء فيها في ظل وجودها وسياقها اللغوى الذى عرضه القرآن الكريم .

والذى يضرب الله سبحانه وتعالى له المثل في هذه الآية هو نوره عز وجل . وتفسير هذا النور بأنه الحق[٤] ، أمر فيه اختصار لحقيقة النور الإلهي ، لأن الحق جزء من النور قال تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ٤/٣٦٢ ، ٣٦٣ (٢)
(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٤/٣٦٢ ، ٣٦٤
(٤) انظر تفسير ابن كثير ٤/٢٨٩ وتفسير الكشاف ٣/٦٧

الظلمات) . وقال جل وعلا (يُريدُون ليطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم والله مُتِمُ نوره ولو كره الكافرون) (١) . وقال جل ذكره (يا أيها الناسُ قد جاءكم برهانُ من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا) (٢) .

والنور الالهي نور شامل غمر الكون كله كما في هذه الآية (الله نور السموات والأرض) وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة كما في قوله صلى الله عليه وسلم (أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة) وأشرقت به الأرض يوم القيامة (وأشرقت الأرضُ بنورِ ربِّها) (٣) فهو نور تنقشع به الظلمات ، وتشرق به الأرض . . . ولكن هل يمكن لنا نحن البشر إدراك حقيقة هذا النور الإلهي ؟؟! إننا بوسائلنا المحدودة لا ندرك حقيقة هذا النور ولكننا يجب علينا الإيمان به كما جاء به الكتاب ، وكما جاء في السنة المطهرة . . وما جاء في هذه الآية هو ضرب مثل لذلك النور . . ذلك المثل الذى يرتفع بنا من الواقع المحسوس الى آفاق السماء والغيب فيبدأ بالمحسوس المشاهد (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة) ثم يسمو بنا الى آفاق السماء ، ويتجاوز بنا الواقع المشاهد فيشبه الزجاجة بالكوكب الدريّ ، ويكون الإيقاد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقيةٍ ولا غربية) ويعقب سبحانه في ختام المثل بقوله (ويضرب اللهُ الأمثالَ للناسِ واللهُ بكلِ شيء عليم) فمهما بلغت قوانا الإدراكية فعلم الله سبحانه وتعالى هو المحيط بكل شيء . . ومداركنا لا تدرك إلا ما يمن الله عليها بإدراكه . . وعلينا أن نؤمن بما وراء ذلك كما جاء به الكتاب الكريم ، وكما أخبرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم .

وطالما أن هذا المثل المضروب لهذا النور الذى لا يمكن لنا إدراكه بالمشاهدة المحسوسة فقط . . . والذى كما نلاحظ في نصه يتجاوز بنا الواقع المشاهد المحسوس الى آفاق السماء . . وعالم آخر تتجاوز فيه الشجرة الزيتونة المباركة حدود المكان والزمان . . ما دام أن الأمر كذلك فلا مجال للحكم بأن قوله تعالى " يكاد زيتها يضيء " من باب الغلو المقرب الى الصحة بـ " كاد " .

ولقد كان سيد قطب رحمه الله تعالى موفقا في الظلال التي استوحاها من سياق هذا المثل عندما قال (وهو مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود . . . وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه عن آفاقه المترامية وراء الادراك البشرى .

---

(١) سورة الصف : ٨ (٢) سورة النساء : ١٧٤

(٣) سورة الزمر : ٦٩

ومن عرض السموات والأرض إلى المشكاة ، وهي الكوة الصغيرة في الجدار غير النافذة يوضع فيها المصباح ، فتحصر نوره وتجمعه ، فيبدو قويا متألقا : "كمشكاة فيها مصباح " .. " المصباح في زجاجة " .. تقيه الريح ، وتصفي نوره ، فيتألق ويزداد .. " الزجاجة كأنها كوكب دري " فهي بذاتها شفافة رائقة سنية منيرة هنا يصل بين المثل والحقيقة .. حين يرتقي من الزجاجة الصغيرة الى الكوكب الكبير ، كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير الذى ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير ، وبعد هذه اللفتة يعود الى النموذج الى المصباح : " يوقد من شجرة مباركة زيتونة) ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون . ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل ، إنما هو كذلك الظلال المقدسة التي تلقيها الشجرة المباركة . ظلال الوادى المقدس في الطور وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب . وفي القرآن اشارة وظلال حولها " وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين "(١) . وهي شجرة معمرة وكل مافيها مما ينفع الناس . زيتها وخشبها وورقها وثمرها .. ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكر بالأصل الكبير . فهذه الشجرة ليست شجرة بعينها وليست متحيزة الى مكان أو جهة .. " لا شرقية ولا غربية " وزيتها ليس زيتا من هذا المشهود المحدود ، انما هو زيت آخر عجيب " يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار " فهو من الشفافية بذاته ، ومن الإشراق بذاته ، حتى ليكاد يضيء بغير احتراق " ولولم تمسسه نار " " نور على نور " وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق في نهاية المطاف !

إنه نور الله الذى أشرقت به الظلمات في السماوات والأرض ، النور الذى لا ندرك كنهه ولا مداه ، إنما هي محاولة لوصل القلوب به ، والتطلع الى رؤياه " يهدى الله لنوره من يشاء " ... ممن يفتحون قلوبهم للنور فتراه ...

إنما المثل الذى ضربه الله بنوره ، وسيلة تقريبية الى المدارك ، وهو العليم بطاقة البشر .(٢)

---

(١) سورة المؤمنون : ٢٠

(٢) في ظلال القرآن : ٤/٢٥١٩ ، ٢٥٢٠

٢ ـ المبالغـة في حسـن التعليـل

لقد تناول النقد والبلاغة العربية هذا الباب ، وممن أفاض في الحديث عنه الإمام عبد القاهر الجرجاني . وربطه بالتخييل والإدعاء (وجملة الحديث أن الذى أريده بالتخييل ههنا . ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى لا طريق الى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى) (١) وهذا القسم التخييلي عنده والذى وضعه مقابلا للعقل (فهو الذى لا يمكن إنه صدق ، وإن ما أثبته ثابت ، وما نفاه منفى ، وهو مفتن المذاهب ، كثير المسالك ، لا يكاد يحصر إلا تقريبا ولا يحاط به تفسيما وتبويبا . . ثم إنه يجيء طبقات ويأتي على درجات .

فمنه ما يجيء مصنوعا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق ، حتى أعطي شبها من الحق ، وغشى رونقا من الصدق ، باحتجاج بخيل ، وقياس يصنع فيه ويعمل ، ومثاله قول أبي تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى　　　فالسيل حرب للمكان العالي

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة في قدره وكان الغنى كالغيث في حاجة الخلق إليه وعظم نفعه ، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم نزول ذلك السيل عن الطور العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام ، لا تحصيل وإحكام فالعلة في أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية ، ان الماء سيال ، لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب ، وتمنعه عن الانسياب ، وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال) (٢) .

ويظهر في هذا القسم حسن التعليل في أنواع متعددة مرتبطة بالتخييل يقول عبد القاهر (ومن هذا النمط في أنه تخييل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره وان ما تعلق به من العلة موجود على ظاهر ما ادعى قوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا　　　إنَّ السماءَ تُرَجَّى حين تَحتَجِبُ

فاستتار السماء بالغيم . هو سبب رجاء الغيث الذى يعد في مجرى العادة جودا منها ونعمة صادرة عنها) (٣) ويضيف معددا هذه الأنواع :

(وهذا نوع آخر وهو دعواهم في الوصف هو خلقه في الشيء وطبيعة ، أو واجب على الجملة من حيث هو ـ أن ذلك الوصف حصل له من الممدوح ، ومنه استفاد ، وأصل هذا التشبيه ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد ، ولهم فيه عبارات منها قولهم : إنَّ الشمس تستعير منه النور وتستفيده ، أو تتعلم منه الإشراق وتكتسب منه الإضاءة ، وألطف من

---

(١) أسرار البلاغة : ٢/١٣٦　　(٢) المصدر السابق : ٢/١٢٨ ، ١٢٩

(٣) المصدر السابق : ٢/١٣٨

ذلك أن يقال : تسرق وإن نورها مسروق من الممدوح ، وكذلك يقال المسك يسرق من عرفه ، وان طيبة مسترق منه ومن أخلاقه . قال ابن بابك :

ألا يا رياض الحَزْنِ من أبرق الحمى نسيمك مسروق ووصفك منتحل
حكيت أبا سعد فنشرك نشره ولكن له صدق الهوى ولك الملل

ونوع آخر : وهو أن يدعي في الصفة الثانية للشيء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر ، ويختلقها : إما لأمر يرجع الى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور .

فمن الغريب في ذلك معنى بيت فارسي ترجمته :

لو لم تكن نيه الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى أعني ما أصله التشبيه ، ثم أريد التناهي في المبالغة والإغراق والإغراب .

ويدخل في هذا الفن قول المتنبي :

لم يحك نائلَكَ السحابُ وإنما حُمَّت به فصبيبها الرُحَضَاءُ

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث ، فانه وضع المعنى وضعا ، وصورة خرج معها إلى مالا أصل له في التشبيه فهو كالواقع بين الضربين (١) .

ونوع آخر منه قول الصولي :

الريح تحسدني عليك ولم أخلها في العدا
لما هممت بقبلة ردت على الوجه الردا

وذلك أن الريح اذا كان وجهها نحو الوجه ، فواجب في طباعها أن ترد الرداء عليه ، وأن تلفه من طرفيه ، وقد ادعى أن ذلك منها لحسد هاء وغيرة لمحبوبة وهي من أجل ما في نفسها : تحول بينه وبين أن ينال من وجهها (٢) .

وهناك نوع آخر في التعليل عنده (وهو أن يكون للمعنى من المعاني والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع ، ثم يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة ، ويضع له علة أخرى ، مثاله قول المتنبي :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي إخلاف ما ترجو الذئابُ

الذى يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلإرادته هلاكهم ، وأن يدفع مضارهم عن نفسه وليسلم ملكه ويصفو من منازعتهم، وقد ادعي المتنبي كما ترى أن العلة في قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك (٣)) .

وترتبط المبالغة بهذه الأنواع التي ذكرها كما يفهم من شرحه لها . ونظر

---

(١) المصدر السابق : ١٣٨/٢ ، ١٣٩
(٢) المصدر السابق : ١٤١/٢
(٣) المصدر السابق : ١٥٨/٢

لارتباطها بها ، فقد عقد في هذا الفصل مناظرة بين قبولها ورفضها ، وأملى عليه موقفه من لغة العمل الأدبي التي وضع الواقع الخارجي معيارا لصحة علاقاتها ، وهذا لأبى أن يجعلها كالقضية المنطقية وأن يطبق عليها معايير الصحة والكذب في المنطق ، ثم يحار بين هذا التطبيق ، وبين رفض لغة العمل الأدبي لهذا المنطق ، فيميل إلى رفضها نظريا حيث يقول (والعقل يعمد على تفضيل القبيل الأول — من المعنى العقلي — وتقديمه ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه ، وقد قيل : الباطل مخصوم وإن قضى له ، والحق مفلح وان قضى عليه ، هذا ومن سلم أن المعاني المفرقة في الصدق ، المستخرجة من معدن الحق في حكم الجامد الذى لا ينمى ، والمحصور الذى لا يزيد ؟

وان أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر الى قول أبي فراس :

وكنا كالسهام إذا أصابت مراميها فراميها أصابا

ألست تراه عقليا في نسبه ، معترفا بقوة سببه ، وهو على ذلك من فرائد أبي فراس التي هو أبو عذرها والسابق إلى اثارة سرها)[١] .

ثم يجيء بعد ذلك في شرح أبيات من القبيل الثاني فيشيد بها ويشرح سر استحسانها ، ومن هنا كانت المبالغة التي يذكرها في هذا البيت تفوح منها رائحة الكذب والإدعاء ، حيث حاول جاهدا أن يحتج لها ، ويدافع عنها .. وأنى يتم له ذلك وهو يأخذ الشعر مأخذ القضايا المنطقية ، وإذا سلمنا أن الشعر ليس قضايا منطقية ، وأن لغته لا تنقل الواقع الخارجي نقلا حرفيا ، وجدنا أن الحكم بالإدعاء والمبالغة أمر لا أساس له وأنه جاء نتيجة لعدم صدق المعيار الذى حوكمت به .

ولقد سلك الخطيب القزويني في ربط هذا الباب بالإدعاء والمبالغة الطريق نفسه إذ عرفه بقوله (وهو أن يدعي لوصف علة مناسبة باعتبار لطيف غير حقيقي)[٢] . ولقد شرح السعد هذا التعريف وجاء في شرحه قوله (أى لا يكون ما اعتبر علة لهذا الوصف علة له في الواقع كما إذا قلت قتل فلان أعاديه لدفع ضررهم ، فإنه ليس في شيء من حسن التعليل ، وما قيل من أن هذا الوصف أعنى غير حقيقي ليس بمفيد ههنا لأن الاعتبار لا يكون إلا غير حقيق ففلط ، ومنشؤه ما سمع أن أرباب المعقول يطلقون الاعتبارى على ما يقابل الحقيقي ، ولو كان الأمر كما توهم لوجب أن يكون جميع اعتبارات العقل غير مطابق للواقع)[٣] فهو هنا يسير معهما في الحكم بعدم مطابقته للواقع وكونه غير حقيقي وقد حصر الخطيب أقسامه في أربعة أقسام فقال (وهو أربعة أقسام لأن الوصف ، اما ثابت قصد

---

(١) اسرار البلاغة : ٢/١٣٤ ، ١٣٥ (٢) الايضاح ضمن شروح التلخيص: ٤/٣٧٣

(٣) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص : ٤/٣٧٣

بيان علته أو غير ثابت أريد إثباته ، والأول إما أن يظهر له في العادة علة أو يظهر له علة غير المذكورة ، والثاني إما ممكن أو غير ممكن أما الأول فكقول أبي الطيب :

لم يحك نائلك السحاب وإنما ... حمت به فصبيبها الرحضاء

فإن نزول المطر لا يظهر له في العادة علة : وكقول أبي تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالي

وأما الثاني فكقول أبي الطيب :

ما به قتل أعاديه ولكن ... يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب

فإن قتل الملوك أعداءهم في العادة لإرادة هلاكهم ، وأن يدفعوا مضارهم عن أنفسهم حتى يصفو لهم ملكهم من منازعتهم ، لا لما ادعاه من أن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين بعثته على قتل أعدائه ، لما علم أنه لما غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق من قتلاهم ، وهذا مبالغة في وصفه بالجود ويتضمن من المبالغة في وصفه بالشجاعة على وجه تخييلي . أى تناهي في الشجاعة حتى ظهر ذلك للحيوانات العجم فإذا غدا للحرب رجت الذئاب أن تنال من لحوم أعدائه ، وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه ليس ممن يسرف في القتل طاعة للغيظ والحنق .

وأما الرابع فكمعنى بيت فارسي ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته ... لما رأيت عليه عقد منتطق

فان نية الجوزاء خدمته ممتنعة) (١) .

ومبنى هذا التقسيم والحكم بالإدعاء هو تحقق ما يقوله الشاعر في الواقع الخارجي والعرف المعتاد ، وإذا عرفنا أن عمل الشاعر يقوم على وجود لغوى قد لا يتفق مع وجود الواقع الخارجي والعرف المعتاد فيجيء مغايرا له في التشكيل والترتيب ، بل قد يدمره الشاعر ويقيم على أنقاضه وجودا آخر قوامه اللغة وحياة الكلمات في سياقها ، إذا عرفنا ذلك كان على النقد أن يتعالى مع اللغة في هذا الأفق ، وأن ينأى عن هذا الحكم البسيط بالحقيقة أو عدمها ، وأن تصرف المبالغة فيه عن التزيد والإدعاء الى وصف وتفسير جهد الشاعر في بلوغ ما يبلغ به الغاية في تحقيق ذلك الوجود الشعرى ، ومع أن عبد القاهر قد سار في تحكيم الواقع والمتعارف عليه في العادة والطباع في اللغة الشعرية كما سبقت الإشارة إلى ذلك لم يكتف بذلك بل أخذ يبين دور هذه المخالفة والمغايرة في العمل الفني فمن ذلك شرحه لبيت أبي الطيب السابق حيث قال فيه (الذى يتعارفه

---

(١) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٤/٣٧٥ - ٣٨٢

الناس أن الرجل اذا قتل أعاديه فلإرادته هلاكهم . وأن يدفع مضارهم عن نفسه ، وليسلم ملكه ، ويصفو من منازعتهم ، وقد ادعى المتنبي كما ترى أن العلة في قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك .

واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون في استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح ، أو يكون لها تأثير في الذم كقصد المتنبي ههنا في أن يبالغ في وصفه بالسخاء والجود ، وأن طريقة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة في آمالهم قد بلغت به هذا الحد ، فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ، ويخصب لها الوقت من قتلى عداه كره أن يخلفها ، وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها ، وفيه نوع آخر من المدح ، وهو أنه يهزم العدا ويكسرهم كسرا لا يطمعون بعده في المعاودة ، فيستغني بذلك عن قتلهم واراقة دمائهم ، وأنه ليس ممن يسرف في القتل طاعة للغيظ والحنق ولا يعفو اذا قدر وما يشبه هذه الأوصاف الحميدة ناعرفه)[1] .

وأخذ البيت في سياق النص الذى جاء فيه يعطي لهذا التعليل الذى أتى به الشاعر مكانا طبيعيا يتحرك فيه داخل حركة النص ، ويلغى فكرة التحسين التي تخلع على التعليل نتيجة لتثبيت الكلمات وحصر تحركها في صورة مطابقة لما يجرى في العرف والواقع الخارجي . فالبيت قد ورد في قصيدة لأبي الطيب المتنبي في مدح بدر بن عمار يقول فيها :

إنما بدر بن عمار سحاب ... هطل فيه ثواب وعقاب
انما بدر رزايا وعطايا ... ومنايا وطعان وضراب
ما يحيل الطرف الا حمدته ... جهدها الأيدى ودمته الرقاب
ما به قتل أعاديه ولكن ... يتقى اخلاف ما ترجو الذئاب
فله هيبة من لا يترجى ... وله جود مرجى لا يهاب[2]

ومن أول بيت تلاحظ أن الشاعر يقيم لممدوحه وجودا شعريا لو قارناه بالواقع الخارجي والعرف المعتاد لكان ميتا وكذبا وافتراء ، ولكنه عمل الشاعر في الوجود الشعرى عن طريق اللغة الذى يعيد فيه تشكيل الواقع الخارجي ، ويعقد فيها بين أجزائه علاقات تقيمها الكلمات بما تحويه من نبض وإشعاع .

لقد رفع الشاعر ممدوحه الإنسان الذى ذكر لنا اسمه واسم أبيه من حدود الإنسانية الى أفق شعرى يتعالى فيه على من حوله ، ويجعلهم في علاقة متوترة معه ،

---

(١) أسرار البلاغة : ٢/١٥٨
(٢) التبيان في شرح الديوان : ١/١٣٣ ، ١٣٤

يرجون خيره ويخافون عقابه ، ويجعله الممسك بقطبي هذه الضديه في كل رمز من الرموز التي جعلها ممثلة له ، فهو سحاب هطل فيه الثواب والعقاب ، وهو الرزايا والعطايا ، وهو أيضا المنايا والطعان والضراب ، وكأن الشاعر يدعونا بادئ ذي بدء ألا نفكر في ممدوحه كنموذج إنساني فحسب ، بل علينا أن نعايش الشاعر هذا الوجود المتعالي الذي أقامه لممدوحه ... وذلك كما يتضح من خلال أسلوب القصر ، إنما بدر بن عمار سحاب ، ومن خلال تكريره في البيت الثاني : إنما بدر رزايا وعطايا ... ونمضي مع الشاعر في هذا الوجود ، الذي أصبح ما أن تحيل الأعين فيه الطرف الا وتحمده الأيدي لعطاياه ، وتذمه الرقاب خوفا من العصف بها ، حتى إذا أتينا إلى هذا البيت الذي نحن بصدده . وجدنا أن نفي العداوة وإرادة الحاق الضرر بأعدائه عند قتلهم كانت طبيعية ، وتتحرك في مكانها داخل هذا الوجود الشعري فتعالى الممدوح الى هذه الرموز التي قدمها الشاعر رفعته من انسانيته ... في الوقت الذي أطاحت بأعدائه من إنسانيتهم ، وجعلتهم لا قيمة لهم في وجود الممدوح الشعري ومن ثم فلا مجال لأن تكون علاقته معهم علاقة انسانية فيقتلهم لإلحاق الضرر بهم والتخلص من شرهم كما هو معتاد ورز مكانهم مجموعة من الحيوانات المتوحشة " الذئاب " التي تأتي على الإنسان بعد انتهاء انسانيته وتدميرها تنهش وتأكل حطامه الجسدي وبمثل هذا التحليل نستطيع أن نتبين طبيعية التعليل في قول أبي الطيب المتنبي :

لم تحك نائلك السحاب وانما ... حمت به فصبيبها الرحضاء (١)

لأن هذا التعليل يسير في مكان طبيعي ، يتحرك فيه ضمن حركة الأشياء داخل هذا الوجود الشعري الذي أقامه الشاعر لممدوحه ، والذي تنمو فيه الأشياء نموا عضويا . ففي هذه القصيدة (٢) يقول أبو الطيب :

بيني وبين أبي علي مثله ... شم الجبال ، ومثلهن رجاء

وعقاب لبنان ، وكيف بقطعها ... وهو الشتاء وصيفهن شتاء

لبس الثلوج بها عليّ مسالكي ... فكأنها ببياضها سوداء

وكذا الكريم اذا أقام ببلدة ... سال النضار بها وقام الماء (٣)

جمد القطار ولو رأته كما ترى ... بهتت فلم تنبجس الأنواء (٤)

وهو كما ترى يقيم مسافة بينه وبين الممدوح في العلو والوقار كالمسافة التي بينها في المكان ، ثم ينساق في شرح مشقة الطريق اليه ، هذه المشقة التي لم تعد نتيجة لظروف طبيعية فحسب ، بل أصبح وجود الممدوح الشعري يلعب فيها دورا بارزا

---

(١) الرحضاء : عرق الحمى (التبيان في شرح الديوان : ١/ ٣٠)

(٢) التبيان في شرح الديوان ١/ ١٨ ، ١٩

(٣) النضار : الذهب (التبيان في شرح الديوان ١/ ١٩)

(٤) تنبجس : تتفتح (المصدر السابق : ١/ ١٩)

فهو الذى يجمّد الماء ويكوّن الثلوج ، وأصبح الممدوح في صراع مع الطبيعة ينافسها ويجول بعطائه دون عطائها فيجمّد ماءها ، ويسيل ذهبه ، ويمضي بنا النص حتى نجد أن الممدوح قد بلغ درجة أصبح فيها اسمه هارون غالبا في المنافسة في الحصول على الالتصاق بهذا الممدوح :

لم تسم يا هارون الا بعدما اقترعت ونازعت اسمك الأسماء
فغدوت واسمك فيك غير مشارك والناس فيما في يديك سواء (١)

ثم يبلغ وجوده الشعرى درجة يصبح فيها مركز العطاء الذى ينطلق فيملأ المدن ، ويتجاوز بها الثناء ، بل يتبرأ المجد من أن يزداد الممدوح فيه درجة بعد ذلك لأنه وصل الى الدرجة التي تنتهي عندها حدود المجد ، حيث برز وحده في الميدان ، فلا عطاء إلا عطاؤه ، ولا جود إلا جوده ، وبدا إعطاء الطبيعة معلولا فالماء قد تجمّد بل قد امتدت العلة الى وسيلة الإشادة بالممدوح وشكره ، فاصبح معلولا ، وأصبح الفكر منكويا ، وأصبح المجد في درجة يخاف معها أن يزيد الممدوح فيتبرأ منه لأنه قد أصبح فوق طاقته .

لعممت حتى المدنَ منك ملاءً ولغدت حتى ذا الثناء لغاء
فالفخر عن تقصيره بك ناكب والمجد من أن تستزاد براء (٢)

وبعد ذلك أخذ يبرزه في المقام المستغنى فيه عن كل شكر وثناء ، والمترفع عن كل ما يضيره كفني هذا شأنه ، وبعدا عنه كل ما يظن أنه يسلبه هذا الوجه الذى أقامه الشاعر له :

فاذا سئلت فلا لأنك محوج واذا كتمت وشت بك الآلاء
واذا مدحت فلا لتكسب رفعة للشاكرين على الإله ثناء (٣)

ثم يعود الى ما يظهر من عطاء الطبيعة الذى سبق أن أبرز لنا الصراع بين الممدوح وبينها وأقامه في درجة مرتفعة عنها ، ونفى أن يكون ذلك لحاجته إليه :

وإذا مطرت فلا لأنك مجدب يسقى الخصيب وتمطر الدأماء (٤)

ثم يعود في هذا البيت الذى نحن بصدده :

لم تحك نائلك السحاب وانما حمت به فصبيبها الرحضاء (٥)

ويظهر عطاء الطبيعة معلولا أمام عطاء الممدوح كما سبق أن رأينا تلك العلة

---

(١) المصدر السابق : ١/ ٢٨
(٢) المصدر السابق : ١/ ٢٩ وفيه : اللغاء : الحقير الخسيس ، وقيل : هو الذى دون الحق .
(٣) المصدر السابق : ١/ ٣٠ (٤) المصدر السابق : ١/ ٣٠
(٥) المصدر السابق : ١/ ٣٠

في الماء الذى قام أمام سيل نضاره ، وفي القطار الذى جمد ، وفي الأنواء الـــــتي بهتت فلم تتفتح ، وهنا لم تكن السحب مقلدة لعطائه بل كانت معلولة منها وكانـــت تلك العلة هي داعيها الى أن تمطر ، ولذلك كان هذا التعليل طبيعيا ضمن حركـة النص الذى أقام للممدوح وجودا يتعالى فيه على ما حوله .

٣ ـ تجاهل العارف

ومن الأساليب التي قالوا فيها بالمبالغة على مفهوم صحيح لها ، لا يخرج بها عن الحد ، ولا يزيد عن الأصل . بل فسروا مجيئها فيها ببلوغ الغاية في غرض المتكلم ومقصوده ، هذا الأسلوب الذى سماه ابن المعتز بـ (تجاهل العارف) ومثل له بقول زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى ... أقوم آل حصنٍ أم نساء

وقول ابن أبي أمية :

فديتك لم تشبع ولم ترو من هجرى ... أتستحسن الهجران أكثر من شهر

أراني سأسلوعك إن دام ما ترى ... بلا ثقة لكن أظن ولا أدرى (١)

وسماه أبو هلال بـ (تجاهل العارف ومزج الشك باليقين) وعرفه بقوله : " هو اخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيدا " (٢)

وسماه ابن رشيق بالتشكك ، وأشار الى أن فائدته هي (الدلالة على قرب الشبه حتى لا يفرق بينهما ، ولا يميز أحدهما من الآخر) ومثل له بقول زهير السابق ، وبقول ذى الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل ... وبين النقا أأنت أم أم سالم

وبقول القائل الذى نسبه للعرجي (٣) :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ... ليلاى منكن أم ليلى من البشر (٤)

وسماه السكاكي بـ (سوق المعلوم مساق غيره) ولم يحب تسميته بالتجاهل (٥)

وأشار الخطيب الى تسميته بالتجاهل ، وتسمية السكاكي له ، وذكر عددا من أغراضه التي تفيد المبالغة فيما يقصد اليه المتكلم فذكر منها :

المبالغة في المدح كما في قول البحترى :

ألمع برق سرى أم ضوء مصباح ... أم ابتسامتها بالمنظر الضاحي

أو في الحب كما في قول الحسين بن عبد الله الغريبي

---

(١) البديع : ٦٢ ، ٦٣ . (٢) الصناعتين : ٤١٢

(٣) قال محقق العمدة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد : (اضطرب العلماء في نسبة هذا البيت ، فزعم قوم أنه لمجنون ليلى وكأنهم اغتروا بذكر ليلى فيه ، وقد بحثت جميع ديوانه فلم أجده ، وقد نسبه العيني كالمؤلف الى العرجي ، ونسبه العباس لأعرابي لم يسمه ، ونسبه الباخرزى لبدوى سماه كاهلا الثقفي ونسبه قوم للحسين بن عبد الله : حاشية العمدة ٢ / ٦١ .

(٤) العمدة : ٢ / ٦٦ (٥) مفتاح العلوم : ١٨٠

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر

وقول ذى الرمه السابق (١)

ومقصود هذا الأسلوب في الشعر هو الإفصاح عن الاختلاط بين الأمرين في الرؤيه الشعرية ، وإذا كان كل من التشبيه والاستعارة كما سبق أن رأينا يقوم على تزاوج وتفاعل في الوجود الشعرى بين كل من طرفيهما بحيث يصبح كل من الطرفين في وضع إمكاني يتفاعل فيه مع الطرف الآخر ، وذلك نظرا لما في الكلمة من طاقة تستطيع أن تحرك بها في السياق وفقا للرؤية الشعرية للأشياء ... إذا كان الأمر كذلك فيهما ، فإن في هذا الأسلوب مظهرا لهذا الامكان الذى تظهر فيه الأشياء بعد أن دخلت في حيز اللغة الشعرية غير مستقرة في واقعها الخارجي ، فينقل لنا الشعر هذه الرؤية ، ويشركنا عن طريق أسلوب التشكك هذا في تأملها . ونظرا لكون هذا الأسلوب يظهر لنا ذلك الإمكان قبل وقوعه في التشبيه أو الاستعارة لذلك كان له من القبول ما ليس للغلو والإغراق ، يقول ابن رشيق : (وهو من ملح الشعر ، وطرف الكلام . وله في النفس حلاوة وحسن موقع بخلاف ما للغلو والاغراق) (٢) .

وأما قوله تعالى (قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) فهو ليس من هذا الأسلوب كما قال بذلك الخطيب (٣) ، وإنما جاء الأسلوب فيه وفق مقتضيات الحجاج والجدل يقول الزمخشرى في ذلك (وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك ، وفي درجة بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ، ومن هو في الضلال المبين ، ولكن التعريض والتورية أفضى بالمجادل الى الغرض وأهم به على الغلبة ، مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينى ونحوه قول الرجل لصاحبه علم الله الصادق منى ومنك ، وان أحدنا لكاذب ومنه بيت حسان :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء (٤)

---

(١) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٤/٤٠٤ ، ٤٠٥

(٢) العمدة : ٢/٦٦

(٣) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٤/٤٠٥

(٤) الكشاف : ٣/٤٥٩

٤ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم

وهذا الأسلوب من الأساليب التي تظهر فيها المبالغة في بلوغ الغاية والنهاية فيما يقصد اليه القائل به ، وقد سماه بعضهم بهذه التسمية كابن المعتز (١) والسكاكي (٢) ، وشراح التلخيص (٣) ، وبعضهم سماه بـ (الاستثناء) كأبي هلال (٤) ، وابن رشيق الذي قال (وليس هذا الاستثناء على ما رتبه النحويون فتطلبه بحروف الاستثناء المعروفة ، وانما سمي اصطلاحا وتقريبا ، سماه هؤلاء المحدثون نحو الحاتمي وأصحابه ولم يسم حقيقة ...) (٥) ومن أمثلته المشهورة قول النابغة (٦) :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وقول النابغة الجعدي (٧) :

فتى كملت أخلاقه غير أنه ... جواد فما يبقى على المال باقيا

فتى كان فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا

وقد جعل بعضهم منه قوله صلى الله عليه وسلم (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش) (٨) .

والذي أقوله هنا هو هل القول بتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وأن ذلك جاء للمبالغة في المدح يفسر هذا الأسلوب ؟

---

(١) البديع : ٦٢ (٢) مفتاح العلوم : ١٨٠

(٣) شروح التلخيص : ٤/٣٨٦ (٤)

(٥) العمدة : ٢/٤٨

(٦) مثل به لذلك في البديع : ٦٢ ، والصناعتين : ٤٢٤ ، والعمدة : ٢٤٨ وشروح التلخيص : ٤/٣٨٧ .

(٧) مثل بالبيت الأول منها في البديع : ٦٢ ، وشروح التلخيص : ٤/٣٩٣ ، وكليهما في الصناعتين : ٤٢٤ ، والعمدة : ٢/٤٨

(٨) شروح التلخيص : ٤/٣٩٠ ، ٣٩١

قال الدكتور علي العماري : " وقد اشتهر بين الناس حديث منسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم هو (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد بن بكر) كثيرا ما يستشهد به المؤلفون وبخاصة المحدثين منهم ، ولكن المحققين من العلماء يؤكدون أنه حديث موضوع .

قال الشهاب الخفاجي في شرحه لكتاب (الشفا) للقاضي عياض (إن الحفاظ اجمعوا على أنه حديث موضوع) والرواية في (الشفا) : (أنا فصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش) .

قلت : ومع أنه حديث موضوع معناه صحيح " (بلاغة الرسول : ٨) .

أظن أن ذلك ليس إلا وصفا للأسلوب ، ويبقى بعد ذلك في النفس تساؤلا وهو لماذا استثنى من صفة المدح هذه ما يشبه الذم ؟

وإذا كان لكل سياق حركته المستقلة ، التي يوجدها الأسلوب بطريقة تركيبه فيه ، فإن هذا التفسير خاضع بطبيعة الحال لتلك الحركة النابعة من سياق الكلام فمثلا في قول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

نجد أن التطهر من كل عيب ، لم يصل اليه هؤلاء إلا بالجهاد والمعاناة ورمز ذلك هو " سيوفهم " التي لم تسلم من العيب ، وفي ذلك شرفها وشرفهم ، لأن ذلك يدل على مجاهدتهم ، وبذلهم كل غال وكل وسيلة ممكنة في الوصول إلى هذه المرحلة الخالية من كل عيب ، التي يستهينون في سبيل الوصول إليها بكل ما خسروه من نفوس ، وما بذلوه من أموال للجهاد في سبيلها ، ولقد كان " فلول السيوف " التي كان العرب يحرصون على صيانتها رمزا لهذا الجهاد وهذه المعاناة ، ولقد كان في ذلك تحقيق لمعادلة صعبة ، فالطهر لا تصل إليه الا بالتطهر وفي التطهر مغالبة ومجاهدة ، حرص الشاعر على رصد حركتها ، وتسجيلها لتبرز الطهر القائم على التطهر والتطهير .

وأما قول النابغة الجعدى :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

فتى كان فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا

فلقد حمل البيت الأول لفتاه صفة هي أقصى غاية في الشرف والفضل فهو " فتى كملت أخلاقه " وإذا كان كمال الأخلاق غاية شريفة ، فإن نيل هذه المرتبة لا يتصور الوصول إليه ، دون جهد ومعاناة ، ومن هنا كان المستثنى " غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا) رمزا لهذه المعاناة ، وهذا الجهد ، إنها التضحية بما جبلت النفس على حبه ، وعلى الاستكثار منه ، حتى ولو وصل ذلك الى درجة العيب وهي درجة الإسراف والتبذير . ولقد حملت العربية الينا هذا العيب الذى يؤول اليه الكرم ، فقال ابن منظور في اللسان (وتخرق الكرم اتسع ، والخِرق بالكسر الكريم المتخرق في الكرم ، وقيل هو الفتى الكريم الخليقة . . . ويقال هو يتخرّق في السخاء اذا توسع فيه ، وأنشد ابن برى للأبيرد اليربوعي :

فتىً إن هو استغنى تخرّق في الغنى وإن عض دهر لم يضع متنه الفقرُ (١)

---

(١) لسان العرب : خرق

فقد اتخذ الاتساع في الكرم دلالة عليه من هذه المادة التي تحمل في معانيها الحق وعدم إحسان الرجل العمل والتصرف في الأمور حيث قيل أن الأخرق هو (الأحمق أو من لا يحسن الصنعة)[١] .. ولذلك جاء القرآن الكريم مادحا وموجها إلى ضبط النفس في التوسط بين هذين الأمرين ، والشح والسفه فقال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)[٢] . وقال سبحانه ذاكرا صفة عباد الرحمن في ذلك (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)[٣] .

وتضحية هذا الفتي بالمال ، ليبلوغ كمال الخلق يصاحبه التضحية بالنفس ، ومقارعة الأعداء ، ومقاومتهم وتعقبهم حتى بلغت تلك التضحية سرور الأعداء وإساءة الأصدقاء ، فهو فتى فيه الصفتان المتناقضتان ، والتي اتخذ من احداهما وسيلة لبلوغ الغاية في الأخرى ، فلم يبلغ سرور أصدقائه ، إلا باساءة أعدائه ، ولذلك كان فتى فيه الشرف والعيب ، ولكنه العيب الذي يقاوم العيب فيزيله عن طريقه إلى الشرف والفضل .

---

(١) لسان العرب : خرق

(٢) سورة الاسراء : ٢٩

(٣) سورة الفرقان : ٦٧

الباب الثالث

مكانة المبالغة في البلاغة العربية

الفصـــل الأول :

شـــيوع التعليـل بالمبالغـة وأســـبابه

الفصـــل الثاني :

المبالغـة بـين القبـــول والرفـــــض

الفصـــــل الأول
شـيوع التعليـل بالمبالغـة وأسـبابه

لقد شاع التعليل بالمبالغة في تراثنا النقدى والبلاغي شيوعا ضم الكثير من الصور البيانية من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية ، والكثير من تنوع الأساليب من تقديم وأمر ، ونهي ، ونداء واستثناء ، والكثير من صور التوكيد وشمل كثيرا من أبواب البديع كما ذكرفيما سبق — وكانت هذه الكثرة التي تضمها المبالغة شاهدا من شواهد قبولها حيث يقول ابن رشيق (ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة الى كثير من محاسن الكلام ...) (١) .

وسنحاول في هذا الباب الوقوف عند الأسباب والعوامل التي أدت الى شيوع هذا التفسير الذى حجب وراءه الكثير من قيم الكلام ، وكفى النقاد مؤونة البحث عن قيمها داخل العمل الأدبي ، وعلاقتها بقائلها الذى لا يمكن أن نفصله عن قوله ، وان نـزوى إبداعه وتفرده ، ونميزه في قوانين كليّة يسير بها النقد العمل الأدبي .

١ — فكـرة صياغـة المعــنى :

وهذه الفكرة تفترض للمعنى وجودا سابقا على التلفظ به ، أى أن المعاني توجد أولا ثم تصاغ في الألفاظ ، أو تأتي الألفاظ لصياغتها ، وتظهر هذه الفكرة بوضوح عند الجاحظ الذى قال (والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والقروى والبدوى ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع ، وكثرة الماء وجودة السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير) (٢) .

ولقد ظلت أصداء هذه الفكرة تردد في البلاغة والنقد العربيين من بعده . وقامت على هذا الافتراض أفكار أخرى فيهما كتخير اللفظ الشريف للمعنى الشريف ، أو ما يسمى المواءمة بين الألفاظ والمعاني ، وقام عليها أيضا تعريف علم البيان بأنه أداء المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة ، ومسألة الإيجاز والإطناب والمساواة ، وحتى الامام عبد القاهر الذى حاول بعض الباحثين أن يرى في كلامه ضدا لهذه الفكرة وقضاء على ثنائية اللفظ والمعنى في النقد العربي — كان يسير في الطريق نفسه ، مضيفا أهمية ترتيب الكلام على ضوء البلاغة النحوية بين أجزائه في إحداث خصوصية

---

(١) العمدة : ٢/٥٥ (٢) الحيوان : ٣/١٣١

في دلالة الصياغة بين ترتيب ، وترتيب وليست نظرية النظم عنده (إلا أن — تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ..(١)) فهذا هو السبيل (فلست بواجد شيئا يرجع صوابه ان كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه في حقه)(٢) . فلا زال الترتيب ترتيبا لمعان سابقة على التلفظ بها ويوضح ذلك قوله (فاذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس ، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق ، أوان تحتاج بعد ترتيب المعاني الى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها فباطل من الظن ووهم يتخيّل إلى من لا يوفي النظر حقه ، وكيف تكون مفكرا في نظم الألفاظ وأنت لا تعقل لها أوصافا وأحوالا الا اذا عرفت أن حقها أن تنظم على وجه كذا)(٣) ويؤكد قوله هذا بقوله (واعلم أن من سبيلك أن تعتد هذا الفصل حدا ، وتجعل النكت التي ذكرتها فيه على ذكر منك أبدا ... ولا سيما ما ذكرت من أنه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما ، وانك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك ، فاذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ، وانك اذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج الى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها ، وان العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق)(٤) وهنا يتبين وهم الدكتور محمد زكي العشماوى الذى استنتج من هذا انتهاء عبد القاهر (الى أنه لا انفصال بين عنصرى اللفظ والمعنى في عملية الخلق الأدبي فهما يولدان معا في نفس اللحظة ، وكذلك لا انفصال بينهما في عملية النقد الأدبي ...)(٥) ووهم من ردد قوله هذا(٦) متناسين قول عبد القاهر الصريح في ذلك (فان

---

(١) دلائل الاعجاز : ٦٤ (٢) المصدر السابق : ٦٥
(٣) دلايل الاعجاز : ٤٣ (٤) المصدر السابق : ٤٤
(٥) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث : ٣١٨
(٦) النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني : ١٢ ، التصوير البياني : ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له ، والواجب أن ينظر الى حال المعاني معه لا مع السامع ، وإذا نظرنا علمنا ضرورة أنه محال أن يكون الترتيب فيها لترتب الألفاظ ومكتسبا عنه ، لأن ذلك يقتضي أن تكون الألفاظ سابقة للمعاني وأن تقع في نفس الانسان أولا ثم تقع المعاني من بعدها وتالية لها بالعكس مما يعلمه كل عاقل إذا هو لم يؤخذ عن نفسه ، ولم يضرب حجاب بينه وبين عقله ، وليت شعري هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني ؟ وهل هي إلا خدم لها ؟ ومصرفة على حكمها ؟ أو ليست هي سمات لها ، وأوضاعا قد وضعت لتدل عليها ؟ فكيف يتصور أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس ؟ إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء وقبل أن كانت ، وما أدري ما أقول في شيء يجر الذاهبين اليه أشباه هذا من فنون المحال وردئ الأحوال)(١) وقوله الآخر الذي جاء وكأنه توضيح لقول الجاحظ السابق الذي جعل الشأن فيه لصياغة المعنى وتصويره إذ يقول عما ينبغي أن يعلم من شأن المعاني :

(.. أن يعلم أن سبيل المعاني سبيل اشكال الحلي كالخاتم والشنف والسوار فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غفلا ساذجا لم يعمل صانعه فيه شيئا اكثر من أن يأتي بما يقع عليه اسم الخاتم ... وأن يكون مصنوعا بديعا قد أغرب صانعه فيه ، كذلك سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غفلا ساذجا عاميا موجودا في كلام الناس كلهم ثم تراه نفسه وقد عمد اليه البصير بشأن البلاغة واحداث الصور في المعاني فيصنع فيه ما يصنع الحاذق حتى يغرب في الصيغة ويدق في العمل ... وشواهد ذلك حاضرة لك كيف شئت .... تنظر إلى قول الناس . الطبع لا يتغير ولست تستطيع أن تخرج الإنسان عما جبل عليه فترى معنى غفلا عاميا معروفا في كل جيل وأمة ، ثم تنظر اليه في قول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل)(٢)

(فالمعنى الغفل الساذج هنا ، هو المعنى المطروح هناك ، وكلاهما يمثل المعنى عاريا قبل أن يصير بناء لغويا)(٣) .

وفكرة المعنى السابق المقابل للتشكيل الفني كما يرى الدكتور عبد الفتاح عثمان مستمدة من تصور الشعر صناعة قولية لا بد فيها من وجود المادة والصورة

---

(١) دلائل الاعجاز : ٣٢٠ (٢) المصدر السابق : ٣٢٤
(٣) نظرية الشعر في النقد العربي القديم : ١٤٦

معا ، بل انها مستمدة من طبيعة التفكير في القرون الوسطى ، والذى يرى الكون مكونا من المادة والصورة ، وان الشعر صنعه كيفية الصناعات الأخرى (١) وإذا كنا نجد جذور فكرة التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة عند عبد القاهر حيث يقول (واذ قد عرفت ذلك فان العقلاء الى هذا قصدوا حين قالوا انه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين ثم يكون أحدهما فصيحا والآخر غير فصيح : كأنهم قالوا انه يصح أن تكون ها هنا عبارتان أصل المعنى فيهما واحد ثم يكون لاحداهما في تحسين ذلك المعنى وتزيينه واحداث الخصوصية فيه تأثير لا يكون للأخرى) فكيف نجد عنده قضاء على ثنائية اللفظ والمعنى ، أو القول بعدم أسبقية المعنى كما توهم هؤلاء الباحثون . والآن ما هو دور هذه الفكرة في القول بالمبالغة ؟ !

ان هذه الفكرة التي تفترض للمعنى وجودا سابقا على اخراجه افترضت أيضا أن هناك حدا وسطا للمعنى فما زاد عن هذا الحد سمي إفراطا أو مبالغة وما ساواه سمي صدقا واقتصادا ، وما قصر عنه سمي تفريطا ، ويتضح ذلك في كثير من أحكام النقد العربي فمن ذلك حكم الجاحظ بالاسراف والافراط على بعض الأبيات والحكم بالاقتصاد والصدق على البعض الآخر حيث يقول : (واذ قد ذكرنا شيئا من الشعر في صفة الضرب والطعن فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من اسراف من أسرف ، فأما من أفرط فقول مهلهل : (٢)

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

ومما أدخله تحت هذا الحكم قول أبي قيس بن الأسلت :

قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوما غير تهجاع

وقول عنترة :

رعينا هم والخيل تردى بالقنا ويكل أبيض صارم وصال

وأنا المنية في المواطن كلها والطعن من سابق الآجال (٣)

ثم أورد بعد ذلك أشعار المقتصدين ويصفها بالصدق فيقول (ومن أشعار المقتصدين في الشعر أنشدني قطرب :

تركت الركاب لأربابها فأجهدت نفسي على ابن الصعق

جعلت يدى وشاحا له وبعض الفوارس لا يعتنق

ومن صدق على نفسه عمرو بن الاطنابه حيث يقول :

---

(١) المرجع السابق : ١٤٦ ، ١٤٧ (٢) الحيوان : ٦/٤١٨

(٣) المصدر السابق : ٦/٤١٩ ، ٤٢٠

واقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي (١)

وأورد من ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

ولما رأيت الخيل زورا كأنها ... جداول زرع أرسلت فاسبطرّت
فجاشت عليّ النفس أول مرة ... فردت على مكروهها فاستقرت (٢)

ويظهر هذا الافتراض بوضوح عند قدامة بن جعفر الذي يقول (... اني رأيت الناس مختلفين في مذهبين من مذاهب الشعر وهما : الغلو في المعنى اذا شرع فيه ، والاقتصار على الحد الأوسط) (٣) ويوضح ابن الأثير معاني هذه الحدود (الإفراط ـ الاقتصاد ، التفريط) على ضوء هذا الافتراض في علم البيان فيقول (أما الاقتصاد فهو : أن يكون المعنى المضمر في العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه في منزلته ، وأما التفريط والافراط فهما ضدان : أحدهما : أن يكون المعنى المضمر في العبارة دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه ، والآخر أن يكون المعنى فوق منزلته) (٤) .

وسهل هذا الافتراض تحديد الألفاظ الدالة على حدود المعنى ، وكان الحكم بالتفريط أو الاعتدال أو الافراط نتيجة للمقارنة بين الألفاظ والمعنى مع أن المقارنة بينهما تعسفية ومحض تحكم لا وجه له لأن الألفاظ خاصة في الأعمال الأدبية هي التي توجد المعنى وليست مجرد أدوات للتعبير عنه ، والمعنى الحقيقي هو ما نجم عن الألفاظ بكامل حروفها فضلا عن كلماتها (تعقل المعاني قلما ينفك عن تخيل الألفاظ ، وكأن المفكر في المعاني يناجي نفسه بألفاظ مخيّلة ، ولو أراد تجريدها عنه أشكل عليه الأمر) (٥)

ولقد كانت كثير من الأحكام بالمبالغة ناتجة عن تلك النظرة التي بينا خطلها . ويوضح هذا تعريف قدامة بن جعفر للمبالغة حيث يقول (وهي أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأ ذلك في الغرض الذى قصد) (٦) فكأن المعنى معروف لدى الشاعر مسبقا ثم يعبر عنه بالألفاظ التي تدل عليه ثم يزيد عليه ليكون أبلغ وأوفى في غرضه ، ومن هذا المنطلق كان " ونتبعه الكرامة حيث سارا " في قول عمير بن الأيهم التغلبي (٧) ..

ونكرم جارنا ما دام فينا ... ونتبعه الكرامة حيث سارا

---

(١) المصدر السابق : ٦/ ٤٢٥ (٢) المصدر السابق : ٦/ ٤٢٥
(٣) نقد الشعر : ٩١ (٤) المثل السائر : ٣١٦
(٥) انظر التركيب اللغوى للأدب : ٤٦ (٦) نقد الشعر : ١٤٦
(٧) بعض المصادر تذكره باسم عمير كنقد الشعر والصناعتين وبعضها تذكره باسم عمرو كالموشح والعمدة .

زيادة على المعنى . وقول الحكم الخضرى " وهو غرثان أعجف " في قوله

وأقبح من قرد وأبخل بالقـرى   من الكلب أسبى وهو غرثان أعجـف

زيادة ، إذ أنه كان يجرى في الذم كما يقول قدامة بن جعفر " أن يكون هذا المهجو أبخل من الكلب ، ومن المبالغة في هجائه وهو غرثان أعجف) (١) وكذلك القول في بقية الأبيات التي أوردها قدامة بن جعفر تحت هذا الباب . والتي نقلها عنه أبو هلال العسكرى وأضاف اليها ما رآه يجرى على هـــذا المقياس من القرآن الكريم والنثر الفني فتراه يحكم من هذا المنطلق على مرضعه في قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وتـرى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد) (٢) حيث يقول (ولــو قال تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بيانا حسنا وبلاغة كاملة ، وإنما خـص المرضعة للمبالغة ، لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفتها بحاجته اليهـا وأشفف به لقربه منها ولزومه لها لا يفارقها ليلا ولا نهارا . وعلى حســب تكون المحبة والالف) (٣) والمبالغة ليست سيئة إذا أخذت في التراكيب كما هي في المفردات على أساس انها شيء أصيل في المعنى لا يتم الا بــه ولكنها سيئة إذا أخذت على أساس انها إضافة تأتي بعد تمام المعنى كمــا رأينا عند قدامة بن جعفر وأبي هلال في بعض تفسيراته لها أو أن المعنى يتم بدونها كما هو موقف أبي هلال من هذه الآية . ذلك لأن هذا التعليــــل بالمبالغة عنده يدل عليّ أن المعنى يتم بدونها كما صرح هو وأن فائدة ذكر المرضعة تكاد تنحصر في تقرير المعنى وتوكيده مع أن لفظ المرضعة بكامـــل حروفه بما في ذلك حرف التاء الذى بين المفسرون دلالته والذى يدل علـــى أنها (تدهش عنه في حال إرضاعها له ولهذا قال : كل مرضعة ولم يقل كل مرضع) (٤) يظهر للمتأمل خلال السياق القرآني للكلام بعدا آخر يختلف عـــن هذا البعد إذ يبرز لنا الانقطاع عن الحياة الدنيا في هذا اليوم بقطـــع أسبابها فورا فالحامل تضع حملها والمرضع تدهش عن رضيعها الذى ترضعـــه ذلك لأن الأمر أصبح أمر حياة أخرى لا عدة فيها للإنسان الا عمله ولا مجال فيها لأى بناء أو رابطة دنيوية (يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيـــه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) (٥) .

---

(١) المصدر السابق : ١٤٦   (٢) سورة الحج : ١ ، ٢

(٣) الصناعتين : ٣٧٨   (٤) تفسير ابن كثير : ٢٠٥/٣

(٥) سورة عبس : آية ٢٣ — ٢٧

وفكرة وجود المعنى قبل إخراجه ، وأن اللفظ يأتي لصياغته وإخراجه هي التي جعلت النظر الى المجاز والاستعارة والكناية على أنها وسائل لتوكيد المعنى ، وتقريره ، والمبالغة فيه أو شرحه وتوضيحه يقول ابن جنى « وانما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي : الاتساع ، والتوكيد والتشبيه ، فان عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة »(١) ويفسر التوكيد عند ابن جني بالمبالغة فيقول (ولا شك أنه أراد به المبالغة والمغالاة في ابراز المعنى الموهوم الى الصورة المشاهدة فعبر عن ذلك بالتوكيد ولا مشاحة له في تعبيره ، وإذا أراد به ذلك فهو والتشبيه سواء على ما ذكره ، ولا حاجة الى ذكر التوكيد مع التشبيه)(٢) ودلالة التوكيد على المبالغة عند ابن جنى أمر أشرنا اليه سابقا ونقلنا من أقواله ما يدل عليه هناك .

وعلى هذا كانت الاستعارة في البلاغة العربية وسيلة إضافية تأتي لبيان المعنى أو توضيحه أو توكيده والمبالغة به ، والمعنى الذى تخرجه الاستعارة هو المعنى الأصلي (الحقيقة) وهو كما افترضوه معنى حرفي يشبه اللغة العلمية تماما ، وكانت الميزة التي تتميز بها الاستعارة هي ما يظهر من فرق بين المعنى الأصلي المفترض وبين المعنى بعد أن دخلته الاستعارة وما أحدثته من خصوصية فيه وبيان ذلك أنك تجد الرماني مثلا يعرف الاستعارة بقوله (الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة)(٣) ويعرفها أبو هلال العسكرى بقوله (الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة الى غيره لغرض ، ذلك الغرض اما أن يكون شرح المعنى ، وفضل الإبانة عنه ، أو توكيده والمبالغة فيه أو بالإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذى يبرز فيه)(٤) .

ويقول الرماني (وكل استعارة فلا بد لها من حقيقة وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة كقول امرئ القيس في صفة الفرس (قيد الأوابد) والحقيقة " مانع الأوابد " وكقولك " ميزان القياس " وحقيقته " تعديل القياس "(٥) .

ويذهب أبو هلال المذهب نفسه فيقول (ولا بد لكل استعارة ومجاز من حقيقة وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة كقول امرئ القيس :

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

---

(١) المثل السائر : ١/٣٦٤ (٢) المصدر السابق : ١/٣٦٧
(٣) النكت في اعجاز القرآن : ٨٥ (٤) الصناعتين : ٢٧٤
(٥) النكت : ٨٦

والحقيقة مانع الأوابد من الذهاب والإفلات ، والاستعارة أبلغ لأن القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرف لأنك تشاهد ما في القيد من المنع ، فلست تشك فيه ، كذلك قولهم : هذا ميزان القياس حقيقته تعديل القياس) (١) .

وكان التبرير بالمبالغة أمرا غالبا على الاستعارة نلحظه في بعض الآيات التي وقف عندها كل من الرماني والعسكري مبينين دور الاستعارة في المبالغة فمن ذلك قول الرماني في قوله تعالى (انا لما طغا الماء حملناكم في الجارية) (٢) حيث يقول الرماني (حقيقته علا والاستعارة أبلغ ، لأن طغى علا قاهرا ، وهو مبالغة في عظم الحال) (٣) وقوله في قوله تعالى (سنفرغ لكم أيها الثقلان) (٤) (والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن هذا أبلغ في الوعيد وحقيقته سنعمد إلا أنه لما كان الذى يعمد إلى شيء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب بما يجرى به التعارف ، دلنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ، ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكمة) (٥) . ويقول العسكرى في قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيدا) (٦) : (وحقيقته ذر بأسي وعذابي الا أن الأول أبلغ في التهدد كما تقول اذا أردت المبالغة والإبعاد : ذرني وإياه ، ولو قال : ذر ضربي له وإنكارى عليه لم يسد ذلك المسد ولعله لم يكن حسنا مقبولا) (٧) ويقول في قوله عز اسمه (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) (٨) (وفضل الاستعارة على الحقيقة في هذا أن حال العقيم في هذا أظهر قبحا من حال الريح التي لا تأتي بمطر ، لأن العقيم كانت عند العرب أكره وأشنع من ريح لا تأتي بمطر لأن العادة في أكثر الرياح ألا تاتي بمطر ، وليست العادة في النساء أن يكون أكثرهن عقيما) (٩) وكذلك كانت الاستعارة عند عبد القاهر تفيد التشبيه لغرض المبالغة كما أفضنا في ذلك سابقا .

ومبررات وجود الاستعارة التي تظهر في (الفارق بين الاستعارة ومقابلها الحرفي أو الحقيقي فارق في الدرجة ليس غير . إذ تؤدى الاستعارة نفس المعنى الذى تؤديه العبارة الحرفية وليس ثمة فارق إلا في طريقة التقديم أو أوجه الدلالة . وتلك أمور عرضية لا تغير من جوهر المعنى المقدم في العبارة

---

(١) الصناعتين : ٢٧٦ ، ٢٧٧ (٢) سورة الحاقة : ١١
(٣) النكت في اعجاز القرآن : ٨٧ (٤) سورة الرحمن : ٣١
(٥) النكت في اعجاز القرآن : ٨٨ (٦) سورة المدثر : ١١
(٧) الصناعتين : ٢٧٨ (٨) سورة الذاريات : ٤١
(٩) الصناعتين : ٢٧٩

الحرفيه ... وعلى ذلك تصبح الاستعارة نوعا من الترجمة الجيدة أو العرض الحسن دون أن يكون لها فاعليتها الخاصة في خلق المعنى وإيجاده والتعبير عما لا يمكن أن يعبر عنه دونها)[١] مع أننا في الحقيقة (لسنا ازاء معنى حقيقي ومعنى مجازى هو ترجمة للأول ـ بل نحن ... ازاء معنى جديد نابع من تفاعل السياقات القديمة لكل طرف من طرفي الاستعارة داخل السياق الجديد الذى وضعت فيه ، وبهذا الفهم لا تصبح الاستعارة من قبيل النقل أو التعليق أو الادعاء وانما تصبح ـ لو أخذنا أبسط أشكالها فيما يقول ريتشاردز ـ " عبارة عن فكرتين لشيئين مختلفين تعملان معا خلال كلمة أو عبارة واحدة تدعم كلتا الفكرتين ، ويكون معناها أى الاستعارة ـ محصلة لتفاعلهما ")[٢] .

والنظر الى الاستعارة بهذا الفهم يعطي النصوص مقاصدها الحقيقية ويبقى على صورتها المنطلقة إلى غايات أوسع وأرحب من زيادة ومبالغة في أصل افترض تقيد به النصوص وتؤول اليه [illegible] (واعلم أن الألفاظ العربية وضعت أولا لمعان ثم بعد ذلك استعملت فيها فيكون لها وضع متقدم على الاستعمال . وهذا إنما يصح على قول من يجعل اللغات اصطلاحية فيدعى أن قوما من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على أن يسموا هذا بكذا وهذا بكذا ويجعل هذا عاما في جميع اللغات)[٣] ولكن (لا يمكن أحد أن ينقل عن العرب ، بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا هذه الأسماء الموجودة في اللغة ثم استعملوها بعد الوضع ، وإنما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عنوه بها من المعاني)[٤] وحتى من قال بالوضع عن طريق التوقيف فهو قول كما يقول ابن تيمية (غير معلوم وجوده بل الالهام كاف في النطق باللغات من غير مواضعة متقدمة ، وإذا سمي هذا توقيفا فليسم توقيفا ، وحينئذ فمن ادعى وضعا متقدما على استعمال جميع الأجناس فقد قال ما لا علم له به ، وإنما المعلوم بلا ريب هو الاستعمال)[٥] ولقد كان الانصراف عن هذا الى محاولة تقعيد لفهم اللغة استنادا الى الوضع ـ الذى لم يثبت ـ ورد كل خروج عن ذلك الوضع إليه . وإيجاد التبريرات للخروج عن ذلك الوضع الأصلي سببا في وجود بعض التبريرات بالمبالغة التي كانت مع

---

(١) الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدى : ٢٤٣ (٢) المرجع السابق ٢٧٢ ، ٢٧٣

(٣) الإيمان : ٨٦ (٤) المصدر السابق : ٨٧

(٥) المصدر السابق : ٩١ ، ٩٢

غيرها من التعبيرات حافظة للعلاقة بين ذلك المعنى الأصلي المفترض وبين المعنى الذى جاء به اللفظ فمن ذلك تفسيرهم اسناد الطغيان الى الماء في قوله تعالى (إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية)(١) بالمبالغة(٢) . مع أننا لو تأملنا الآية . وجعلنا ذلك الاستعمال الذى جعلوه المعنى الأصلي استعمالا يعيننا على فهم الآية دون أن يكون هو المحور للفهم لكان في ذلك شيء في فهمنا للآية لا تؤدي به تلك المبالغة . وبيان ذلك أن المتأمل للآية يجد طغيان الماء أمرا يحتمه السياق القرآني ، وعلاقة الإنسان بالكون ذلك الإنسان الذى أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كثير من آياته عن تسخير الكون له ، وأن لا قدرة له في هذه الحياة إلا اذا كان هذا الكون مسخرا له ، . . . ولكن في بعض الأحيان ينسى الانسان ضعفه نتيجة لهذا التسخير فيطغى ويتكبر ويتعالى عن أمر ربه . . . ويكون الجزاء كما قص علينا سبحانه وتعالى في كثير من آياته بالاطلاق قوة هذا الكون ضده ، وفكها من عقال التسخير لعذابه ، وفي هذه الآية التي تشير إلى غرق قوم نوح كان الماء طاغيا ، كما كانت الصيحة التي أهلكت ثمودا ومضى خبرها قبل هذه الآية طاغية . وطغيان الماء هنا أمر يعلو على التفسير بالمبالغة ، فالأمر أمر قوة أخرج الله طاقته المسخرة بأمره الى قوة عاتية ، لا نجاة فيها إلا لمن كتب الله له النجاة بحمله فوق تلك القوة الطاغية ، والماء أصبح في الآية بإذن الله مسيطرا على الإنسان يهلك من أمر به بإهلاكه وينجي البقية المؤمنة الصالحة التي امتن الله علينا سبحانه وتعالى بنجاتها التي كان فيها حياتنا . . . فكان الماء وسيلة الموت والحياة معا . . . وقوة الماء أمر لفت أنظارنا اليه القرآن كثيرا فهو عنصر الحياة (وجعلنا من الماء كل شيء حي)(٣) (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء)(٤) ووسيلة الطهارة (وأنزلنا من السماء ماء طهورا)(٥) (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به)(٦) وقوة من قوى العذاب (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر)(٧) (وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه)(٨)

---

(١) سورة الحاقة : ١١
(٢) النكت : ٨٧ وانظر الصناعتين ٢٧٧
(٣) الأنبياء : ٣٠
(٤) سورة الأنعام : ٩٩
(٥) سورة الفرقان : ٤٨
(٦) سورة الأنفال : ١١
(٧) سورة القمر : آية ١١ — ١٤
(٨) سورة الكهف : آية : ٢٩
(٩) سورة الحاقه : ١١

والآيات التي تحدثت عن تسخير البحر ومنافعه وأهواله متعـــــددة .

ولقد عبد الإنسان هذه القوة وتقرب اليها عندما نظر اليها مستقلة عـــــن موجودها سبحانه وتعالى عما يشركون .

٢ — تحكيم العقل والواقع الخارجي في الأداء اللغوي :

لقد كان هذا التحكيم منطلقا قويا من منطلقات القول بالمبالغة ، وهو يقوم على أمرين يتداخلان فيما بينهما تداخلا لا نستطيع معه أن نفصل بينهما ذلك لأن حكم العقل في الأداء اللغوي يستند إلى الواقع الخارجي الذى يحدده العقل ، إما بمشاهدة حسية ، أو حقيقة علمية أو عرفية أو استنتاج عقلي (ذهني) . ودعم هذا التحكيم مسلمة الوضع اللغوى التي تعتبر أن اللفظ له معنى محدد وضع له ويختص به ... ومن ثم كان اللفظ مجرد علامة أو سمة تدل على مدلولها دلالة آلية كدلالة الدخان على النار والسحاب على المطر يقول الإمام عبد القاهر (ومما يجب ضبطه في هذا الباب أن كل حكم يجب في العقل وجوبا حتى لا يجوز خلافه فإضافته إلى دلالة اللفظ ، وجعله شروطا فيها محال ، لأن اللغة تجرى مجرى العلامات والسمات ...)(١)

وكانت دراسة الجملة في العربية قائمة على فكرة الإسناد على نحو ما تشهد به المباحث النحوية ، وكان الأمر يقوم في النحو على ضبط الكلمة الاعرابي على أساس دورها الإسنادى في الجملة ، ولما نظرت المباحث البلاغية الى الجملة ركزت على هذا الجانب ولكن من زاوية أخرى وهي مدى إمكانية قيام المسند بما أسند اليه هل يجوز ذلك أو لا يجوز ، فإن كان ذلك جائزا بحكم العقل والواقع الخارجي كان الكلام حقيقة وإن كان غير جائز كان له في التجوز سببا وفي المبالغة منحى .. لأن فعل اللغة محدود بحدود المعنى الوضعي للفظ وبحدود الواقع الخارجي يقول عبد القاهر (لأن اللغة لم تأت لتحكم بحكم أو لتثبت وتنفي وتنقض وتبرم فالحكم بأن الضرب فعل لزيد أو ليس بفعل له وان العرض صفة له أو ليس بصفة له شيء إلى المتكلم ودعوى يدعيها ، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب أو اعتراف أو انكار وتصحيح أو افساد فهو اعتراض على المتكلم ، وليس اللغة في ذلل بسبيل منه في قليل ولا كثير وإذا كان كذلك فان كل وصف يستحقه هذا الحكم من صحة وفساد وحقيقة ومجاز واحتمال واستحالة ، فالمرجع فيه والوجه الى العقل المحض ، وليس للغة فيه حظ ، فلا تحلى ولا تمر والعربي فيه كالعجمي والعجمي كالتركي ، لأن قضايا العقول هن القواعد والأسس التي يبنى غيرها عليها والأصول التي يرد ما سواها إليها)(٢)

---

(١) أسرار البلاغة : ٢٤٨/٢ (٢) أسرار البلاغة : ٢٤٨/٢

وهذا الكلام يصح لو وجد كل متكلم اللغة قوالب جاهزة يستعملها وفق عقله وواقعه الخارجي ... ولكنا إذا رجعنا الى بداية اللغة لوجدنا أنها موهبة ربانية وهبها الله الإنسان يسيطر بها على الأشياء عن طريق التسمية ... وحاملة لأشواقه وآلامه ... وان التسمية ترتبط غالبا بموقفه الانفعالي من الأشياء رغبة أو رهبة ... وهو لا يملك في البداية الا الأسماء والمواقف الانفعالي من الأشياء .. فاذا كانت السماء تمطر بالمطر الذى يجلب الخير والبركة قال (جادت علينا السماء) تاركا الحكم بمدى صحة اسناد الجود إلى السماء .. وهل السماء عاقلة تفعل الجود الذى هو من صفات الإنسان أولا ، وهل ذلك حقيقة أو مجاز لمن يأتي بعده ممن يتعلمون اللغة ويحكمون العقل فيها يقول رتشاردز : (ولكنه ما من شك في أن اللغة كانت برمتها انفعالية في الأصل ، وفي أن استخدامها العلمي إنما هو تطور متأخر ، وأن معظم اللغة مازال انفعاليا ، ومع ذلك فقد أصبح هذا التطور المتأخر يبدو هو الاستخدام الطبيعي العادى ، ويرجع ذلك الى حد بعيد الى أمد أولئك الذين جعلوا من اللغة موضوع دراسة وتأمل كانوا وقت تأملهم هذا يستخدمون اللغة على نحو علمي)[1] وظهرت بدايات هذا الاستخدام العلمي للعربية في وقت مبكر في النحو ثم في بدايات التأليف البلاغي كما نلاحظ في كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى الذى سماه بـ (مجاز القرآن) والذى يرد فيه تعبيرات القرآن الذى جاء بلغة العرب ومشتملا على أحسن ضروب استعمالاتهم لها إلى ما يجب أن يكون عليه الأسلوب وفق الأسلوب العلمي الذى يعتمد العقل والواقع الخارجي .. ومن هنا كان المجاز الذى يشرحه ويقرره هو العلمية التي افترضها للأداء اللغوى وفق للمنطق الذهنى الذى يحدد للكلمة معناها ويحدد لكل أسلوب معناه وطريقته في مرحلة ثالثة للأداء اللغوى كما يتضح ذلك من قوله (ففي القرآن الكريم ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ومن المحتمل من مجاز ما اختصر ومجاز ما حذف ومجاز ما كفّ عن خبره ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين ، ومجاز ما جاء لفظ خبر الجميع على لفظ خبر الواحد ، ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا أشرك بينه وبين آخر مفرد ، ومجاز ما خبر عن اثنين أو عن أكثر ذلك فجعل خبر للواحد أو للجميع وكف عن خبر الآخر ... الخ)[2] .

---

(١) مبادى النقد الأدبي : ٣٤٦ (٢) مجاز القرآن : ١/١٨ ـ ١٩

فترى أن هنا مستويين للكلام ، أحدهما ما جاء في طريق القرآن التعبيري ، والآخر تحويل ذلك التعبير الى تعبير آخر يجري وفق المنطق العقلي المفترض للمعنى ، ويوضح ذلك الأمثلة التالية من كتاب أبي عبيدة :

١ ـ قوله في قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) (١) (مجازه مجاز خلق العجل من الإنسان ، وهو العجلة ، والعرب تفعل هذا ، إذا كان الشيء من سبب الشيء بدأوا بالسبب وفي آية أخرى " ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة " (٢) والعصبة هي التي تنوء بالمفاتيح (٣) .

٢ ـ قوله (ومن مجاز ما وقع المعنى على المفعول وحوّل الى الفاعل قال (كمثل الذي ينعق بما لا يسمع) (٤) ومعنى على الشاء المنعوق به وحول على الراعي الذي ينعق بالشاء) (٥) .

٣ ـ قوله (ومن مجاز المصدر الذي في موضع الاسم أو الصفة قال (ولكن البر من آمن بالله) (٦) خروج المعنى الى البار . وقال (إن السموات والأرض كانتا رتقا) (٧) الرتق مصدر وهو في موضع مرتوقتين) (٨) .

٤ ـ قوله (ومن مجاز ما جاء من لفظ الحيوان والموات على لفظ خبر الناس قال (رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) (٩، ١٠) .

٥ ـ قوله في قوله تعالى " قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم " (١١) (هذا من الحيوان الذي أخرج مخرج الآدميين والعرب تفعل ذلك) (١٢) .

شربت إذا ما الديك يدعو صباحه   إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا (١٣)

٦ ـ قوله في قوله تعالى " وأرسلنا السماء عليهم مدرارا " (١٣) (مجاز السماء هاهنا مجاز المطر : يقال : ما زلنا في سماء أي في مطر ومازلنا نطأ السماء أي أثر المطر) (١٤) .

وظلت هذه الروح تنمو بعده وبلغت ذروتها عند ابن جني الذي يقول (أعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة . وذلك عامة الأفعال ، نحو قام زيد ، وقعد عمر ، وانطلق بشر ، وجاء الصيف ، وانهزم الشتاء ، ألا ترى أن الفعل يفاد منه معنى الجنسية فقولك : قام زيد معناه : كان منه القيام أي هذا الجنس من الفعل ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيام ، وكيف يكون ذلك وهو جنس والجنس يطبق جميع الماضي وجميع الحاضر ، وجميع الآتي الكائنات من كل

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٧ — (٢) سورة القصص : ٧٦
(٣) مجاز القرآن : ٢/٣٨ ، ٣٩ — (٤) سورة البقرة : ١٧١
(٥) مجاز القرآن : ١/١٢ — (٦) سورة البقرة : ١٧٧
(٧) سورة الأنبياء : ٣٠ — (٨) مجاز القرآن : ١/١٣
(٩) سورة يوسف : ٤ (١٠) مجاز القرآن : ١/١٠ (١١) سورة النمل : ١٨
(١٢) مجاز القرآن : ٢/٩٣ (١٣) سورة الأنعام : ٦ (١٤) مجاز القرآن : ١/١٨٦

من وجد منه القيام ، ومعلوم أنه لا يجتمع لإنسان واحد في وقت واحد ولا في مائة ألف سنة مضاعفة القيام كله الداخل تحت الوهم ، هذا مجال عند كل ذي لب ، فإذا كان كذلك علمت أن (قام زيد) مجاز لا حقيقة ، وإنما هو على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة وتشبيه القليل بالكثير (١)) فالمبالغة تجيء هنا مع التشبيه والاتساع مبررا لخروج الأداء اللغوى عن العلمية المفترضة له .

والإمام عبد القاهر الجرجاني يفترض هذه العلمية كغيره أصلا للأداء اللغوى . وأن للأداء اللغوى مستويين من الدلالة المستوى الأول : المعنى الأولى وهو المعنى النثرى المجرد أى المعنى العلمي للأداء اللغوى ، والمستوى الثاني : الصورة التي خرج عليها الكلام وهو المعنى الثاني . ولكنه يحترم هذا الأداء ويتذوقه على صورته الثانية التي ورد عليها في الكلام . . . ولكن ارتباطه بالمعنى الأصلي هو الذى يذهب هذا التذوق في غمار المبالغة والتوكيد والإثبات فهو يقول (فتعهد الفرق بين أن تقول : فلان يكد نفسه في قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئا ، وتسكت . وبين أن تتلو الآية ـ يقصد قوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا (٢))

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر (٣)

والفصل بين أن تقول : " أرى قوما لهم بهاء ومنظر ، وليس هناك مخبر ، بل في الأخلاق دقة ، وفي الكرم ضعف وقلة ، وتقطع الكلام ، وبين أن تتبعه نحو قول الحكيم : أما البيت فحسن ، وأما الساكن فردىء .

وقول ابن لنكك :

في شجر السرو منهم مثل له رواء وما له ثمر

وقول ابن الرومي :

فغدا كالخلاف يورق للعين ويأبى الإثمار كل الإباء

وقول الآخر :

فإن طرة لا قتك فانظر فربما أمر مذاق العود والعود أخضر (٤)

وانظر إلى المعنى في الحالة الثانية كيف يورق شجره ، ويثمر ، ويفتر ثغره ويبتسم ، وكيف تشتار الأرى من مذاقته ، كما ترى الحسن في شارته (٥)).

---

(١) الخصائص : ٢ / ٤٤٨ (٢) سورة الجمعة : ٥

(٣) الغرارة : الجوالق واحدة الغرائر وقال الجوهرى : الغرارة واحدة الغرائر التي (لسان العرب : غرر)

(٤) قال في اللسان : (رجل طرير و طرة وهنية حسنة وجمال وقيل هو المستقبل الشباب . . . وما أطره : اى ما أجمله).

(٥) أسرار البلاغة : ١ / ٢٢٧ ، ٢٢٨

ولكنه عندما يأتي لشرح سر اعجابه بهذه الأداء تجده يشرح خطوات الصنعة علميا ويذهب بورق شجر المعنى ، وافترار ثغره ، وابتسامة مذهب التوكيد والإثبات للمعنى الأولى أو المبالغة فيه (فأما القول في العلة والسبب : لم كان للتمثيل هذا التأثير ؟ وبيان جهته ومأتاه ، وما الذى أوجبه واقتضاه ، ففيهما واذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا ، كل منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل ، ويشرف ويكمل . فأدل ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي الى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها في الشيء تعلمها اياها الى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل الى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر ، الى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس ، أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا : (ليس الخبر كالمعاينة ، ولا الظن كاليقين) . فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة وضرب آخر من الأنس وهو ما يوجبه تقدم الألف كما قيل : ما الحب الا للحبيب الأول)[1] .

وقسم الامام عبد القاهر المعاني التي يأتي عقبها التمثيل الى ضربين :

الضرب الأول : غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه واستحاله وجوده ، وذلك نحو قوله :

فان تفق الأنام وأنت منهم ... فان المسك بعض دم الغزال[2]

والضرب الثاني : ألا يكون المعنى الممثل غريبا نادرا يحتاج في دعوى كونه على الجملة الى بينة وحجة واثبات . وضرب لذلك مثالا بقول المجنون :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض ... على الماء خانته فروج الأصابع[3]

ثم يقول بعد ذلك :

(واذا ثبت أن المعاني الممثلة تكون على هذين الضربين فان فائدة التمثيل ، وسبب الأنس ، في الضرب الأول بين لائح ، لأنه يفيد فيه الصحة وينفي الريب والشك ، ويؤمن صاحبه من تكذيب المخالف ، وتهجم المنكر وتهكم المعترض ، وموازنته بحالة كشف الحجاب عن الموصوف المخبر عنه حتى يرى ويبصر ، ويعلم كونه على ما أثبته عليه — موازنة ظاهرة صحيحة .

---

(١) المصدر السابق : ٢/٢٣٤ ، ٢٣٥ (٢) أسرار البلاغة : ١/٢٣٥

(٣) المصدر السابق : ١/٢٣٦

وأما الضرب الثاني فان التمثيل وان كان لا يفيد فيه هذا الضرب من الفائدة فهو يفيد أمرا آخر يجرى مجراه ، وذلك ان الوصف كما يحتاج الى اقامة الحجة على صحة وجوده في نفسه ، وزيادة التثبيت والتقرير في ذاته وأصله فقد يحتاج الى بيان المقدار فيه ، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده ومبلغه في القوة والضعف والزيادة والنقصان)[1] .

وتلاحظ هنا أن التمثيل عند عبد القاهر كما هو الحال في الاستعارة والكناية ليس إلا طريقا لاثبات المعنى الأول وتقريره ، ومظهر اخضاع الأداء اللغوى للعلمية في هذا هو ترسم خطوات أداء المعنى وتحليلها كما رأينا في التمثيل وكما تلاحظ في تحليله للصورة المجازية اذ يقول (إن العلم بالاعراب مشترك بين العرب كلهم وليس هو مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالروية ، فليس أحدهم بأن اعراب الفاعل الرفع والمفعول النصب والمضاف اليه الجر بأعلم من غيره . ولا ذاك المفعول به مما يحتاجون فيه الى حدة ذهن وقوة خاطر ، إنما الذى تقع الحاجة فيه الى ذلك العلم بما يوجب الفاعلية للشيء إذا كان ايجابها من طريق المجاز كقوله تعالى " فما ربحت تجارتهم "[2] وكقول الفرزدق

. سقتها خروق في المسامع .

وأشباه ذلك مما يجعل الشيء فيه فاعلا على تأويل بدق ومن طريق تلطف)[3] ويؤكد ذلك عندما يقول عن الاستعارة والتمثيل والكناية (فينبغي أن تعلم أن ليست المزايا التي تجدها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تحسها في أنفس المعاني التي يقصد المعلم بخبره اليها ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها) ويضيف بعد ذلك قائلا : (وذكرت ان السبب في أن كان يكون للاثبات اذا كان من طريق الكناية مزية لا تكون إذا كان من طريق التصريح انك اذا كنيت عن كثرة القرى بكثرة رماد القدر كنت قد أثبت كثرة القرى بإثبات شاهدها ودليلها ، وما هو علم على وجودها ، وذلك لا محالة يكون أبلغ من إثباتها بنفسها ، وذلك لأنه يكون سبيلها حينئذ سبيل الدعوى تكون مع شاهد ، وذكرت أن السبب في أن كانت الاستعارة أبلغ من الحقيقة أنك اذا ادعيت للرجل أنه أسد بالحقيقة كان ذلك أبلغ وأشد في تسويته

---

(١) المصدر السابق : ١ / ٢٣٧ (٢) سورة البقرة : ١٦

(٣) دلائل الاعجاز : ٣٠٢ .

بالأسد في الشجاعة ، ذاك لأنه محال أن يكون من الأسود ثم لا تكون لـــه شجاعة الأسود ، وكذلك الحكم في التمثيل فإذا قلت : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى : كان أبلغ في إثبات التردد له من أن تقول : أنت كمن يقدم رجـلا ويؤخر أخرى)[١] .

وأدت بهم هذه العلمية المفترضة للأداء اللغوى ، وكون الكلمة ســمة أو علامة تستدعي مدلولها آليا ـ لأنها كما تقرر عند كثير من علماء اللغة موضوعة ازاء معنى معين تختص به ـ إلى تحكيم الواقع الخارجي في الأداء اللغوى كمـا وافق الواقع الخارجي كان أداؤه حقيقة ، وما لم يوافقه كان مجازا ، وكانـــت المبالغة في كثير من الأحيان وسيلة من وسائل التوفيق المقلي بين الواقـــع الخارجي والأداء اللغوى . ولقد حمدوا هذه المبالغة إذا كان فيها ما يقربها من الصحة والا مكان يقول قدامة بن جعفر معلقا على قول أبي نواس :

يا أمين الله عش أبدا دم على الأيام والزمـــن

(فانا كنا قد قدمنا أن مخارج الغلو انما هي على " يكاد " وليـــس في قول أبي نواس " عش أبدا " موضع يحسن فيه . لأنه لا يحسن على مذهـــب الدعاء أن يقال : أمين يكاد أن يعيش أبدا)[٢] .

وردد أبو هلال قوله هذا[٣] . ومن قبلهما قال ابن قتيبة (وأكثر ما في القرآن من مثل هذا فانه يأتي بكاد ، فما لم يأت بكاد ففيه اضمارها كقولـــه " وبلغت القلوب الحناجر " اى كادت من شدة الخوف تبلغ الحلوق)[٤] . ولقد كان هذا من ابن قتيبة وتابعيه تحكما لا مبرر له في محاكمة أداء اللغة الفني إلـــى العقل والواقع الخارجي . . وأقل ما يؤخذ عليه فيه محاكمة الأسلوب القرآني الى هذا الواقع ثم افتراض ما يقرب أداؤه من الواقع الخارجي . الخاضع لمنطق عقلي تأبى طبيعة اللغة أن تستجيب له فتخضع به نبضها وروحها الى قوالب عقليـــة جامدة ولكن ابن قتيبة كان يجذبه احساس آخر يحترم اللغة مما جعله يقف معها ويسجل اباءها وخضوعها للمنطق العقلي والواقع الخارجي عندما قال (وأمـــا الطاعنون على القرآن " بالمجاز " فانهم زعموا انه كذب لأن الجدار لا يريد ، والقرية لا تسأل . وهذا من أشنع جهالاتهم وأدلها على سوء نظرهم ، وقلـــة أفهامهم . ولو كان المجاز كذبا ، وكل فعل ينسب الى غير الحيوان باطلا ـ كان أكثر كلامنا فاسدا لأنا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة

---

(١) دلائل الاعجاز : ٣٤٣ ، ٣٤٤ (٢) نقد الشعر : ٢٢٠
(٣) الصناعتين : ٣٦٩ ، ٣٧٧ (٤) تأويل مشكل القرآن : ١٧١

وأقام الجبل ، ورخص السعر . وتقول : كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا ، والفعل لم يكن وإنما كون . وتقول : كان الله . وكان بمعنى بطلت والله جلّ وعز ، قبل كل شيء بلا غاية ، لم يحدث ، فيكون بعد أن لم يكن . والله تعالى يقول " فاذا عزم الأمر " وانما يعزم عليه . ويقول تعالى " فما ربحت تجارتهم " وانما يربح فيها . ويقول : (وجاءوا على قميصه بدم كذب) وانما كذب به . ولو قلنا للمنكر لقوله " جدارا يريد أن ينقض " كيف كنت أنت قائلا في جدار رأيته على شفا انهيار : رأيت جدارا ماذا ؟ لم يجد بدا من أن يقول : جدارا يهم أن ينقض ، أو يكاد أن ينقض ، أو يقارب أن ينقض . وأيا ما قال فقد جعله فاعلا ، ولا احسبه يصل الى هذا المعنى في شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ)[1] .

ولقد حاول ابن قتيبة من خلال تأمله لطبيعة اللغة وابائها الخضوع للمنطق العقلي والواقع الخارجي أن يرد كثيرا من المطاعن التي وجهت الى القرآن الكريم على أساس أن هذه المحاكمة فتجده مثلا يورد ضمن أقوال الطاعنين على القرآن الكريم قولهم في قوله تعالى (وبلغت القلوب الحناجر) (كيف تبلغ القلوب الحلوق ، والقلب إن زال عن موضعه مات صاحبه ؟)[2] . ويتبع ذلك بردود مجملة على أقوالهم نتبين من خلاله كيف أنه كان يرى أن في أساليب المبالغة والتجوز تجاوزا لحدود الواقع وأنه يجيز ذلك (وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن ، وينسبها فيه الى الافراط وتجاوز المقدار . وما أرى ذلك الا جائزا حسنا على ما بيناه من مذاهبهم)[3] ولكن هل كان يرى ابن قتيبة أن وظيفة اللغة تتجاوز حدود نقل الواقع الخارجي وان ألفاظ اللغة ليست علامات وسمات ، وإنما هي كون يستخدمه كل من التعبير القرآني والفني ليقتنص بها الأشياء وينقل لنا بها معرفة لا تتم إلا عن طريق اللغة ؟؟

وللجواب على ذلك نقول إن هذا أمر يمكن أن نستنتجه من خلال قول ابن قتيبة السابق ورده على الطاعنين بأن الجدار لا يريد والقرية لا تسأل الذى سقناه آنفا ، ومن خلال قوله (وقد يكون الضريع وشجرة الزقوم : نبتين من النار أو من جوهر لا تأكله النار . وكذلك سلاسل النار وأغلالها وأنكالها وعقاربها ، وحياتها ، لو كانت على ما نعلم ، لم تبق على النار ، وإنما دلنا

---

(١) المصدر السابق : ١٣٢ ، ١٣٣ (٢) المصدر السابق : ٣١

(٣) المصدر السابق : ١٧٢ ، ١٧٣

الله سبحانه على الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالأسماء متفقة للدلالة والمعاني مختلفة ، وما في الجنة من شجرها وثمرها ، وفرشها ، وجميع آلاتها مثل ذلك . قال ابن عباس " نخل الجنة ، جذوعها من زمرد أخضر ، وكربها من ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مقطعاتهم وحللهم ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ، أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ، ليس له عجم ")(١) .

ولكن في قوله بتقدير كاد في قوله تعالى " وبلغت القلوب الحناجر" وقول الشاعر :

تتعارضون إذا التقوا في موطن   نظرا يزيل مواطىء الأقدام(٢)

قص لجناح اللغة وجعل للمعرفة التي تأتي بها معرفة تالية لتصور سابق عن الواقع الخارجي، وبيان ذلك أن سبب الحكم على الآية والبيت بالمبالغة ثم تقدير كاد هو أن النظر لا يمكن أن يزيل مواطىء الأقدام ، وأن القلوب يستحيل أن تبلغ الحناجر . . وهذا أمر يصح لو أن ألفاظ اللغة تجمد على معناها الوضعي ، الذى وضعت بازائه ولكن الاستعمال القرآني والعربي يوجد للفظ حياة وحركة يختلف بها اللفظ باستعمال عنه في استعمال آخر . يقول ابن تيمية (نجد أحدهم — أى القائلون بالمجاز — يأتي الى ألفاظ لم يعلم أنها استعملت إلا مقيدة ، فينطق بها مجردة عن جميع القيود ، ثم يدعي أن ذلك هو حقيقتها من غير أن يعلم أنها نطق بها مجردة ، ولا وضعت مجردة ، مثل أن يقول حقيقة العين هو العضو المبصر ، ثم سميت به عين الشمس ، والعين النابعة ، وعين الذهب للمشابهة)(٣) ثم يقول (لكن أكثرهم يقولون : إن هذا من باب المشترك ، لا من باب الحقيقة والمجاز ، فيمثل بغيره مثل لفظ الرأس ، يقولون : هو حقيقة في رأس الإنسان ، ثم قالوا : رأس الدرب لأوله ، ورأس العين لمنبعها ، ورأس القوم لسيدهم ، ورأس الأمر لأوله ، ورأس الشهر ، ورأس الحول . وأمثال ذلك على طريق المجاز)(٤) ثم يرد عليهم مبينا اختلاف اللفظ وتحول دلالته باختلاف استعماله قائلا (وهم لا يجدون قط أن لفظ الرأس استعمل مجردا ، بل يجدون أنه استعمل بالقيود في رأس الإنسان كقوله تعالى : (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين)(٥) ونحوه وهذا

---

(١) تأويل شكل القرآن : ٧٠ ، ٧١   (٢) تأويل مشكل القرآن : ١٧١
(٣) الايمان : ٩٣ ، ٩٤   (٤) المصدر السابق : ٩٤
(٥) سورة المائدة : ٧

القيد يمنع أن تدخل فيه تلك المعاني ، فإذا قيل رأس العين ورأس الدرب، ورأس الناس ، ورأس الأمر ، فهذا المقيد غير ذاك المقيد الدال ، ومجموع اللفظ الدال هنا غير مجموع اللفظ الذال هناك ، لكن اشتركا في بعض اللفظ كاشتراك كل الأسماء المعرفة في لام التعريف ، ولو قدر أن الناطق باللغة نطق بلفظ رأس الانسان أولا ، لأن الانسان يتصور رأسه قبل غيره ، والتعبير أولا هو عما يتصور أولا ، فالنطق بهذا المضاف أولا ، لا يمنع أن ينطق بجميع مضافا إلى غيره ثانيا ، ولا يكون هذا من المجاز كما في سائر المضافات . فاذا قيل ابن آدم أولا ، لم يكن قولنا : ابن الفرس ، وابن الحمار مجازا ، وكذلك اذا قيل : بنت الانسان ، لم يكن قولنا بنت الفرس مجازا . وكذلك اذا قيل : رأس الانسان أولا ، لم يكن قولنا : رأس الفرس مجازا ، وكذلك في سائر المضافات إذا قيل : يده أو رجله (١) ويؤخذ من هذا أنه ليس للفظ واقع خارجي محدود به ، ولأنه تبين حسب ما يقول ابن تيمية (ان ما يدعيه هؤلاء من اللفظ المطلق من جميع القيود ، لا يوجد إلا مقدرا في الأذهان ، لا موجودا في الكلام المستعمل ، كما أن ما يدعيه المنطقيون من المعنى المطلق من جميع القيود لا يوجد الا مقدرا في الذهن ، لا يوجد في الخارج شيء موجود خارج عن كل قيد (٢) فالذى يحدد اللفظ هو الاستعمال الذى يجعل الوضع " امكانية " تشع منه معاني اللفظ في اتجاهات مختلفة وفرق بين من يقول بهذا ، وبين من يجعل للفظ أصلا معينا يؤول اليه تعبيره ويجعل ذلك الأصل هو الحقيقة وما عداه من استعمالات اللفظ المختلفة . التي قصدها القرآن الكريم والاستعمال العربي مجازا أو مبالغة . وعدم استيعاب المعنى الوضعي للكلمة أمر لاحظه النقاد العرب وأشاروا اليه قبل ابن تيمية ، ولكنهم في الكثير الأعم لم يجعلوا الاستعمالات المختلفة للفظ أصلا في كل استعمال من استعمالاته — يقول قدامة بن جعفر عن مفهوم الاشارة (أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بايحاء اليها أو لمحة تدل عليها (٣)) . ويقول ابن رشيق عنها أيضا (والاشارة من غرائب الشعر وملحه ، وبلاغة عجيبة ، تدل على بعد المرمى ، وفرط المقدرة ، وليس يأتي بها الا الشاعر المبرز ، والحاذق المطبوع الماهر وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة ، واختصار وتلويح يعرف مجملا ، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه (٤)) ويقول الجاحظ (اعلم أن حكم المعاني خلاف حكم

---

(١) المصدر السابق : ٩٤ (٢) المصدر السابق : ١٠١
(٣) نقد الشعر : ٩٠ (٤) العمدة : ١/٣٠٢

الألفاظ لأن المعاني مبسوطة الى غير غاية وممتدة ، الى غير نهاية)(١)
وقد تنبه ابن الأثير الى أن (معنى اللفظة المفردة يتداخل بالتركيب ويصير له هيئة تخصه ، وهذا ليس قدحا في تلك الألفاظ .. وأعجب ما في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة واضحة كلها ، وإذا نظر إليها مع التركيب احتاجت الى استنباط وتفسير ... ولهذا أشباه كثيرة تفهم معاني الفاظها المفردة وإذا تركبت تحتاج في فهمها الى استنباط)(٢) ويقول ايضا (وأما اذا صارت مركبة فإن لتركيبها حكما آخر وذاك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة)(٣) وهذا التخيل جاء نتيجة لحياة اللفظ الجديدة في السياق الجديد .
وهذا هو معنى قولنا إن اللغة الأدبية والفنية لا تمثل واقعا محددا ، وليس معنى ذلك أنها أوهام وأحلام وإنما هي إقامة جديدة للفظ في سياق جديد ، وما دام كل لفظ محددا معناه بسياقه واستعماله فإن الواقع الخارجي المحدد الذى وضع اللفظ بازائه في قضية الوضع لا يمثل أصلا يعود إليه المعنى ويؤول وإنما يمثل بذرة ينمو بها اللفظ ويتفرع في سياقاته واستعمالاته المختلفة ، والبذرة بعد هذا النمو والتفرع ليست أولى بالاهتمام من هذه الفروع التي قد تكون بذورا أخرى صالحة للتفرع والنماء .

ولو نظرنا الى القلب في السياق القرآني ، والاستعمال العربي ، وحاولنا أن نتبين بعض دلالات هذا الاستعمال لوجدنا أن القلب فيهما لا يمكن أن يستوعبه تخصيصه بمضغة اللحم التي تقوم بتنظيم الدورة الدموية في جسد الإنسان وذلك لأننا نجد أن القلب مناط الهداية قال تعالى (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)(٤) وقال جل وعز (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها)(٥) وقال سبحانه (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)(٦) وقال تبارك اسمه (ومن يؤمن بالله يهد قلبه)(٧) ثم إن القلب على ما يوحي به استعماله في العربية هو مستقر العواطف الإنسانية يكون منه الاطمئنان والفزع (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين)(٨) (وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام)(٩) (سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب)(١٠)

---

(١) البيان والتبيين : ١/٧٦
(٢) المثل السائر : ١/٦٧ ، ٦٨
(٣) المصدر السابق : ١/١٩٢
(٤) سورة الحج : ٤٦
(٥) سورة الاعراف : ١٧٩
(٦) سورة محمد : ٢٤
(٧) سورة التغابن : ١١
(٨) سورة الشعراء : ١٩٤
(٩) سورة الأنفال : ١١
(١٠) سورة الأنفال : ١٢

ولقد كان نبضه الذى يتأثر بحالة الانسان النفسية رمزا أقام فيه الاستعمال العربي تطلعات الإنسان ، وأشواقه ومخاوفه ، وفي بعض الأحيان يفصل هذا الاستعمال القلب عن الإنسان فيملكه حبيب يسيطر على الذات يقول الشاعر :

ويخشون في ليلى عليّ ولم أنل ... مع العذل من ليلى حراما ولا حلا
سوى أن قلبي لو تشاء أقلّها ... ولو تبتغي ظلا لكان لها ظلا (١)

ويقول أبو فراس الحمداني مقابل هذا :

ولا تملك الحسناء قلبي كله ... ولو شملتها رقة وشباب (٢)

أو يقيمه مزعزعا يقول المجنون :

كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح

وقال الشاعر (في وصف مفازه تنزو من مخافتها قلوب الأدلاء :

كأن قلوب ادلائها ... معلقة بقرون الظباء (٣)

وفي مقابل هذا الاستعمال نجد أن القرآن الكريم يحدثنا عن تثبيت قلوب رسله وأوليائه واطمئنانها فمن ذلك قوله تعالى (كذلك لنثبت به فؤادك ...) (٤) وقوله عز وجل حكاية عن أم موسى (إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) (٥) وقول سبحانه (هو الذى أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) (٦) .

وفوق هذا كله جاء القلب في السياق القرآني والاستعمال العربي مستودعا لسر الإنسان ونيته لا يستطيع البشر سبر أغواره يقول تعالى (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) ويقول سبحانه مجيزا التصريح بالكفر عند الاكراه قولا فقط (الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) ... ومن ثم لم يكلفنا الشرع بوجوب معرفة حقيقة ما في القلب واكتفى بالبحث عن القرائن والدلائل الظاهرة والحكم بموجبها .

فإذ كان كل هذا للقلب الانساني ... وكان مستودع سر ... ومقر عاطفة ... وموجة نيّه ... فهل للتفسير بالمبالغة في هذه الآية مجال فضلا عن ايجاب تقدير " كاد " ذلك التفسير الذى يقصر مسمى القلب على ما خصصه به الوضع ... متناسيا هذه الوظيفة الشاملة له في الحياة الإنسانية . ومستغربا

---

(١) الزهرة : ٧٢
(٢) ديوان أبي فراس : ١/ ٢٤
(٣) تأويل مشكل القرآن : ١٧٢
(٤) سورة الفرقان : ٣٢
(٥) سورة القصص : ١٠
(٦) سورة الفتح : ٤

حركته وبلوغه الحلق عندما نظر إليه من هذا المنطلق ونظر إلى الآية كترجمة حرفية لواقع محدد له فيها ذهنه القلب تحديدا معينا لا يتجاوزه بينما كان القلب كما رأينا بالشواهد القرآنية والشعرية أوسع من هذا التحديد الذى حدّ به القلب .. فلا يتجاوزه الا بسبب عقلي وأخيرا لسنا ننكر أن يكون معنى القلوب في الآية هو جمع لهذه المضغة التي تنظم الدورة الدموية في الإنسان ويكون بلوغها الحلق هو بلوغ وظيفتها المسرعة في دفع الدم الى العروق فتمتلئ الأوردة ، وتنتفخ الأوداج ، ويضيق النفس حتى يصبح الإنسان عاجزا عن الإفصاح والنطق ... ولكن الذى ننكره هو أن يكون معنى بلوغها الحناجر تحركها من مواضعها إلى موضع الحنجرة وهو الأمر الذى بنيت عليه المبالغة في هذه الآية وتقديرها كاد ، ذلك لأن الاستعمال القرآني والعربي للقلب أراننا تحركه بل فصله عن الجسد غير مبال بما يجره عليه بسبب ذلك الحكم العقلي الذى يحد القلب بحدود لا تستوعبه .

ولن أغفل في هذا المقام اشارة ابن قتيبة الى هذا المعنى الأخير الذى أشرت اليه عندما قال (وقد يجوز أن يكون أراد : انها ترجف من شدة الفزع ، وتحف ويتصل وجيفها بالحلوق ، فكأنها بلغت الحلوق بالوجيب ، وهم يصفون القلوب بالخفقان ، والنزو عند المخافة والذعر)[1] .

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ١٧٢

الفصل الثاني

المبالغة بين القبول والرفض

قبل أن نتبين هذه القضية يجدر بنا أن نجعل نصب أعيننا عدة أمور تكشف لنا الكثير من المواقف وهذه الأمور هي :

١ — كثرة طرق المبالغة إلى درجة تستوعب فيها عند بعض النقاد معظم أساليب الأداء اللفوي في الصورة الفنية أو في أساليب التقديم والتأخير . والتنكير والتعريف . وفي بعض أنواع البديع .

٢ — فكرة النموذج (المثال) الذى يقيمه الشاعر في شخص الممدوح سواء كان ذلك مدحا أم فخرا أم رثاء ... أم غزلا .. وعكس ذلك بالنسبة للهجاء .

٣ — تأرجح الحكم على المبالغة بين ثلاثة معان بين الدلالة على بلوغ الغاية في المعنى والنهاية فيه ، وبين الزيادة فيه بعد تمامه ، وبين الكذب .

ووضع هذه الأمور أمامنا يفسر لنا الكثير من المواقف ازاء المبالغة حمدا ودما وتسويغا ... ولقد كانت فكرة النموذج (المثال) داعيا قويا من دواعي طلب المبالغة كما سبق أن أوضحنا ذلك في نقد النابغة لحسان ، وفي تفضيل امرأة امرئ القيس لعلقمة الفحل عليه في وصف الفرس ، وفي تفضيل المرأة التي عرضت لكثير قول امرئ القيس :

ألم تر أني كلما جئت طارقا ... وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

على قول كثير في عزة :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى ... يمج الندى جثجاثها وعرارها

بأطيب من أردان عزة موهنا ... اذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

قائلة له : قضى الله فاك : أرأيت لو أن ميمونة الزنجية بخرت بمندل رطب أما كانت تطيب ؟ (١)

وفي تفضيل عبد الملك بن مروان قول الأعشى مادحا لقيس بن معدى كرب على قول كثير فيه الذى سبق أن أوردناه وسنورد الآن عدة نصوص أخرى غير تلك النصوص تبين مدى سيادة هذا السنن الذوقي الذى لا يرضى إلا بالمثال فمن ذلك قصة معاويه مع الأخطل حينما وفد عليه فقال له : إني قد امتدحتك بأبيات فاسمعها فقال : إن كنت شبهتني بالحية أو الأسد أو الصقر فلا حاجة لي فيها ، وإن كنت قلت فيّ كما

---

(١) الموشح : ٢٣٩ فما بعدها .

قالت الخنساء :

وما بلغت كفُّ امرئٍ متناولٍ به المجدَ إلا حيث ما نلتَ أطولُ

وما بلغ المهدون في القولِ مِدحَةً وإن صدقوا إلا الذى فيك أفضلُ

فيها . فقال الأخطل : والله لقد أحسنت وقلت بيتين ، ما هما بدون ما سمعته وأنشد :

إذا متّ مات العز وانقطع الغنى فلم يبق إلا من قليلٍ مصرّدِ

وردت أكفُّ الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلفٍ مُجدَّدِ

فأحسن صلته (١) .

ومن ذلك ما روى عن أبي عمرو بن العلاء أنه لقي ذا الرّمة فقال له أنشدني قصيدتك .

ما بالُ عينك منها الماءُ ينسكبُ

فأنشده اياها ، فلما بلغ إلى قوله :

تصغي إذا شدّها بالكور جانحةً حتى إذا ما استوى في غرزها تَثِبُ

فقال له أبو عمرو بن العلاء : قول الراعي أحسن مما قلت :

تراها إذا قام في غرزها كمثل السفينة أو أوقرُ

ولا تَعجِلُ المرءَ عند الورو ك وهي بِركبتهِ أبصرُ

فقال ذو الرمة : إن الراعي وصف ناقة ملك وأنا أصف ناقة سوقه .

وحكى الصولى أنه سمع أعرابيا ينشد بيته الذى حكيناه ، فقال سقط والله الرجل (٢) .

وهذه الفكرة نجدها تتجسد عند قدامة بن جعفر ببحث الفضائل وأقسامها وما يجب على المادح من مدح الرجل بالخصال الأربع واستيعابها والإغراق فيها يقول في ذلك (إنه لما كانت فضائل الناس من حيث إنهم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهل الألباب ، من الاتفاق في ذلك ، إنما هي العقل — والشجاعة — والعدل — والعفه — كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا ، والمادح بغيرها مخطئا . وقد يجوز في ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض والإغراق فيه دون البعض . مثل أن يصف الشاعر إنسانا بالجود

---

(١) أمالي المرتضى : ٢/٢٤ ، ٢٥ — مصرد : مقلل
خلف مجدد : يقال ناقة مجددة الأخلاف اذا ضربها الصرار وقطفها وتجدد ضرع الناقة : ذهب لبنه .

(٢) أمالي المرتضى : ١/٢٧٨ ، ٢٧٩ وفيه (فأما الغرز فهو للناقة مثل الركاب للدابة ، وهو نسع مضفور ، وقوله " تصغي " يريد رأسها ، كأنها تسمع لأنها ليست بنفور ، بل مؤدبة مقوّمة ، والكور : الرحل) .

الذى هو أحد أقسام العدل وحده فيغرق فيه ويتفنن في معانيه أو بالنجدة فقط ، فيعمل فيها مثل ذلك ، أو بهما ، أو يقتصر عليهما دون غيرهما ، فلا يسمى مخطئا لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله ، لكن يسمى مقصرا عن استعمال جميع المدح ، فقد وجب أن يكون على هذا القياس المصيب من الشعراء من مدح الرجال بهذه الخلال ، لا بغيرها ، والبالغ في التجويد الى أقصى حدوده من استوعبها ، ولم يقتصر على بعضها ، وذلك كما قال زهير بن أبى سلمى في قصيدة :

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

فوصفه في هذا البيت بالعفة لقلة إمعانه في اللذات ، وأنه لا ينفد ماله فيها ، وبالسخاء لإهلاكه ماله في النوال ، وانحرافه الى ذلك عن اللذات ، وذلك هو العدل ثم قال :

تراه اذا ما جئته متهللا كأنك معطيه الذى أنت سائله

فزاد في وصف السخاء بأن جعله يهش له ، ولا يلحقه مضض ، ولا تكره لفعله ثم قال :

فمن مثل حصن في الحروب ومثله لانكار ضيم أو لخصم يجادله

فأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة ، والعقل ، فاستوعب زهير في أبياته هذه المديح بالأربع الخصال ، التي هي فضائل الانسان على الحقيقة وزاد في ذلك ما هو — وان كان داخلا في هذه الأربع — فكثير من الناس لا يعلم وجه دخوله فيها ، حيث قال " أخي ثقة " صفة له بالوفاء ، والوفاء داخل في الفضائل التي قدمنا ذكرها (١) . وهذه الفكرة هي التي جعلت قدامة بن جعفر يفضل المبالغة والغلو حيث يقول : (إن الغلو عندى أجود المذهبين وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال أحسن الشعر أكذبه ، وكذا نرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم (٢)) وهي التي جعلته يفضل رأى عبد الملك في مديح كثير له الذى سبق أن أوضحناه ليقول (والذى عندى في ذلك أن عبد الملك أصح نظرا من كثير ، الا أن يكون كثير غلط ، واعتذر بما يعتقد خلافه ، لأنه قد تقدم من قولنا في أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية ، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة ، حيث جعل الشجاع شديد الإقدام بغير جنة على أنه وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب ، ففي وصف الأعشى دليل قوى على شدة شجاعة صاحبه ، لأن الصواب له ، ولا لغيره ، إلا لبس

---

(١) نقد الشعر : ٩٦ (٢) نقد الشعر : ٩٤

الجنة ، وقول كثير تقصير في الوصف) (١) .

ولو مضينا الى أبي هلال العسكري لوجدناه يستجيز الغلو مسجلا استجازة العرب له انطلاقا من هذه الفكرة يقول (وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول الأعشى :

لتى لو ينادى الشمس ألقت قناعها أو القمر السارى لألقى المقالدا

هذا وقول أبي الطمحان من الغلو ، والغلو عند بعضهم مذموم وليس كذلك ولو كان مذموما لما جعلوا هذين البيتين من أمدح ما قالت العرب وهما من الغلو على ما هما عليه . ومثل هذا الغلو قول طريح بن اسماعيل :

أنت ابن مسلنطح البطاح ولم يضرب عليك الحنى والولج

لو قلت للسيل دع طريقك والموج عليه كالهضب يعتلج

لارتد أو ساخ أو لكان له في جانب الأرض عنك منعرج

وهذا من أعلى الغلو لأن السيل لا ترد وجهته هيبة ولا مخافة والعرب تقول أجرأ من السيل فيهمز ولا يهمز والهمز من الجراءة وترك الهمز من الجرى ويقال في المثل لا أفعل كذا حتى يرد وجه السيل ، وليس هذا الشعر بمختار الوصف واللفظ وانما جئت به لمكان غلوه ، ومن الغلو المشهور المستفيض الذى قبله الناس واستحسنوه ورووه بكل لسان قول أبى تمام في المعتصم :

بيمن أبي اسحق طالت به العلا وقامت قناة الدين واشتد كاهله

هو البحر من أى النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

تعود بسط الكف حتى لو أنه أراد انقباضا لم تطعه أنامله

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله) (٢)

ومن الأمور التي عللوا بها قبول المبالغة في الشعر خاصة أن الشعر عمل يقوم على التخيل والتخييل ولا يطلب منه التحديد والتحقيق ومن هؤلاء الشريف المرتضى فتجده يورد ما أخذه الآمدى على البحترى وامرىء القيس في وصف ذيل الفرس قائلا

وما خطأ الآمدى فيه البحترى وان كان له عذر صحيح لم يهتد إليه قوله :

ذنب كما سحب الرداء يذب عن عرف وعرف كالقناع المسبل

قال الآمدى " وهذا خطأ من الوصف لأن ذنب الفرس اذا مس الأرض كان عيبا فكيف اذا سحبه ! وانما الممدوح من الأذناب ما قرب من الأرض ولم يمسها كما قال امرؤ القيس :

---

(١) المصدر السابق : ١٠٠ (٢) ديوان المعاني : ١/٢٤ ، ٢٥

بضاف فـوق الأرض ليـس بأعـزل

قال : وقد عيب امرؤ القيس بقوله :

لها ذنـب مثـل ذيـل العـروس تسـد به فرجهـا من دبـر (١)

ثم يرد عليه قائلا : (وما أرى العيب يلحق امرأ القيس لأن العروس وإن كانت تسحب أذيالها ، وكان ذنب الفرس إذا مس الأرض عيبا فليس منكر ان يشبه به الذنب وإن لم يبلغ الى أن يمس الأرض ، لأن الشيء إنما يشبه الشيء إذا قاربه ، أودنا من معناه ، فاذا شبهه في اكثر أقواله فقد صح التشبيه ولاق بـه .

وامرؤ القيس لم يقصد أن يشبه طول الذنب بطول ذيل العروس فقط ، وإنما أراد السبوغ والكثرة والكثافة ، ألا ترى أنه قال :

تسـد به فرجهـا من دبـر

وقد يكون الذنب طويلا يكاد يمس الأرض ولا يكون كثيفا ، ولا يسد فرج الفرس فلما قال " تسد به فرجها " علمنا أنه أراد الكثافة والسبوغ مع الطول ، فاذا أشبه الذنب الذيل من هذه الجهة كان في الطول قريبا منه ، فالتشبه صحيح ، وليس ذلك بموجب للعيب وإنما العيب في قول البحتري " ذنب كما سحب الرداء " فأوضح بأن الفرس يسحب ذنبـه) .

ثم وجه المرتضى الأنظار بعد ذلك الى طبيعة الشعر وبعده عن التحقيق والتحديد (وللبحتري وجه في العذر يقرب من عذر امرئ القيس في قوله " مثل ذيل العروس " غير أن الآمدي لم يفطن له ، وأول ما نقوله : إن الشاعر لا يجب أن يؤخذ عليه في كلامه التحقيق والتحديد ، فإن ذلك متى اعتبر في الشعر بطل جميعه ، وكلام القوم مبنيّ على التجوز والتوسع والإشارات الخفية والايماء على المعاني تارة من بعد ، وأخرى من قرب ، لأنهم لم يخاطبوا بشعرهم الفلاسفة وأصحاب المنطق ، وإنما خاطبوا من يعرف أوضاعهم ويفهم أغراضهم وانما أراد البحتري بقوله (ذنب كما سحب الرداء) المبالغة في وصفه بالطول والسبوغ ، وأنه قد قارب أن ينسحب ، وكاد يمس الأرض . ومن شأن العرب أن تجري على الشيء الوصف الذي كان قد يستحقه ، وقرب منه القـرب الشديد فيقولون : قد قتل فلانا هوى فلانه ، ودلّه عقله ، وأزال تميزه وأخرج نفسه ، وكل ذلك لم يقع ، وإنما أرادوا المبالغة ، وافادة المقاربة والمشارفة ونظائر ذلك اكثر من أن تحصى .

ومن شأنهم أيضا إذا أرادوا المبالغة التامة أن يستعملوا مثل هذا فيشبهون

---

(١) أمالي المرتضى : ٢ / ٩٤

الكفل بالكثيب وبالدعص وبالتل ، ويشبهون الخصر بوسط الزنبور ، ويمدار حلقة الخاتم ، ويعدّون هذا غاية المدح وأحسن الوصف ، ونحن نعلم أنا لو رأينا من خصره مقدار وسط الزنبور ، وكفله كالكثيب العظيم لاستبعدناه واستهجنا صورته لنكارتها وقبحها ، وانما أتوا بألفاظ المبالغة صنعة وتأنقا ، لا لتحمل على ظواهرها تحديدا وتحقيقا ، بل ليفهم منها الغاية المحمودة ، والنهاية المستحسنة ، ويترك ما وراء ذلك ، فإنا نفهم من قولهم : خصرها كخصر الزنبور أنه في نهاية الدقة المستحسنة في البشر ، ومن قولهم : كفلها كالكثيب أى أنه في نهاية الوثارة المحمودة المطلوبة ، لا أنه كالتل على التحقيق ، فهكذا لا ننكر أن يريد البحترى بقوله "كما سحب الرداء" انه في غاية الطول الممدوح ، لا أنه ينجر على الأرض الحقيقة .

وكلنا في تخليص معناه وتفضيله الى العادة الجارية لنظرائه من الشعراء في استعمال مثل اللفظ الذى استعمله : وقد قال بعضهم في ثقل العجيزة :

تمشي فتثقلها روادفها ... فكأنها تمشي الى خلف

وقال المؤمل :

من رأى مثل حبّتى ... تشبه البدر إذ بدا

تدخل اليوم ثم تغد ... خل أردافها غدا

وقال ذو الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعته ... وقد جللته المظلمات الحنادس

وهذا كلام لو حمل على ظاهره وحقيقته لكان الموصوف به في نهاية القبح ، لأن من يمشي الى خلف ، ومن يدخل كفله بعده لا يكون مستحسنا .

وقال بكر بن النطاح :

قرعاء تسحب من قيام شعرها ... وتغيب فيه وهو جثل أسحم

فكأنها فيه نهار شرق ... وكأنه ليل عليها مظلم

فوصف شعرها بأنه ينسحب مع قيامها . ونحن نعلم أن طول الشعر — وان كان مستحسنا — فليس إلى هذا الحد ، وانما أراد بقوله (تسحب شعرها) ما أراده بقوله "كما سحب الرداء" من المبالغة في الوصف بالطول المحمود دون المذموم)

وهذه النظرة التراثية الى المبالغة نظرة تحترم المبالغة فتحترم معها لغة العمل الأدبي فتربأ به عن الكذب وذلك لأنها ترى في العمل الأدبي مستوى آخر من الكلام لا يمكن أن يخضع لتحديد اللغة الايصالية التي هدفها الفهم والافهام ، ولا لتجريد لغة العلم والفلسفة والمنطق (إن الشاعر لا يجب أن يؤخذ عليه في كلامه التحقيق والتحديد فان ذلك متى اعتبر في الشعر بطل جميعه ، وكلام القوم مبنيّ على

على التجوز والتوسع والإشارات الخفية ، والإيماء على المعاني تارة من بعد ، وأخرى من قرب لأنهم لم يخاطبوا من بشعرهم الفلاسفة وأصحاب المنطق ، وإنما خاطبوا من يعرف أوضاعهم ويفهم أغراضهم)[١] .

ولقد شنع المرتضى على الذين يفهمون من الصور الفنية المطابقة بينها وبين الواقع الخارجي مبينا أن تشبيههم الكفل بالكثيب وبالدعص وبالتل . . . . انه من شأنهم إذا أرادوا المبالغة التامة وأنهم يعدون هذا غاية المدح وأحسن الوصف ويقول بعد ذلك (ونحن نعلم أنا لو رأينا من خصره مقدار وسط الزنبور ، وكفله كالكثيب العظيم لاستبعدناه واستهجنا صورته لنكارتها وقبحها ، وانما أتوا بألفاظ المبالغة صنعة وتأنقا ، لا لتحمل على ظواهرها تحديدا وتحقيقا . بل ليفهم منها الغاية المحمودة ، والنهاية المستحسنة ، ويترك ما وراء ذلك)[٢] .

وفرق بين عدم اخضاع الشعر لصدق أو كذب كما هو الحال في هذه النظرة وبين أن نحاكمه الى الواقع فتحكم عليه بالصدق أو الكذب كما هو حال موقف الآمدي في الموازنة ، الأمر الذى جعله يقف موقفين متناقضين من هذه القضية تبعا لنظرتين متغايرتين إحداهما تحاكم الشعر الى الواقع فتطلب منه الصدق (وقد كان قوم من الرواة يقولون : أجود الشعر أكذبه ، ولا والله ما أجوده إلا أصدقه)[٣] . والأخرى ترى فيه تأبيا على الصدق . . . ولكنها بدلا من أن ترى فيه مستوى آخر لا يخضع لمعيار الواقع الخارجي بصدق أو كذب تأبى الا أن تخضعه لهذا المنطق فتحكم عليه بالكذب يقول (وقد ذكر بزرجمهر فضائل الكلام ورذائله ، وبعض ذلك داخل في الشعر فقال : إن فضائل الكلام خمس ان نقصت منها فضيلة واحدة سقط فضل سائرها وهي : أن يكون الكلام صدقا ، وأن يوقع موقع الانتفاع به ، وأن يتكلم به في حينه ، وأن يحسن تأليفه ، وأن يستعمل منه مقدار الحاجة . . . وهذا إنما أراد به بزرجمهر الكلام المنثور الذى يخاطب به الملوك ، ويقدمه المتكلم أمام حاجته ، والشاعر لا يطالب بأن يكون قوله صدقا . . .)[٤] ولقد كانت هذه النظرة شائعة في التراث النقدى فهذا أبو هلال العسكرى يحكم على الشعر بالكذب قائلا (ومما يعرف أيضا من الخطابة والكتابة انهما مختصتان بأمر الدين والسلطان وعليهما مدار الدار ، وليس للشعر بهما اختصاص ، أما الكتابة فعليها مدار السلطان . والخطابة لها الحظ الأوفر من أمر الدين . . . ولا يقع الشعر في شيء من هذه الأشياء موقعا . ولكن له مواضع

---

(١) أمالي المرتضى : ٢/٩٥ (٢) المصدر السابق : ٢/٩٥
(٣) الموازنة : ٢/٥٨ (٤) الموازنة : ١/٤٢٧ ، ٤٢٨

لا ينجع فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها ، وإن كان أكثره قد بنى على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة ، والنعوت الخارجة عن العادات والألفاظ الكاذبة من قذف المحصنات ، وشهادة الزور ، وقول البهتان ، لا سيما الشعر الجاهلي الذى هو أقوى الشعر وأفحله ، وليس يراد منه إلا حسن اللفظ ، وجودة المعنى وهذا هو الذى سوغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه . وقيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب في شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام والصدق يراد من الأنبياء)[1] .

ولقد حاول الإمام عبد القاهر أن يدفع عن الصورة الفنية تهمة الكذب التي ألصقت بها ، وأن يساير العمل الأدبي في مستواه الفني الذى لا يخضع لحكم الصدق أو الكذب . . فكان يحترمه ويحترم صوره الفنية التي لا تخضع لمنطق أو تجريد ولكنه لم يستطع أن يتحرر من أسر الواقع الخارجي الذى يخضع العمل الأدبي بالمقارنة به لحكمه . . . ونستطيع أن نقول أن النظرتين ظلتا تصطرعان في داخله . وليس أدل على ذلك من موقفه الغامض من المبالغة الذى لم يستطع مع هذا الاصطراع أن يبت في المبالغة برأى جازم حول قبولها أو رفضها فهو يقول معقبا على قول البحترى :

كلفتمونا حدود منطقكم ... والشعر يكفى عن صدقه كذبه

(أراد : كلفتمونا أن تجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق ، حتى لا ندعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ويلجئ الى موجبه مع أن الشعر يكفي فيه التخييل والذهاب بالنفس الى ما ترتاح إليه من التعليل ، ولا شك أنه الى هذا النحو قصد ، وإياه عمد ، اذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظا من الفضل والسؤدد ليس له ، ويبلغه بالصفة حظا من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله ، لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية والقوانين العقلية ، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع الى حال المذكور واختباره فيما وصف به والكشف عن قدرته وعدته ورفعته أو ضعته ومعرفة محله ومرتبته .

وكذلك قول من قال " خير الشعر أكذبه " فهذا مراده لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلا ونقصا وانحطاطا وارتفاعا بأن ينحل الوضيع من الرفعة ما هو منه عار ، أو يضيف الشريف بنقص وعار ، فكم جواد بخله الشعر ، وبخيل سخاه ، وشجاع وسمه بالجبن ، وجبان ساوى به الليث . . . ثم لم يعتبر ذلك في الشعر نفسه حيث تنتقد دنانيره ، وتنشر دنابيجه ، ويفتق مسكه فيضوع أريجه .

---

(١) الصناعتين : ١٤٢ ، ١٤٣

وأما من قال في معارضة هذا القول (خير الشعر أصدقه) كما قال :

وإن أحسن بيت أنت قائلـــــه   بيت يقال إذا أنشدته صدقـــا

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل وأدب يجب به الفضل وموعظة تروض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى ، وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال ، وقد ينحى بها نحو الصدق في مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيـــه والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشعر)(١) ، ثم مضى يفاضـــل بين القولين ويعدد حجج كل قول قائلا (فمن قال (خيره أصدقه) كان تـــرك الإغراق والمبالغة والتجوز الى التحقيق والتصحيح ، واعتماد ما يجرى من العقـــل على أصل صحيح . أحب اليه وآثر عنده إذ كان ثمره أحلى ، وأثره أبقى ، وفائدته أظهر ، وحاصله أكثر ، ومن قال " أكذبه " ذهب الى أن الصنعة إنما يمد باعهـــا وينشر شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها حيث يعتمد الاتساع والتخييـــل ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطف والتأويل ، ويذهب مذهب القول بالمبالغة والإغراق في المدح والذم والوصف ، والبث والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد الشاعر سبيلا الى أن يبدع ويزيد ويبدئ فـــي اختراع الصور ويعيد ، ويصادف مضطربا كيف شاء واسعا ، ومددا من المعانـــي متتابعا ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع والمستخرج من معدن لا ينتهي . وأما القبيل الأول فهو فيه كالمقصور المداني قيده ، والذى لا تتسع كيف شاء يده ثم هو في الأكثر يورد على السامعين معاني معروفة وصورا مشهورة ويتصرف في أصـــول هي وإن كانت شريفة فإنها كالجواهر تحفظ أعدادها ولا يرجى ازديادها . وكالأعيان الجامدة التي لا تنمى ولا تزيد ، ولا تربح ولا تفيد ، وكالحسناء العقيم ، والشجرة الرائعة لا تمتع بجنى كريم)(٢)

ويضيف مفاضلا بينهما وحاكما لمنطق العقل والواقع الخارجي على منطق الفن في العمل الأدبي قائلا (هذا ونحوه يمكن أن يتعلق في نصرة التخييل وتفضيلـــه والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره ، والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه . وقد قيل الباطـــل مخصوم وإن قضى له ، والحق مفلج وإن قضى عليه . هذا ومن سلم أن المعاني المغرقة في الصدق ، والمستخرجة من معدن الحق ، في حكم الجامد الذى لا ينمي والمحصور

---

(١) أسرار البلاغة : ٢/١٣٢ ، ١٣٣

والذى لا يزيد ؟)(١) .

ولقد كان ميل الإمام عبد القاهر الى ما كان العقل ناصره والتحقيق شاهده ، ومحاكمة العمل الأدبي بالعقل ، وما يحدث في الواقع بالصدق والتحقيق ، مع عدم مطاوعة وخضوع التركيب اللغوى في العمل الأدبي لهذا التحقيق أمرا جعل الامام عبد القاهر في موقف المضطرب من عد الاستعارة من قبيل التخييل أم لا فهو يقول في موضع (واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل لأن المستعير لا يقصد اثبات معنى اللفظة المستعارة ، وانما يعمد الى اثبات شبه هناك : فلا يكون مخبره على خلاف خبره ، وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن ، وهي كثيرة في التنزيل على ما لا يخفى : كقوله عز وجل " واشتعل الرأس شيبا " ثم لا شبهة في أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال ، ظاهرا وانما المراد اثبات شبهه (٢)) بينما يقول في موضع آخر (فاعلم ... ان الاستعارة وان كانت تعتمد التشبيه والتمثيل وكان التشبيه يقتضى شيئين مشبها ، ومشبها به وكذلك التمثيل ، لأنه كما عرفت تشبيه الا أنه عقلي — فإن الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين وتطرحه ، وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به كما مضى من قولك : رأيت أسدا تريد رجلا شجاعا ووردت بحرا زاخرا تريد رجلا كثير الجود فائض الكف ، وأبديت نورا تريد علما وما شاكل ذلك ، فالاسم الذى هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى ، وقد نقلت الحديث الى اسم المشبه به لقصدك أن تبالغ فيه بحيث تخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور كي تقوى أمر المشابهة وتشدده ، ويكون لها هذا الصنيع حيث يقع الاسم المستعار فاعلا أو مفعولا أو مجرورا بحرف الجر أو مضافا اليه (٣)) ولقد شعر الامام بتناقضه فقال بعد أن أخرج الاستعارة من التخييل (وجملة الحديث الذى أريده بالتخييل ههنا : مايثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى لا طريق الى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه . ويريها ما لا ترى ، أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف في أنك اذا رجعت الى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمرا عقليا صحيحا ويدعى دعوى لها شبح في العقل (٤)) والذى قاد الامام عبد القاهر الى هذا الاضطراب تناوله للغة العمل الأدبي " على أساس أنها اثبات ودعوى وحكم وليس أدل على ذلك من قوله السابق ومن قوله بعد ذلك (وستمر بك ضروب من التخييل هي أظهر أمرا في البعد عن الحقيقة تكشف عن وجهه في أنه

---

(١) اسرار البلاغة : ٢ / ١٣٤ ، ١٣٥ (٢) المصدر السابق : ٢ / ١٣٥

(٣) المصدر السابق : ٢ / ٩٧ (٤) المصدر السابق : ٢ / ١٣٦

خداع للعقل وضرب من التزويق (١) . وعلى الرغم من موازنة الإمام بين التخييل والتصديق وميله الى تفضيل الثاني على الأول (فإن ذلك التفضيل ظل منحصرا في مستوى التأصيل النظري ، فحسب أما على مستوى التطبيق العملي ، فقد انحاز عبد القاهر الى جانب التخييل وأعجب بقدرته اللافتة على عكس الحقائق ، وقلب الأوضاع (٢) .

وهناك وأمرا آخر كان داعيا الى قبول المبالغة وهو فكرة التحسين والتقبيح و (التحسين والتقبيح مصطلح كلامي تبلورت حدوده وأبعاده عند المعتزلة ، فهو أصل من أصولهم الخمسة المعروفة ، لكن المصطلح انتقل الى مجال البحث البلاغي ليشير إلى قدرة الكلام البليغ على إيهام المتلقي ومخادعته . . . وتتحقق هذه الغاية عندما يربط البليغ المعاني الأصلية التي يعالجها بمعان أخرى مماثلة لها ، لكنها أشد قبحا أو حسنا . فتسري صفات الحسن أو القبح من المعاني الثانوية إلى المعاني الأصلية ، فيميل المتلقي اليها ، أو ينفر منها تبعا للمبدأ القديم الذي يرى أن ما يجوز على احد المتماثلين يجوز على الآخر (٣) . وقد أشار الجاحظ الى ذلك عندما قال (فإنه ليس شيء إلا وله وجهان وطرفان وطريقان ، فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين ، وإذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين) (٤) ويقول ابن رشيق في العمدة (ومن كتاب عبد الكريم : قالوا : حسن البلاغة أن يصور الحق في صورة الباطل ، والباطل في صورة الحق) (٥) ولقد وجه ابن رشيق هذا القول ودافع عنه بفكرة التحسين والتقبيح هذه فقال (والذي أراه أنا أن هذا النوع من البيان غير معيب بأنه نفاق ، لأنه لم يجعل الباطل حقا على الحقيقة ، ولا الحق باطلا ، وانما وصف محاسن شيء مرة ثم وصف مساويه مرة أخرى ، كما فعل عمرو بن الأهتم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وقد سأله عن الذبرقان بن بدر ، فأثنى خيرا فقال : مانع لحوزته ، مطاع في أنديته ، ويروى في أذينه (٦) ، فلم يرض الزبرقان بذلك ، وقال : أما إنه قد علم أكثر مما قال . ولكن حسدني لشرفي ــ وفي رواية أخرى ــ حسدني مكاني منه ، يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ــ فأثنى عليه شرا ، وقال : أما لئن قال ما قال لقد علمته ضيق الصدر ، زمر المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، حديث الغنى ثم قال : والله يا رسول الله ما كذبت عليه في الأولى ، ولقد صدقت في الآخرة ، ولكن أرضاني فقلت بالرضا ، واسخطني فقلت

---

(١) المصدر السابق : ٢/١٣٦

(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ٤٣١

(٣) المرجع السابق : ٤٢٨ (٤) الحيوان : ٥/١٧٤

(٥) العمدة : ١/٢٤٧ (٦) وفي مجمع الأمثال (مطاع في أدنيه) وعلق عليها المحقق هناك بقوله (هكذا في جميع أصول هذا الكتاب والأدنون جمع الأدنى بمعنى الأقرب ووقع في بعض الأمهات (مطاع في أذينه) والأذين النداء (مجمع الأمثال :٧) .

البيان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنّ من البيان لسحرا) قال أبو عبيد القاسم بن سلام : وكأن المعنى- والله أعلم - انه يبلغ من بيانه أنه يمدح الانسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله ، ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب الى قوله الآخر ، فكأنه سحر السامعين بذلك .

وقال الجاحظ : العربي يعاف البذاء ويهجو به غيره ، فاذا ابتلي به فخر به ، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به صاحبه) (١) .

وهذه الفكرة تدخل في جهة من جهتيها مع فكرة "النموذج" التي ذكرناها سابقا ، فهي تدخل في المبالغة من هذه الجهة ، ومن جهة الإشباع في صفة الذم أيضا يقول الأصمعي إجابة لمن سأله : من أشعر الناس ؟ (الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيرا ، أو يأتي الى المعنى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا) (٢) .

وفكرة المحاكاة التي نقلت من النقد اليوناني وسرت في النقد العربي كانت جذرا من جذور هذه الفكرة ، وداعيا لتقبل المبالغة إذ كانت فكرتها عند أرسطو أنه (لما كان الشاعر محاكيا - شأنه في ذلك شأن الرسام ، وكل صانع صورة - فيجب ضرورة أن يسلك في محاكاة الأشياء أحد طرق ثلاثة : إما أن يحاكيها كما كانت أو تكون ، وإما أن يحاكيها كما تقال أو تظن ، وإما أن يحاكيها كما ينبغي أن تكون) (٣) والمحاكاة بما يظن أو بما يمكن أن يكون أمر جعل الشعر عند أرسطو أقرب الى الفلسفة وأسمى مرتبة من التاريخ يقول أرسطو (وظاهر مما قيل أن عمل الشاعر ليس رواية ما وقع بل ما يجوز وقوعه وما هو ممكن على مقتضى الرجحان أو الضرورة ، فان المؤرخ والشاعر لا يختلفان بأن ما يرويانه منظوم أو منثور بل هما يختلفان بأن أحدهما يروى ما وقع على حين أن الآخر يروى ما يجوز وقوعه ، ومن هنا كان الشعر أقرب الى الفلسفة وأسمى مرتبة من التاريخ ، لأن الشعر أميل الى قول الكليات على حين أن التاريخ أميل الى قول الجزئيات) (٤) . ولكن هل كان هذا السمو بمكانة الشعر ينطلق من تصور أن الشعر له لغته الخاصة التي تعمل على إعادة تشكيل الواقع الخارجي دون خضوع لمقياس صدق أو كذب وحقيقة أو خيال ؟ أو ان ذلك منطلق من تصور أن لغة الشاعر لا تختلف عن لغة الخطيب والمحدث العادى ... وأن الشاعر لتحقيق دوره الخطابي يباح له الكذب لتتم عملية الإقناع ؟

ومن ينظر الى غرض المحاكاة المنقول عن أرسطو بأنها تحسين أو تقبيح أو مطابقة والذى نقله عنه ابن سينا عندما قال (وأما اليونانيون فكانوا يقصدون أن يحثوا

---

(١) المصدر السابق : ١ / ٢٤٨ ، ٢٤٩ (٢) المصدر السابق : ٢ / ٨٧

(٣) كتاب ارسطوطاليس في الشعر ١٤٢ (٤) المصدر السابق : ٦٤

بالقول على فعل أو يردعوا بالقول عن فعل ، وتارة كانوا يفعلون ذلك على سبيل الخطابة ، وتارة على سبيل الشعر فلذلك كانت المحاكاة الشعرية عندهم مقصورة على الأفاعيل والأحوال وعلى الذوات من حيث لها تلك الأفاعيل والأحوال . وكل فعل اما قبيح واما جميل ولما اعتادوا محاكاة الأفعال انتقل بعضهم الى محاكاتها للتشبيه الصرف لا لتحسين وتقبيح ، فكل تشبيه ومحاكاة كان معدا عندهم نحو التقبيح او التحسين ، وبالجملة المدح أو الذم .... وقد كان من الشعراء اليونانيين من يقصد التشبيه للفعل ، وان لم يخيل منه قبحا وحسنا ، بل المطابقة فقط . فظاهر أن فصول التشبيه هذه الثلاثة : التحسين والتقبيح والمطابقة) [١] .

يجزم من ينظر إلى ذلك أنه كان نابعا من النظر الى دور الشاعر بأنه كدور الخطيب او المناظر يتوسل لاثبات منطقه بكل حجة وذريعة وهذا أمر سرى في النقد العربي ورأيناه عند عبد القاهر الجرجاني في بحثه عن أقسام التخييل . وعند حازم القرطاجني الذى يقول (وانما يرجع الشاعر الى القول الكاذب حيث يعوزه الصادق والمشتهر بالنسبة الى مقصده في الشعر فقد يريد تقبيح حسن ، وتحسين قبيح ، فلا يجد القول الصادق في هذا ولا المشتهى فيضطر حينئذ الى استعمال الأقاويل الكاذبة) [٢] . وتلاحظ ان فكرة التحسين والتقبيح هنا تجاوزت ما يمكن أن يكون من اشباع لصفات المدح أو الذم الى سلوك طريق المغالطة والمخادعة وقلب الحقائق بتقبيح الحسن ، وتحسين القبيح .

ولقد كانت هذه الأمور مدعاة لقبول المبالغة والترويج لها ، إذ وضعت الرافضين للمبالغة في موقف حرج إذ كانوا يطلبون من لغة العمل الأدبي ما تنوء به وترفضه فهي كما يرى المرتضى لا تتطلب تحقيقا وتحديدا ، الأمر الذى جعل من يعيب المبالغة ولا يرضاها مخطئا لكثير من صور الكلام العربي واستعاراته ومجازاته (ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة الى كثير من محاسن الكلام) [٣] ولقد كان أكثر النقاد العرب مدركا لهذه القضية ولذلك قالوا (أعذب الشعر أكذبه) ومن هنا كان الترويج والتبرير للمبالغة بتصوير ما ينبغي أن يكون ، أو بالتحسين والتقبيح .... أو بأن الشاعر يضطر الى استعمال الأقاويل الكاذبة فيرجع الى القول الكاذب حيث يعوزه الصادق والمشتهر ... ولو أنهم عايشوا مخالفة لغة العمل الأدبي للواقع الخارجي معايشة من يرى في ذلك ضرورة

---

(١) كتاب ارسطوطاليس في الشعر : ٢٠٠ (٢) منهاج البلغاء : ٧٢
(٣) العمدة : ٢/٥٧

حتمية لها وأنها تتخذ من هذه الضرورة بعدا يعلو على لغة الفهم والإفهام فيمكنها من الخلق والابتكار والاستبصار لربأوا بهذا الانحراف عن مستوى الواقع الخارجي عن الكذب وعن الإحالة وعن تقسيمه إلى درجات تختلف في القول والاستحسان باختلافها في البعد والقرب ، وعن الترويج والتعليل للكذب الذى يرونه في مخالفة اللغة الأدبية للواقع الخارجي ولما عدت المبالغة في صناعة الشعر عند بعضهم (كالاستراحة من الشاعر اذا أعياه ايراد معنى حسن بالغ فيشغل الأسماع بما هو محال ، ويهول مع ذلك على السامعين ، وانما يقصدها من ليس بمتمكن من محاسن الكلام أن تمكنه ولا يتعذر عليه ، وتنجذب كلما أرادها اليه)(١) .

ولقد كان الحرج في الموقف من المبالغة أمرا ظاهرا في النقد العربي فالمبرد مثلا لا يقبل الا ما يقارب الحقيقة ويعلق على قول قيس بن معاذ :

فلو أن ما أبقيت مني معلق بعود تمام ما تأود عودها

بقوله : (وهذا متجاوز كقول القائل : " ويمنعها من أن تطير زمامها وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ، ونبه فيه لفطنته على ما يخفى على غيره ، وساقه برصف قوي واختصار قريب "(٢)

ومن ثم يقسم التشبيه على هذا الأساس الى أربعة أضرب " فتشبيه مفرط " وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج الى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام "(٣) . وكانت شواهده التي ساقها دليلا على كل قسم وتمييزا له عن غيره " فنرى في شواهد التشبيه المفرط شيئا من المبالغة ، وفي أمثلة التشبيه المصيب انطباقا يجرى على حدود الممكن والواقع ، وفي دلائل التشبيه المقارب نوعا من الوضوح والصراحة ، وفي التشبيه البعيد حاجة الى التأويل والتفسير "(٤) .

ولكن المبرد الذى وضع نفسه في اطار هذه النظرة يصطدم بالكثرة الكاثرة لهذا النوع الذى سماه بالتشبيه المفرط في الكلام العربي فهو عندما يقول " فمن التشبيه المفرط المتجاوز قولهم للسخي هو كالبحر ، وللشجاع هو الأسد "(٥) يفصح بذلك عن هذه الكثرة لأن مثل ذلك هو جل الكلام العربي شعرا ونثرا .

وقد قرن ذلك بتراكيب وأبيات تحمل المبالغة وإن كانت طريق غير التشبيه دالا بذلك على أن الإفراط في التشبيه كالافراط في المعنى وذلك حيث يربط تشبيههم المفرط للسخي بالبحر ، وللشجاع بالأسد بقولهم للشريف " سما حتى بلغ النجم ، وقول بكر بن النطاح :

---

(١) العمدة : ٢/٥٤ (٢) الكامل : ١/١٧٣

(٣) المصدر السابق : ٢/١٠١ (٤) اثر النحاة في البحث البلاغي : ٢١٦

(٥) الكامل : ٢/١٠١

له هـم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهـر
له راحة لو أن مشارَ جودها على البر صار البر أندى من البحر
ولو أن خلق الله في مسك فارس وبارزه كان الخلق من العمـر (١)

ويحمل لنا المبرد في كتابه الكامل ظنا سيئا بالمبالغة يقود الى اتهامها بالكذب وذلك يظهر في ايراد ما دار بين عمران بن حطان وزوجته عندما قالت لـه امرأتـه :

أما زعمت أنك لم تكذب في شعر قط . فقال : أو فعلت ؟ فقالت : أنت القائل :

فهناك مجزأة بن ثـو ر كان أشجع من أسامـه

أفيكون رجل أشجع من أسامة ، فقال لها : أنا رأيت مجزأة فتح مدينـة والأسد لا يفتح مدينة (٢) . ولكن ما هو موقف المبرد نفسه من المبالغة ؟ ؟ ! !

لقد ظل المبرد حائرا بين أمرين :

أولهما : صدق الواقع الخارجي والمقاربة في التشبيه .

ثانيهما : كثرة الإفراط في الكلام العربي شعرا ونثرا عن طريق التشبيه وطريق المعنى .

فهل يرد الأمر الثاني لعدم وفائه بشروط الأمر الأول ؟ وما هو تصرفة ازاء ذلـك ؟ لقد تصرف المبرد ازاء ذلك تصرفا تظهر فيه المكابرة التي ترفـض الإفراط وتنادي بالصحة والصواب والمقاربة ، وتحاول الصمود أمام كثرة ما وسم بالإفراط في الكلام العربي ، فلا تقوى إلا برد الإعجاب الى شيء آخر غير الإفراط . يظهـر ذلك في قوله : " ومن التشبيه في إفراط غير أنه خرج في كلام جيد وعنى به رجـل فخرج من الاحتمال إلى باب الاستحسان ثم جعل لجودة ألفاظه وحسن رصفـه واستواء نظمه في غاية ما يستحسن قول النابغة : يعني حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو الفـزاري :

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنـوح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل نجوم السماء والأديم صحيـح
فعمّا قليل ثم جاء نعيـه فظلّ نـدى الحي وهو ينـوح " (٣)

وقوله :

ومن تشبيههم المتجاوز الجيد النظم ما ذكرناه وهو قول أبي الطمحان :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ضحى الليل حتى نظم الجزع ثاقبـه (٤)

---

(١) الكامل : ٢/١٠١ (٢) الكامل : ٢/١٠١
(٣) الكامل : ٢/١٠١ ، ١٠٢

وهذا الإعجاب الذى يحاول أن يرده المبرد إلى غير الإفراط هو الذى جعل الدكتور عبد القادر حسين يتوهم أن المبرد يناصر المبالغة ويظهر ذلك في قوله : " والمبرد يقصد بالتشبيه المفرط ، التشبيه المبالغ فيه ، ونراه يعجب بهذا اللون من التشبيه ، ويؤازر اعجابه بما يذكره من تشبيهات القرآن وشعر الفحول " (١) . وقوله : (والمبرد كان على فهم ودراية حين أعجب بالتشبيه المفرط الذى يتسم بالمبالغة) (٢) مع أن المدقق في كلام المبرد يستنتج منه نفوره من المبالغة ذلك النفور الذى صرح به في قوله (وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة) (٣) .

ويتضح مما سبق أن رفضه للمبالغة والإفراط لا يمنع من أن محاكمة العمل الأدبي إليهما ليس من طبيعته ، ولكنه يمنع من الظن السيء بهما .

والحرج من المبالغة يظهر في تناقض ابن قتيبه في الموقف منها فهو يقبلها ويرد على الطاعنين على القرآن الكريم الذين يفسرونها فيه بالكذب في كتابه (تأويل مشكل القرآن) ينفي تلك التهمة عنها ، حيث يقول : (وليس ذلك بكذب لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه) (٤) ويضرب على ذلك الأمثلة من القرآن الكريم ، وكلام العرب ثم يقول (وكان بعض " أهل اللغة " يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن وينسبها فيه الى الإفراط ، وتجاوز المقدار وما أرى ذلك إلا جائزا حسنا على ما بيناه من مذاهبهم .

يقول النابغة في وصف سيوف :

تقدّ السلوقي المضاعف نسجه ... وتوقد بالصّفاح نار الحباحب

ذكر أنها تقطع الدروع التي هذه حالها ، والفارس حتّى تبلغ الأرض فتورى النار إذا أصابت الحجارة .

وقول النمر بن تولب :

تظل تحفر عنه إن ضربت به ... بعدَ الذراعين والساقين والهادى

يقول : رسب في الأرض بعد أن قطع ما ذكر ، واحتاج أن يحفر عنه ليستخرجه من الأرض .

ومثله قول مهلهل :

ولولا الريح أسمع أهل حجر ... صليل البيض تقرع بالذكور

ويتبع ذلك بأمثلة أخرى يختتمها بقوله (وكل هذا على المبالغة في الوصف وينوون في جميعه يكاد يفعل ، وكلهم يعلم المراد منه) (٥) .

---

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي : ٢١٣ (٢) المرجع السابق : ٢١٣
(٣) الكامل : ١ / ١٧٣ (٤) تأويل مشكل القرآن : ١٦٧ فما بعدها
(٥) المصدر السابق : ١٧٢ — ١٧٨

ونجده في الشعر والشعراء يقول : عن النابغة (وأخذوا عليه قوله في وصف السيوف :

يطير فضاضا حولها كل قونس ويتبعها منهم فراش الحواجب

تقد السلوقي المضاعف نسجه ويوقدن بالصفاح نار الحباحب

وذكر أنها تقد الدروع التي ضوعف نسجها والفارس والفرس حتى تبلغ الأرض فتنقدح النار بها من الحجارة)[١] .

ويقول عن النمر بن تولب :

(ومما يعاب عليه قوله في وصف سيف :

تظل تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادي

ذكر أنه قطع ذلك كله ، ثم رسب في الأرض ، حتى احتاج الى أن يحفر عنه وهذا من الإفراط والكذب)[٢] .

ويقول عن المهلهل (وهو أحد الشعراء الكذبة لقوله :

ولولا الريح أسمع أهل حجر صليل البيض تقرع بالذكور)[٣]

ويقول الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ عبد المال : (وأكثر الأبيات التي ارتضاها ورآها أمرا جائزا حسنا في تأويل مشكل القرآن نسبها الى الإفراط والكذب في الشعر والشعراء .

ولم يعتمد في وصفها بالإفراط والكذب على أقوال السابقين وحسب ، ولكنه اعتمد على أقوالهم فيها ـ أحيانا ـ ووصفها أو وصف أصحابها هو بنفسه أحيانا أخرى كما يبدو ذلك من المثالين الأخيرين ـ يعني قوله في قول النمر ، وفي قول المهلهل ـ اللذين ذكرتهما له)[٤] .

فهل في الموقفين تناقض ؟ ! أو أن ابن قتيبه ألف (الشعر والشعراء) قبل (تأويل مشكل القرآن) فيكون ما في التأويل رجوعا عما في (الشعر والشعراء) ؟ كلا الأمرين جائز .

ولكن الأمر الأول أرجح لأنه لو كان ما في (تأويل مشكل القرآن) رجوعا أعما في (الشعر والشعراء) لصرح به ابن قتيبه وذلك لأنه كان في (تأويل مشكل القرآن) يدافع عن القرآن الكريم ، ومن ثم كان يجب أن يكون فيه النص على الاقلاع عما كان منه من الذي أخذه على أهل اللغة . وهذا التناقض الذي يسود في النقد العربي

---

(١) الشعر والشعراء : ٧٩ (٢) المصدر السابق : ١٧٣

(٣) المصدر السابق : ١٦٤

(٤) نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي : ٢٧٣

من الموقف من المبالغة ، والذى يظهر عند ابن قتيبة ، والذى تحايل عليه المبرد كما سبق أن أوضحنا ـ ويظهر عند الآمدى ، والإمام عبد القاهر الجرجانى كما سبق أن أشرنا ، وغيرهم كان نتيجة لعدم سلامة النظر إلى العمل الأدبي تلك النظرة التي لا تحترم لغة العمل الأدبي ، ولا ترى فيها إلا صورة لمطابقة الواقع الخارجي ثم تصطدم بجلال وجمال الأساليب التي يرون فيها مخالفة وتجاوزا لحدود وأبعاد الواقع الخارجي ، فحينا تجدهم يتحررون من أسر هذا الواقع ويحترمون فاعلية اللغة ، فيقارنون الأساليب ببعضها ويخرجونها من تهمة الإفراط والكذب والادعاء وحينا يتحكم بهم الواقع الخارجي ، وحدود منطقهم العقلي ، فينسون الجمال والجلال فيحكمون على هذه الأساليب بالإفراط والكذب والادعاء .

إن هذا هو الذى يمكن أن نفسر به التناقض في الموقف من المبالغة وأما قول الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال : (وفي تقديرنا أن ابن قتيبة لا يصح أن يؤخذ على رأيه في تأويل مشكل القرآن ، أو أن يؤخذ به لأنه ـ فيما نعتقد ـ لم يكن مطلق الحرية وهو يقول بهذا الرأى المستحسن للمبالغة جملة ، إنما كان محوطا بعاملين كان لهما أبلغ الأثر في توجيه رأيه ، هما : بلاغة القرآن ، ذاتها وقد أخذ بها من غير شك ، ووجد فيها نماذج ظنها من المبالغة الغالية ، ولم يستطع تبريرها على غير المبالغة ، والعامل الثاني هو التأثير البالغ الذى مسّ نفسه وهيجها بما وجه إلى القرآن من الطعن عليه ، والنيل من بلاغته ، فكان هذان العاملان معا هما اللذين دفعاه إلى تبرير المبالغة ، والبحث عن مخرج ينفي عنها الغلو والإغراق ويجعلها في شكل الممكن ولما كان القرآن قد نزل بلغة العرب وعلى أساليبهم كانت المبالغة جائزة في لغة العرب وفي أساليبهم على التأويل الذى رآه)[1] .

فلا يكفي في تفسير تناقض ابن قتيبه ، وفيه رجوع عن بعض الاحترام والتقدير الذى لقيته لغة القرآن الكريم ، والشعر العربي في (تأويل مشكل القرآن) عند ابن قتيبه الى محاكمة لغة القرآن الكريم ، والشعر العربي بحدود الواقع الخارجي ، وبمدركات العقل البشرى المحدودة ، ومن ثم الحكم على الشعراء بالإفراط والادعاء ، والانصراف بالآيات القرآنية الى التأويل ، وربطها مع الواقع الخارجي بعلاقات الاستعارة والمجاز ويؤكد الدكتور هذا الرجوع بقوله (ولذا فإني أوثر رأيه في (الشعر والشعراء) وفي بعض ما ورد في (تأويل مشكل القرآن) لأنه في (الشعر والشعراء) كان حرا طليقا لا قيد عليه ، ولا مؤثر فيه إلا عقله وذوقه

---

(١) المرجع السابق : ٢٧٦ ، ٢٧٧

وحسه ، وفي (التأويل) إذ بنى رأيه على الاستعارة (١) ولست أدرى ما هو مقصود الدكتور من الحرية التي افتقدها ابن قتيبه في (تأويل مشكل القرآن) ؟!.. هل يعني بذلك أن القرآن فرض على ابن قتيبه قبول ألوان من الأساليب غير مقبولة ؟

كلا ، ان الأمر ليس كذلك ولكنها لغة القرآن التي توجد الألفاظ في سياقها في حياة جديدة تستمد مقوماتها من السياق الذى وردت فيه . ذلك السياق الذى كان متميزا عن كلام العرب الذين نزل القرآن بلسانهم .

وقبل أن أختتم هذا الفصل أود أن أشير الى أنه وان كنت أرفض صحة المعيار الذى قامت عليه فكرة المبالغة في تراثنا البلاغي والنقدى ، وما لحقها من سوء فهم تجاوز بها ما يدل عليه في اللغة من بلوغ الغاية والنهاية في المعنى ، إن كنت أرفض ذلك فليس معنى ذلك أن اللغة الأدبية تقبل كل قول يحلق فيه صاحبه في أودية الوهم ، وينأى به عن المعقول ، وإنما الذى تقبله من ذلك ما كان له في السياق وجود يظهر أصالته ، ويتناسق به مع غيره في التركيب اللغوى للكلام ، كما كان ذلك في كثير من الأمثلة التي ناقشناها في أثناء هذا البحث .

وأود أن أشير الى أن هناك ما يرفض من أدبنا الاسلامي لا لأن السبب فيه المبالغة ، ولكن لأن فيه ما يتعارض مع سلامة العقيدة .

فمن ذلك قول ابن هانئ الأندلسي يمدح الخليفة المعز لدين الله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ ... فاحكم فأنتَ الواحدُ القهارُ
وكأنما أنتَ النبيُّ محمدٌ ... وكأنما أنصارُكَ الأنصارُ
أنت الذى كانت تبشّرنا به ... في كُتبِها الأحبارُ والأخبارُ (٢)

وقول على بن جبلة في مدح أبي دلف :

أنت الذى تنزلُ الأيامُ منزلَها ... وتنقلُ الدّهرَ من حالٍ إلى حالِ
وما مددتَ مدى طرفٍ إلى أحد ... إلا قضيت بأرزاق وآجال (٣)

وقول أبي نواس :

يا أحمد المرتجى في كل نائبةٍ ... قم سيدى بنصبي جبارَ السموات (٤)

---

(١) المرجع السابق : ٢٢٧ (٢) ديوان الحسن بن هانئ : ١٤٦
(٣) الشعر والشعراء : ٥٥١ (٤) ديوان ابي نواس : ١٧٤

(الخاتمـــــة)

اني لأحمد الله العلي القدير على نعمه التي لا تحصى ، وما هيأه لـي من أسباب لإكمال هذا البحث ، الذى درست فيه " المبالغة في البلاغة العربية " في ثلاثة أبواب ، حيث تتبعت في الباب الأول ، المبالغة في اللغة وفي استعمالات النقاد والبلاغيين ، وغيرهم من اللغويين والمتكلمين ، حيث وجدت أنها لا تعني في اللغة إلا بلوغ الغاية والنهاية ، ولا تتجاوز ذلك إلى ما اقترن بها عند النقاد والبلاغيين من الإسراف ، والإفراط ، والكذب والادعاء .

وظلت محافظة على هذه الدلالة في استعمالها في اللفظة المفردة كما رأينا عند الخليل وسيبويه ، وابن جنى ، والثعالبي ، وغيرهم حتى إذا وصلنا الى البهاء السبكي المتوفى سنة ٧٦٣هـ وجدناه يتجاوز بهذه الدلالة لها في اللغة إلى الإسراف والادعاء .

وأما استعمالاتها في التراكيب فقد خضعت للمفهومين ، بل إن اقترانها بالادعاء والإسراف ، والكذب كان هو المفهوم الغالب ، وكان فيه مخرجا لتأويلات المعتزلة ومن إليهم .

وأما الباب الثاني فدرست فيه " أساليب المبالغة " حيث تناولت أشهر تلك الأساليب ، وبيّنت في كل أسلوب قضية إدخاله تحت " المبالغة " وماذا يعنون بها فيه ، فإن كانوا يعنون بها الإدعاء والإفراط ، والكذب ، رفضتها وبينت بطلان الأساس الذى قام عليه ذلك التفسير في الأسلوب ، وإن كانوا لا يعنون به إلا بلوغ الغاية في تأدية المعنى المراد ، بينت أن ذلك التفسير لا يكفي لبيان وظيفة ذلك الأسلوب داخل السياق الذى جاء فيه .

وأما الباب الثالث والأخير من هذا البحث فقد تناولت فيه (مكانة المبالغة في البلاغة العربية) حيث تناولت في الفصل الأول : شيوع التعليل بالمبالغة وأسبابه ، حيث استنتجت أن هذه الأسباب تعود إلى عاملين رئيسيين هما :

١ — فكرة صياغة المعنى :

وهو الأمر الذى استقر في تراثنا البلاغي والنقدى ، حيث تصوروا أن الصيغة التي يخرج عليها الكلام تعبر عن معنى سابق ، بيّنه حدوده ومعالمه ، ثم تفصّل هذه الصيغة على تلك الحدود والمعالم ، فما طابق منها كان حقا وصدقا ، وما زاد عن ذلك كان مبالغة وإفراطا ، وادعاء .

٢ — تحكيم العقل والواقع الخارجي في الأداء اللغوى :

وهو أمر طاف بالأداء اللغوى في تراثنا ، فمزّقه ، ورمى بإبداعه ، وتفرّده في أودية المجاز ، والمبالغة ، اللذين كانا من وسائل التعبير لخروج الأداء عن نسقه الذى يفترض أن يكون عليه ، ليطابق الواقع الخارجي ، ويسابر المعقول ، ومن هنا كان الحكم بالمبالغة على بعض آيات القرآن الكريم كقوله تعالى " وبلغت القلوبُ الحناجرَ " (١) التي أوجبوا فيها ما ليس منها حيث أوجبوا فيها إضمار " كاد " .

وأما الفصل الثاني : فحاولت أن أتبين فيه المواقف من المبالغة ، حيث درست فيه (المبالغة بين القبول والرفض) وحاولت أن أتبين الأسباب الداعية إلى قبولها ، والأسباب الداعية إلى رفضها .

وهكذا يتبين لنا :

أن دلالة المبالغة في اللغة لا تعني ما اقترن بها من إفراط ، وكذب ، وادعاء ، وأن هذه التهم التي اقترنت بها مبنية على أسس وافتراضات بعيدة كل البعد عن طبيعة لغة العمل الأدبي والفني الذى تتحرك فيه الألفاظ في وجود وسياق خاص ، حيث تكتسب من خلال وجودها في السياق حياة أخرى تتجاوز المعنى الوضعي الذى يتصور أن وضعها أصل فيه ، وأن تجاوزها إلى غيره مجاز أو مبالغة .

ومن هنا كان علينا أن نرفض هذه المبالغة التي تقترن بهذه التهمة في تفسير كتاب الله الكريم (الذى لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه) .

وأما تلك المبالغة الباقية دلالتها وفق استعمالها في اللغة فلا ضير من التعامل بها في التفسير والدراسات النقدية والبلاغية ، مع مراعاة قصورها في تفسير وتحليل العمل الأدبي . ولن أدعي أن هذه النتائج التي توصلت اليها نهائية ، وما أستطيع أن أقوله هو أن هذه النتائج جاءت عن طريق التتبع والاستقراء ، والاستنتاج والمقارنة كما يظهر من ثنايا هذا البحث ، فان أصبت فلله الحمد والمنّة على توفيقه وإن جانبني الصواب فيكفيني من هذه المحاولة التنبيه إلى خطورة استعمال هذا " المصطلح " بمفهومه الخاطئ في الحكم على قرآننا الكريم ، وتراثنا العربي الأصيل ولكل مجتهد نصيب .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(فهـرس المصادر والمراجع)

الآمـــــدى (أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى) :
ـ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحترى .
تحقيق السيد احمد صقر ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر سنة ١٣٩٢هـ .

ابن الأثـــير (أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير)
ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م .

الأزهـــــرى (أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى)
ـ تهذيب اللغة .
تحقيق : عبد السلام محمد هارون ـ دار القومية للطباعـــــة سنة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م .

د . احمد ابراهيم موسى :
ـ الصبغ البديعي في اللغة العربية .
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة سنة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م

د . احمد عبد السيد الصاوى :
ـ النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني
الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩م .

ابن أبي الاصبع (المصرى) :
ـ بديع القرآن
تقديم وتحقيق د . حفني محمد شرف ـ الطبعة الثانية ـ دار نهضة مصر .
ـ تحرير التحبير
تحقيق د . حفني محمد شرف ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية القاهرة ١٣٨٣هـ .

الأصفهانـــي (أبو بكر محمد بن أبي سليمان داود الأصفهاني)
ـ الزهرة .
نشر الدكتور : لويس نيكل البوهيمي ـ مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت سنة ١٩٣٢م.

الألوســـي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي)
ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني .
دار احياء التراث العربي ـ بيروت .

الباقلانـــي (أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني) :
ـ اعجاز القرآن
تحقيق السيد احمد صقر ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف بمصر

د . بدوى طبانـة :
ـ قدامة بن جعفر والنقد الأدبي
الطبعة الثالثة ـ مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م

التفتازانـــي (سعد الدين التفتازاني)
ـ مختصر السعد على تلخيص المفتاح .
ضمن شروح التلخيص ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

ابن تيميـــة (تقي الدين احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية)
ـ الايمان .
الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩ هـ ـ المكتب الاسلامي ـ بيروت .
ـ مقدمة في التفسير .
تحقيق د . عدنان زرزور ـ دار القرآن الكريم ـ الكويـــت
ـ الطبعة الأولى ١٣٩١هـ.

الثعالـــبي (عبد الملك بن محمد بن اسماعيل أبو منصور الثعالبي النيسابوري)
ـ فقه اللغة وسر العربية
تحقيق : مصطفى السقار ـ ابراهيم الابياري ـ عبد الحفيظ شلبي
الطبعة الأخيرة ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ـ مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي .
ـ يتيمة الدهر .
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الفكر العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣م ـ ١٣٩٢هـ.

ثعلب (أبو العباس احمد ثعلب)
ـ قواعد الشعر .
شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الأولى سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي

د . جابر احمد عصفور .
ـ الصورة الفنية في التراث النقدى والبلاغي .
دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٤م.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ)
ـ الحيوان .
تحقيق : عبد السلام محمد هارون ـ دار الفكر العربي ـ بيروت سنة ١٩٦٩م ـ ١٣٨٨هـ.
ـ البيان والتبيين .
تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ـ الطبعة الثالثة ـ مؤسسة الخانجي بالقاهرة .

جان بول سارتر .
ـ ما الأدب .
ترجمة وتقديم وتعليق : د . محمد غنيمي هلال ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة .

الجرجاني (القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني) .
ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه .
تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل ابراهيم ـ علي محمد البجاوى ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جنى)
ـ الخصائص .
تحقيق : محمد علي النجار ـ الطبعة الثانية ـ دار الهدى للطباعة والنشر ـ بيروت .

ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها .
تحقيق : علي النجدى ناصف ـ د . عبد الفتاح اسماعيل شلبي
واشترك معهما في تحقيق الجزء الأول د . عبد الحليم النجار ـ
لجنة احياء التراث الاسلامي ـ القاهرة ١٣٨٩هـ ـ ١٣٦٩م

الحاتمي (أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي)
ـ الرسالة الموضحة
تحقيق د . محمد يوسف نجم ـ بيروت سنة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م

ابن حجة الحموى (تقي الدين أبو بكر علي)
ـ خزانة الأدب ـ دار القاموس الحديث ـ بيروت .

أبو حيان (أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي
ـ البحر المحيط . الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ـ دار
الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

أبو حيان التوحيدى (علي بن محمد بن العباس التوحيدى)
ـ الامتاع والمؤانسة
تحقيق : أحمد أمين ـ أحمد الزين ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت

الخالديان (أبو بكر محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم)
ـ الأشباه والنظائر .
تحقيق السيد محمد يوسف ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ
القاهرة سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥م .

بن خالويه (أبو عبد الله الحسن بن خالويه)
ـ ديوان أبي فراس .
دار بيروت للطباعة والنشر سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

الخنساء (تماضر بنت عمرو)
ـ ديوان الخنساء .
دار صادر ـ بيروت .

الدسـوقي (محمد بن محمد بن عرفه الدسوقي)
ـ حاشية الدسوقي على مختصر السعد .
ضمن شروح التلخيص ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

د . رجاء عيد .
ـ فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور .
طبع منشأة المعارف بالاسكندرية .

ابن رشيق (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدى)
ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده .
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الرابعة
سنة ١٩٧٢م ـ دار الجيل ـ بيروت .

الرّماني (أبو الحسن علي بن عيسى الرماني)
ـ النّكت في اعجاز القرآن .
ضمن (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)
حققها وعلق عليها : محمد خلف الله ـ د . محمد زغلول
سلام ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف بمصر .

ريتشاردز .
ـ مبادئ النقد الأدبي .
ترجمة مصطفى بدوى ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف ـ القاهرة
١٩٦٣م .

الزركشي (الامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي)
ـ البرهان في علوم القرآن .
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار المعرفة ـ بيروت .

الزمخشرى (ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمي)
ـ أساس البلاغة
دار مطابع الشعب ـ القاهرة سنة ١٩٦٠م .
ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه
التأويل .
رتبه وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد ـ الطبعة الثانية ـ
مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م .

السبكي (بهاء الدين ابو حامد أحمد بن تقي الدين السبكي)
ـ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح
ضمن شروح التلخيص ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

السبكي (تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي)
ـ طبقات الشافعية
تحقيق : محمود محمد الطناحي ـ عبد الفتاح محمد الحلو
الطبعة الأولى بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي)
ـ مفتاح العلوم .
طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت .

ابن سنان (الأمير ابو محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي)
ـ سر الفصاحة .
صححه وعلق عليه : عبد المتعال الصعيدى ، مطبعة محمد علي
صبيح وأولاده بمصر سنة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م .

سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)
ـ الكتاب
تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ـ دار القلم .

سيد قطب
ـ في ظلال القرآن
الطبعة السابعة ـ دار الشروق ـ جده

بن سيده (علي بن اسماعيل بن سيدة)
ـ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة .
تحقيق د . ابراهيم الابيارى ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ ـ
١٩٧١م شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

السيوطي (عبد الرحمن جلال الدين السيوطي)
ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها .
شرح وضبط : محمد احمد جاد المولى ـ علي محمد البجادى
محمد أبو الفضل ابراهيم ـ نشر دار احياء الكتب العربية ـ طبع
مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

الشـــــــنتمرى (يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمرى المعروف بالأعلم)
ـ شعر زهير بن أبى سلمى
تحقيق د . فخر الدين قباوه ـ دار القلم العربي سنة ١٣٩٣هـ
ـ ١٩٧٣م .

د . شـــوقي ضيـف :
ـ البلاغة تطور وتاريخ .
الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر .

د . صـلاح فضـــل :
ـ نظرية البنائية في النقد الأدبي
مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٧٨م .

ابن طباطبـــــا (محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى)
ـ عيار الشـــعر
تحقيق وتعليق د . طه الحاجرى ـ د . محمد زغلول سـلام ـ
المكتبة التجارية ـ القاهرة سنة ١٩٥٦م .

العباســـــــي (عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن احمد العباسي) :
ـ شرح شواهد التلخيص المسمى (معاهد التنصيص)
المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٠٤هـ.

عبد الجبـــــار (قاضي القضاة عبد الجبار بن احمد الهمذاني) :
ـ تنزيه القرآن عن المطاعن
طبع دار النهضة الحديثة ـ بيروت .
ـ متشابه القـــرآن
تحقيق : عدنان محمد زرزور ـ دار التراث ـ القاهرة .

د . عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال :
ـ نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوى .
نشر دار الفكر العربي ـ طبع بمطبعة دار القرآن ـ القاهرة .

د . عبد الفتاح عثمان :
ـ نظرية الشعر في النقد العربي القديم
طبع مكتبة الشباب ـ مصر .

د . عبد الفتاح لاشـــين :

ـ بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار

ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي ـ مطبعة دار القـــرآن ـ القاهرة .

د . عبد القادر حســـين :

ـ أثر النحاة في البحث البلاغي

دار نهضة مصر للطبع والنشـــر .

عبد القاهر الجرجانـي :

ـ أسرار البلاغـــة :

شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ـ الطبعة الثانيـــة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م ـ مكتبة القاهرة .

ـ دلائل الاعجـــاز

تصحيح وتعليق : السيد محمد رشيد رضا ـ دار المعرفـة ـ بيروت سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .

أبو عبيـــــدة (معمر بن المثـــنى)

ـ مجاز القـرآن

تحقيق : محمد فؤاد سـزكين ـ مطبعة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٥٤م .

العســـــكرى (أبو احمد الحسن بن عبد الله العسكرى) :

ـ المصون في الأدب .

تحقيق : عبد السلام محمد هارون ـ الكويت ـ سنة ١٩٦٠م .

العســـــكرى (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى)

ـ ديوان المعاني

نشر مكتبة المقدسي ـ القاهرة سنة ١٣٥٢هـ.

ـ الصناعتين (الكتابة والشعر)

تحقيق : علي محمد البجادى ـ محمد أبو الفضل ابراهيـم ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

ابن عقيـــــل (قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصرى)
ـ شرح ابن عقيل .
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة العشرون سنة ١٤٠٠هـ.

العكـــــبرى (أبو البقاء العكبرى)
ـ التبيان في شرح الديوان
ضبطه وصححه : مصطفى السقا ـ ابراهيم الابيارى ـ عبـــد الحفيظ شلبي .
طبعة الأوفست ـ دار المعرفة ـ بيروت سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٨م

العلـــــــوى (الامام يحيى بن حمزه بن علي بن ابراهيم العلوى اليمني)
ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز .
نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

د. علي محمد حسن العمارى :
ـ بلاغة الرسول ـ طبع دار الأنصار بالقاهرة .
ـ المعاني بين القصد والافراط ـ بحث نشر في مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ـ العدد الرابع سنة ١٤٠١هـ.

عمـر بن أبي ربيعـــة :
ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة .
دار صادر ـ دار بيروت ـ سنة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

الفـــيروز أبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى)
ـ القاموس المحيط .
طبع مؤسسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة .

القالـــــــي (أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادى)
ـ الأمالـــي .
طبع دار الفكر ـ بيروت .

ابن قتيبـــــة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة)
ـ تأويل مشكل القرآن .
شرح ونشر : السيد احمد صقر ـ الطبعة الثانية ـ دار التراث القاهرة .

ـ الشعر والشعراء .
طبعة مدينة ليدن سنة ١٩٠٢م .

القرطاجـــــني (حازم القرطاجني) :
ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء .
تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه ـ دار الكتب الشرقية ـ تونس ١٩٦٦م .

القزويـــــــني (جلال الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن امـــام الدين القزويني الملقب بالخطيب) :
ـ الايضاح . طبع مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ـ مصـر ـ واعتمدت أيضا على الايضاح ضمن شروح التلخيص وأشرت الى ذلك في الهامش .

قدامـــــــة بن جعفر (أبو الفرج قدامة بن جعفر)
ـ نقد الشـعر .
تحقيق وتعليق د . محمد عبد المنعم خفاجي ـ الطبعة الأولى ـ سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

ابن كثـــــير (الامام عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي
ـ تفسير القرآن العظيم .
طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه .

كمـــال أبو ديـب :
ـ جدلية الخفاء والتجلي (دراسات نبيوية في الشعر)
الطبعة الأولى عام ١٩٧٩م ـ دار العلم للملايين

د . لطفي عبد البديع :
ـ التركيب اللغوى للأدب .
الطبعة الأولى ـ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠م .
ـ فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث .
نشر مكتبة النهضة المصرية ـ طبع بمطبعة السنة المحمدية .

المبرد (أبو العباس محمد بن زيد المعروف بالمبرد النحوي) :
ـ الكامل في اللغة والأدب .
نشر مكتبة المعارف ـ بيروت .

متى بن يونس (أبو بشر متى بن يونس القناني)
ـ كتاب ارسطوطاليس في الشعر .
تحقيق ودراسة : د . شكرى عياد ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧م .

د . محمد حسين أبو موسى :
ـ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية .
دار الفكر العربي ـ القاهرة .
ـ التصوير البياني (دراسة تحليلية لمسائل البيان)
الطبعة الثانية سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ دار التضامن للطباعة ـ القاهرة .

د . محمد زغلول سلام :
ـ ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد .
نشر وطبع مكتبة نهضة مصر .

د . محمد زكي العشماوي :
ـ قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث .
دار النهضة العربية ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٩م .

د . محمود السيد شيخون :
ـ الأسلوب الكنائي
الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ـ مكتبة الكليات الأزهرية

المرتضى (الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوى العلوى)
ـ أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م

المرزبـــــــاني (ابو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني)
ـ الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر)
تحقيق : علي محمد البجاوي ـ دار نهضة مصر سنة ١٩٦٥م .

د . مصطفى ناصف :
ـ الصورة الأدبية . دار مصر للطباعة .

ابن المعـــــــتز (عبد الله بن المعتز)
ـ كتاب البديع .
نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكي ـ منشورات دار الحكمـــة ـ دمشق ـ

المغربـــــــــي (ابن يعقوب المغربي) :
ـ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح .
ضمن شروح التلخيص ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

ابن منظـــــــور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري)
ـ لسان العرب .
طبعة مصورة عن طبعة بولاق ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة .

د . مهدي صالح السامرائي :
ـ تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية .
الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م ـ المكتب الاسلامي ـ دمشق .

الميدانـــــــي (أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم الميداني)
ـ مجمع الأمثال .
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م .

أبـــو نـــــواس (الحسن بن هانئ) :
ـ ديوان أبي نواس .
تحقيق : احمد عبد المجيد الغزالي ـ مطبعة مصر سنة ١٩٥٣م .

ابن هانـــــــئ (الحسن بن هانئ الأندلسي) :

ـ ديوان ابن هانئ الأندلسي ـ بيروت سنة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م

ابن يعيـــــــش (موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي) :

ـ شرح المفصل .

عالم الكتب ـ بيروت ـ مكتبة المتنبي ـ القاهرة .

(فهرس الموضوعات)

الموضوع	الصفحة
مقدمة	أ ـ د
الباب الأول :	
التطور التاريخي لفكرة المبالغة ومصطلحاتها	١ ـ ١٠٨
تمهيد : المعنى اللغوى للمبالغة	٣
الفصل الأول :	
استعمال المبالغة وتطور مصطلحاتها حتى نهاية القرن الرابع الهجرى	٥ ـ ٥٢
بداية التسمية بلفظ (المبالغة)	٥
المبالغة في نقد الجاهلية وصدر الاسلام	٨
المبالغة في التأليف النقدية والبلاغية	١١
١ ـ المبالغة في بدايات التأليف النقدى والبلاغي	١١
٢ ـ عند قدامة بن جعفر	١٤
٣ ـ عند الآمدى	١٨
٤ ـ عند الرماني	٢٢
٥ ـ عند ابن جني	٢٩
٦ ـ عند أبي هلال	٣٩
٧ ـ عند الباقلاني	٤٧
٨ ـ عند نقاد آخرين	٤٨
الفصل الثاني :	
المبالغة ومصطلحاتها عند علماء القرن الخامس الهجرى	٥٣ ـ ٩٧
١ ـ القاضي عبد الجبار	٥٣
٢ ـ ابو منصور الثعالبي	٥٦
٣ ـ الشريف المرتضى	٦٠
٤ ـ ابن رشيق القيرواني	٦٣
٥ ـ ابن سنان الخفاجي	٧١
٦ ـ عبد القاهر الجرجاني	٧٨
٧ ـ الزمخشرى	٩١
الفصل الثالث :	
المبالغة عند المتأخرين	٩٨ ـ ١٠٨

الموضوع	الصفحة
١ — ابن الأثير	٩٨
٢ — مدرسة التلخيص وشروحه	١٠٢
٣ — الامام العلوى	١٠٥
الباب الثاني :	
أساليب المبالغة في البلاغة العربية	١٠٩ — ١٩٥
الفصل الأول :	
المبالغة في علم البيان	١١١ — ١٤٨
١ — المبالغة في التشبيه	١١١
٢ — المبالغة في الاستعارة	١٢٦
٣ — المبالغة في الكناية	١٣٦
معنى "أبلغ" في قولهم : المجاز أبلغ من الحقيقة	١٤١
الفصل الثاني :	
المبالغة في علم المعاني	١٤٩ — ١٧٦
١ — المبالغة في الاطناب	١٤٩
٢ — المبالغة في القصر	١٧٣
الفصل الثالث :	
المبالغة في علم البديع	١٧٧ — ١٩٥
١ — مبحث المبالغة وعلم البديع عند المتأخرين	١٧٧
٢ — المبالغة في حسن التعليل	١٨٣
٣ — تجاهل العارف	١٩١
٤ — تأكيد المدح بما يشبه الذم	١٩٣
الباب الثالث :	
مكانة المبالغة في البلاغة العربية	١٩٦ — ٢٤٠
الفصل الأول :	
شيوع التعليل بالمبالغة وأسبابه	١٩٨
١ — فكرة صياغة المعنى	١٩٨
٢ — تحكيم العقل والواقع الخارجي في الأداء اللغوى	٢٠٩
الفصل الثاني :	
المبالغة بين القبول والرفض	٢٢٢ — ٢٤٠
الخاتمة	٢٤١
فهرس المصادر والمراجع	٢٤٣